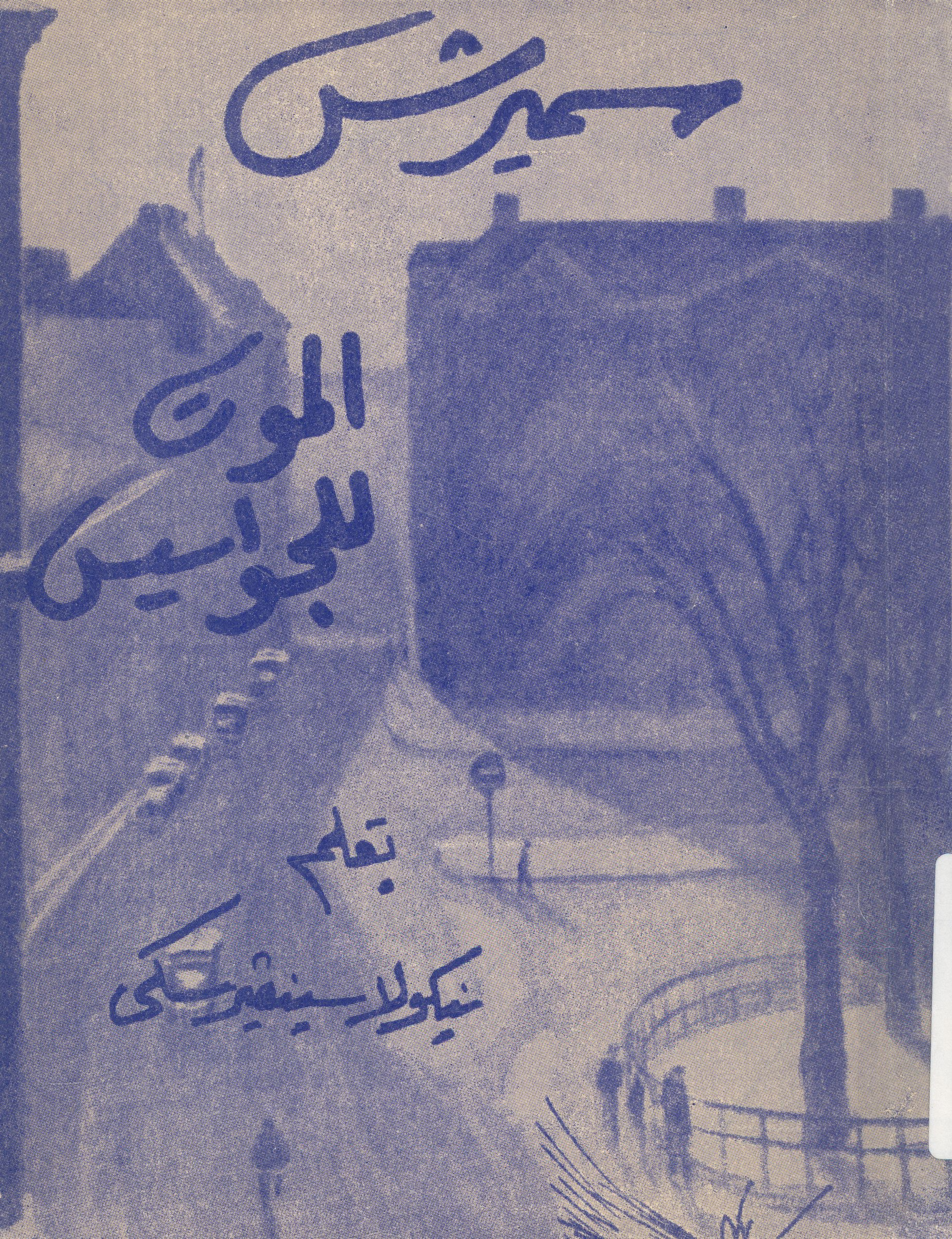


سميرش
الموت للجواسيس
بقلم
نيكولاي سينفيرسكي

اهداءات ٢٠٠٣

أسرة أ.د/القطب محمد القطب طبلية

القاهرة

سميرش ...

« المـوت للجواسيس »

■

بقلم

نيقـولا سينـڤيرسكى

قام بتحرير الكتـاب واعـداده للنشر

كيرميت و ميلت هيل

■

SMERSH

NICOLA SINEVIRSKY

ed:

KERMIT & MILT HILL

■

اصدار شركة هنرى هولت

١٩٦٤

هـــــذا الـــكتاب

يوميات « نيقولا سينيفريسكى » ، يوميات مواطن من أرض الكربات الروسية التى كانت تحت حكم المجر منذ أكثر من ألف سـنة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان ضمن هيئة المقـاومة للشـيوعية ، وفى المرحلة الأخيرة من الحرب أرسل الى أرض الكربات موطنه الأصلى بعد أن أتم دراسـة الهندسة بغرض التسرب الى داخل منظمة بوليس أمن الدولة السوفييتى ومعرفة ماذا لدى المنظمة من معلومات عن حركة المقاومة داخل الروسيا ، وعن أنصارها من المهاجرين الروس فى خارج الروسيا ، وفحص ملفات المنظمة واتلاف وتدمير كل ما يكون فى ملفات المنظمة من أدلة ضد أعضاء المقاومة ٠

وكان الكتـاب هـو سرد قصصى لحياته منذ وصوله الى موطنه ، ومحاولاته تأدية مهمته ، واختياره ليكون مترجما فى منظمة « سمـيرش » المنظمة التى تطلق على نفسهـا للتغطية أنها تحارب الجواسـيس ولكنها فى الواقع تحـارب خصوم الشـيوعية ، وأولئك الذين يقـاومون اسـتعباد الشيوعيين للبلاد المغزوة ٠

ومن ثم يكون الكتاب هو وصف المرحلة العملية فى تنفيذ الغرض وتحقيق المهمـة ٠

ومن الكتاب ندرك أهمية :

١ ـ اختيار الغطاء ٠

٢ ـ صلاحيته بالنسبة للشخص ٠

٣ ـ أهمية التكيف مع الظروف .

٤ ـ التصرف فى المواقف الحرجة .

٥ ـ الاحتمال والطاقة وأهمية كبح جماح النفس .

٦ ـ التيقظ وسرعة البديهة وسرعة الالتقاط .

صحيح أن الصورة التى تطغى على الكتاب هى محاولة ابراز نظام المخابرات الشيوعية وبوليس أمن الدولة واجراءات التحقيق والتعذيب والاستعباد الجماعى للناس ، كما أن الكتاب فى الواقع يبرز بعض النواحى الانسانية العامة .. ولكن هذا كله لا يعطل العرض الجيد للعملية التى قام بها المؤلف نفسه لتحقيق مهمته .

والكتاب من هذه الناحية كتاب دراسى يستحق أن يقرأ بعناية .

تصدير :

توجد فى جبال الكربات فى الجزء المضطرم من جنوب شرقى أوروبا منطقة تصل مساحتها الى ما يقرب من خمسة آلاف ميل مربع ويعيش فيها نحو ثمانماية ألف نسمة ولكنها مع هذا منطقة لا يعرفها الكثيرون ، وتعتبر الى حد بعيد مجهولة بالنسبة لاولئك الذين يعيشون خارجها ٠

وفيما عدا تسعة عشر أسبوعا عاشتها هذه الارض فى سيادة شبه طغوائية ، وفيما عدا سيادة ألمانية سيطرت على هذه الأرض ليوم واحد فى سنة ١٩٣٨ فيما عدا هاتين الفترتين اللتين تعدان بالساعات أو بالأيام ٠٠ لم يعرف لهذه الارض أى وجود استقلالى ، كان تاريخها تاريخ شعب مهمل ٠٠ شعب فقير فرقه تعدد الولاء ٠٠ تصارعت فوق أرضه القوى المجاورة من أجل مصالحها المتضاربة ، وقد عاشت هذه المنطقة الى أن جاء الحكم السوفييتى وضمها السوفييت لداخل حدودهم وأطلقوا عليها اسم « الكربات ـ الاوكرانية » ، عاشت لا اسم لها تعرف به ، بل أنها كانت تعرف حينا باسم « الكربات الروثانية » ، « روثانيا المجرية » « الكربات الروسية » « عبر الكربات » وما الى هذا من المسميات التى كانت تطلق بين حين أو آخر تبعا للظروف والملابسات وتبعا لاتجاهات من يطلق التسمية أو يعنى بالتحدث عنها ٠٠

وقد حكم المجريون الأرض لالف سنة ، ثم ضمت الى تشيكوسلوفاكيا فى سنة ١٩١٩ والى أن تدخل هتلر فى هذا الركن من العالم عاش الناس أسعد أيام حياتهم وأكثر سنى حياتهم تقدما وازدهارا ، ولكن حتى فى هذه السنوات كان الناس يقسمون ولاءهم بين تشيكوسلوفاكيا ، المجر ، أوكرانيا الكبرى (الدولة التى كان يتحدث عنها بما يشبه الاحلام أولئك الانفصاليون الاوكرانيون الذين كانوا يرسمون للمستقبل لدولة ذات سيادة تتكون من الولايات البولندية والتشكية والروسية) ثم للروسيا ، ولقد حلم الكثيرون ولا شك بهذه الدولة الكبرى ومن ثم فقد أملوا خيرا عندما اقترب الروس من بلادهم ٠

ولكن عندما جاء الروس جاءت معهم فى ركابهم وحدات « سميرش » SMERSH فكانت لهم قصة ...

قصة يبدو معها أنه عندما تحتل القوات الشيوعية منطقة أو مدينة أو قرية فى أى مكان من العالم فان هذه الوحدات وحدات « سميرش » تصل معهم فتحطم كل شىء فى طريقهم ، ولكنها لا تحطم المبانى ولا مستودعات الذخيرة بل تحطم أرواح الناس وطاقاتهم على القتال من أجل حريتهم .

لقد حدث هذا فى الصين وفى كوريا كما حدث من قبل فى الكربات الروسية وفى تشيكوسلوفاكيا وفى المجر ورومانيا ، ومن الممكن أن تحدث فى أى مكان آخر يمكن أن تصل اليه المطرقة والمنجل حتى ولو كان هذا المكان أمريكا نفسها .

وكانت « سميرش » استنباطا جديدا فى معركة اخضاع الشعوب، ومن هذه الناحية يجب أن تدرس تكتيكاتها بعناية !!

تقدمة للمحررين :

فى ليلة ثقلت سماؤها بالضباب فى خريف سنة ١٩٤٩ قابلنا فى قبو مظلم من طابق أرضى لمطعم لا يبعد عن الكابيتول فى واشنجطون بأكثر من عمارة واحدة ، قابلنا رجلين كان أحدهما روسى اسمه قسطنطين بولدريف والآخر ونيت سمث نائب كنساس الامريكى ، وكان سمث عميدا متقاعدا حارب في أوروبا فى الحربين العالميتين ، وقد أدت هذه المقابلة الى اعداد وطبع كتاب « سميرش » من قلم نيقولا سينفيريسكى فى هذه البلاد (الولايات المتحدة الأمريكية) .

وقد تحدث بولدريف بعصبية ظاهرة لمدة أربع ساعات كاملة وتحدث فى طلاقة عن حياته كرجل حارب ضد الشيوعية فى أوروبا ، وقاتل فى اكثر من مكان لمحاولة قلب نظام الحكم فى روسيا السوفييتية .

وكانت قصته فضفاضة لا يمكن أن تصدق ولكن مع هذا كان فيها جانب يستحق التقدير وهى مصادقة النائب سمث على الكثير مما جاء فيها ، وسمث صديق قديم وكانت صداقته هى العامل الذى مكن من الاعداد لهذه المقابلة الاولى .

وفى الصباح التالى التقينا لنعيد دراسة الخطوط السريعة التى نقلناها من حديثنا فى الليلة السابقة ، ولثلاثة أسابيع فحصنا الحقائق حول حركة المقاومة ضد الروس مستخدمين المصدر الوحيد الموجود فى واشنجطون ، مع الانتفاع بأى مصادر أخرى قد لا تكون ميسورة لرجال الصحف .

وفى أوائل نوفمبر نشرنا سلسلة من المقالات عن حركة المقاومة فى داخل روسيا ، وأشرنا فى هذه المقالات الى المعلومات المستقاة من بولدريف .

وبعد أسابيع قليلة عرض علينا بولدريف نسخة من اليوميات التى كتبها نيقولا سينفيريسكى والتى كانت تتحدث عن قصة أروع من قصة بولدريف ، ومن يوميات سينفيريسكى عرفنا لأول مرة حقيقة «سميرش». وبعد دراستنا لبعض فقرات من اليوميات منرجمة من الروسية الى الانجليزية قررنا اعادة تحرير هذه اليوميات واعدادها للنشر فى أمريكا ، وقد أمكن الحصول على حق الطبع بالبرق من سينفيريسكى الذى كان يوم ذاك يختفى فى مكان ما من ألمانيا الغربية ،وبدأنا العمل بمعاونة بولدريف. وبعد ثلاثة أسابيع كان المخطوط قد تم اعداده .

وقمنا مرة ثانية ببذل كل جهد مستطاع لفحص حقيقة ما فيه من مادة مع التحرى عن المؤلف نفسه ، وقد أدى هذا الى معرفة أن عددا قليلا جدا من ذوى المراكز الكبيرة فى المخابرات هم الذين يعرفون بوجود وحدات « سميرش » هذه ، وكان هؤلاء يحجمون طويلا عن مناقشة الامر .

وعندما وصلنا الى معرفة هذا كان المخطوط قد تم فى صورته النهائية لتقديمه للنشر وكان من الواضح أنه يحتوى لا على يوميات صحيحة حقيقة فحسب . بل أنه يقدم معلومات تفصيلية دقيقة عن هذا الاستحداث السوفييتى لوحدات « سميرش » الكلمة التى تعنى فى معناها الحرفى « الموت للجواسيس » ولكنها فى كيانها تحوى أكثر من هذا بكثير فهى التى تمهد الطريق للقوات الشيوعية ولكنها لاتحطم الابنية ولا مستودعات الذخيرة فحسب بل تحطم أرواح الافراد وطاقاتهم على القتال حتى من أجل حرياتهم .

وفى هذا الكفاية .

واشنجطون أغسطس ١٩٥٠

محتويات الكتاب

١
العودة الى أرض الوطن

« انك فى الكربات ــ الروسية » لن تكون موضع اشتباه ، انك في وطنك وبين أهلك وعشيرتك • ويقتضي واجبك أن تشق طريقك الى منظمة NKVD ، وبعد تسلم السوفييت مقاليد الامور • عليك أن تدرك مدى ما يعرفونه عن حركة المقاومة في الروسيا • عليك أن تبحث في ملفاتهم عن أسماء أفراد منظمتنا • ثم تعمل على ازالة أى دليل فى غير صالحنا اذا استطعت الى ذلك سبيلا •

(وكانت تلك هى المهمة التى أوكلت الى • كانت الساعة السابعة صباحا عندما وصلت الى « هوست » فى اقليم الكربات الروسية من بلاد المجر أيام الحرب ، وكان ذلك يوم ٢٧ من سبتمبر سنة ١٩٤٤ ، كانت الشمس ساطعة بأشعتها • وكان الجو صافيا يبعث على النشاط • مما لا يتوفر فى المدن الكبيرة ، وكانت المنازل الصغيرة تبدو كأنها ترحب بالقوم لالتماس الدفء من جدرانها وقد أحاطت بها الاشجار اليانعة وازدهرت ألوان أوراقها ، وكان هناك عدد من السيارات ومركبات النقل محملة بجنود مجريين ، تعبر بهم الطرقات الوعرة فى هذه المدينة الصغيرة ، وكنت كلما سرت ألتقي بجنود مجريين Honveids ، ولكن هؤلاء لم تعد تبدو على وجوههم مظاهر أولئك الشبان الذين كانوا يسيرون يرددون الاناشيد منذ سنتين • فقد كانت وجهتهم الجبهة الامامية وهم يصيحون فى فخر واعتزاز "A Kis Magyar nem fel a nagyo'a szte" (المجرى الصغير لا يخشى بأس الروسى الكبير) ، ولكنهم الآن • بدت عليهم مظاهر التعب والارهاق فقد كانوا رجالا انهكتهم الحروب وطالما واجهوا الموت أمام أعينهم ، ولاحظت أنهم يمرون أمام ضباط بكامل ملابسهم الرسمية حتى دون أن يعيروهم اهتماما بل يشقون طريقهم بنشاط وعزة وشهامة ، ولو كانت هذه المخالفة للنظام قد حدثت من قبل لكانوا عرضة لاشد أنواع العقاب •

حتى اذا اقتربت من منتصف المدينة شاهدت فى نوافذ معروضات مخزن كبير لبيع الاحذية لافتات تمثل أحد أهالى المجر وهو يسحق بقبضة يده الاتحاد السوفييتى ، وكان جمع صغير من الجنود يقفون أمام المخزن ويحملون لافتات تكيل اللعنات لكل حكومة فى العالم ـ حكومة بلادهم • وكذلك الالمان والروس ، وعلى مقربة من المكان وقف جماعة من القرويين يشاهدون المنظر وعلى وجوههم ابتسامة باهتة • بينما كان أحد مواطنى هوست يقف على انفراد صامتا يعبث بشاربه الكبير ، وكانت المدينة بالقرب من جبهة القتال وقد غصت بالجنود وساد الارتباك كل أنحائها وملأ الخوف والذعر أرجاءها •

وكان منزلى على مسافة قريبة ، ولقد استقبلنى أهل القرية بالتحية والترحاب حال وصولى ، وأوقفنى من يعرفوننى من القرويين وأخذوا يستفسروننى أنباء جبهة القتال وهم يبتسمون بينما كانوا يخبروننى عن أشياء كثيرة مما حدث فى القرية ، أنباء من لحقهم الوفاة ، ومن قامت بينهم المشاحنات • ومن تزوج منهم أثناء فترة غيابى عن القرية •

ولم يكن فى استطاعتى أن أرسل كلمة عن مقدمى ومن ثم لم يكن والدى يتوقعان وصولى اليهما ، ووجدت والدى يعمل فى اصلاح عربة مفككة الاجزاء أمام « الشونة » وهى نوع من مخازن الحقول مما كانت تستخدم فى ذلك العهد • وكان يبدو متقدما فى السن أكثر مما كان يبدو حين غادرت البلاد ، كما كان ملوث الثياب بسبب ما لحقها من شحم العربات التى كان يقوم باصلاحها •

وذهل الرجل حين رآنى وقال : « اذن قد عدت الينا » ، وبعد أن تعانقنا أخذ ينظر الى وجهى صامتا بعض دقائق • ثم قال متمهلا : « يبدو لى أنك قد تغيرت وأصبحت أكبر سنا » •

فقلت له : « بالطبع يا والدى • فانى فى الخامسة والعشرين من عمرى الآن » •

« وهل انتهيت من دراستك ؟ » •

« نعم • وأعمل الآن مهندسا » •

« حسنا • أدخل يابنى الى المنزل حيث تلقى والدتك » •

ولما اتجهت صوب المنزل شاهدت والدتي تسرع لاستقبالي وعيناها تفيضان بالدموع ٠

وصاحت قائلة : « نيكولا » ٠ ثم احتضنتني وقبلت وجهي عدة مرات ٠

وبدا الامر كله يبدو على غير ما اعتاد عليه القوم ٠ فكل شخص رأيته وكل فرد التقيت به وتحدثت اليه ٠ كان الجميع يتوقعون وصول الروس٠ كما كانوا فى حالة من القلق ، وفى بلدة هوست ٠ وفى قريتى كان القوم يعملون الكثير عما يجرى فى جبهة القتال ٠ وعلى أية حال لم تكن تلك حقيقة الامر ، ومن الواضح أنه كان هناك من يدركون الاحداث المتوقعة قبل وقوعها ٠

وعندما بدأت أفكاري تتكيف مع طابع عودتى الى أرض الوطن ، أتجه تفكيرى نحو « فيرا » صديقة عهد الطفولة وساورنى العجب لعدم مجيئها٠ اذ لابد أنها سمعت بحضورى ٠ ولكنى تذكرت أن بيتكا وهو من أصدقائى القدامى قد أخبرنى فى مطلع النهار أن فيرا على علاقة ودية مع اندريه كراليتزكي ولم أصدق كلامه، اذ لم أكن أعتقد أن فيرا تحب شخصا آخر بعد ما جرى بيننا ، ثم دار بخلدى أنها فتاة مغرورة متكبرة ٠ ولذلك نرغب فى أن أبدأ بزيارتها أولا ٠ فقررت أن أزورها فى صباح الغد ٠ لانى كنت أشعر نحوها بحب عميق ، وبالرغم من ذلك كان من الافضل ألا أتعجل الامور بهذه الصورة ٠ وقد أثارت كلمات بيتكا فى نفسى الهواجس والشكوك ٠ وبدأت أشعر بمظاهر القلق والحقد ٠ ولكن ـ من ناحية أخرى ـ كنت أعتقد أنه لا بد لى من وأن أتخلى عن فيرا بسبب المهمة الملقاة على عاتقى ٠

وكانت مشاعر الغيرة التى أحسست بها لا تساوى شيئا بمقارنتها بمظاهر الرعب والفزع في كل من براج وبرلين ووارسو وروسيا اذ كانت هناك معتقلات وسجون تجرى فيها تحقيقات واستجوابات بمعرفة شرطة النازى السرية ومنظمة الجستابو وزيادة علىذلك كانت هناك فى بودابست فرقة المجر للجاسوسية المضادة Keimelgarite ٠ وبالرغم من هذا كله كنت أتمتع بحريتى وبصحة جيدة ٠ ولولا هذه الفتاة فيرا لكنت سعيدا بانجاز مهمتى ٠

وكنت قد أكملت دراستي في بودابست وأصبحت مهندسا • وأثناء عودتي الى أرض الوطن تلقيت التعليمات للقيام بهذه المهمة من مجموعة من أصدقائي الروس ممن كرسوا حياتهم ـ كما كرست حياتي ـ لمحاربة الشيوعية ، وكنت أعتقد أن فرص النجاح متوفرة أمامي وليس هناك أفضل منها ، وكانت ميزتي أني كنت مواطنا من الكربات الروسية ، وأن مهمتي تقتضي وجودي في موطني وبين أهلي وعشيرتي ، فقد عاشت أسرتي ثلاثة أجيال متوالية في هذه القرية الصغيرة حيث بدأت القيام بواجبي ، وكان من بين أصدقائي بعض الزعماء من الشيوعيين ممن يعرفون حياتي الماضية ولا يساورهم الشك في أمري ، وكان ذلك سببا في تمهيد الطريق أمامي • كما سبق أن أخلصت في خدمة روسيا ومواطنيها الروس • ولم ألجأ يوما الى افشاء أسرارهم • وكنت أكره الالمان والمجريين كما يكرههم كل أصدقائي وجيراني في تلك القرية الصغيرة ـ ابتداء من والدي الى أوفتشار راعي الماشية في الجبل والذي يعيش في حياة قاسية يكاد يتضور جوعا •

وفي صباح اليوم التالي عندما كنا نتجه نحو الحقول توقف والدي أثناء السير • فقد كان هناك على مسافة • صوت خافت يشبه قصف الرعود •

وقال الرجل : « هل تسمع هذا الصوت • تلك هي مدافع الروس »• وكان صوته يدل على مدى انفعاله •

وكان في عينيه الغائرتين ووجهه المجعد ما يدل على شعوره بالغبطة والرضى • وأصغيت الى الانفجارات البعيدة الغامضة ولم أستطع التمييز بين طلقات مدافع الروس ومدافع المجريين • وبعد أن سرنا قليلا أوقفنا أحد جيراننا من القرويين قائلا : « هل تسمعون ؟ » وكان يبدو عليه أنه سعيد لاقتراب الروس •

وبدأت أفهم حقيقة الموقف • فقد كان كل سكان القرية وكل أهل الكربات الروسية تلك البقية الباقية من روسيا القديمة والمجيدة • يترقبون في شغف وصول أول جندي من السوفييت •

وعندما جاء وقت الظهيرة تناولنا غداءنا • وأخذ والدي يقص علينا كيف استجوبه رجال الجندرمة المجرية ، وكيف كانوا يضربونه بكعوب

البنادق ويعذبونه ٠ وقال أنهم كانوا يركلونه بأحذيتهم الثقيلة ويلقون عليه أسئلة لا يستطيع الاجابة عليها ثم قال في صوت يوحي بشعوره بالمرارة : « لم أستطع أن أرد على أسئلتهم عن أخيك ايفان ، فكان جزائي أن صرخوا في وجهي وبدأوا في ضربي وأهانتي بقـولهم : « أيها الخنزير الاوكراني » ٠ وأصروا على أنني أعرف كل شيء يريدون معرفته » ٠

ولم يكن والدي بطبيعته يميل الى الثرثرة ٠ وقد دهشت ووالدتي كثيرا عندما سمعناه وهو يحكي لنا هذه القصة ، ثم توقف عن الحديث ولم يواصل كلامه الا بعد مضى لحظات ٠ وقال : « اني ولدي في روسيا٠ وسوف يعود في وقت قريب وربما يكون من أفراد الجندرمة ، ولابد وأنه أصبح الآن برتبة الملازم » ٠ ثم تحول الى ناحيتي ابتغـاء أن أؤكد له ذلك ٠

وكان ردي عليه : « اني لا أعلم شيئا ٠٠٠ » ٠

وبدت على والدي مظاهر الغضب وهو يقول : « أنت لا تعلم شـيئا بينما تدعي أنك من المهندسين » ٠ ثم حول وجهه الى ناحية أخرى ٠ ولم يتحدث بعد ذلك الا بعد ساعات قضاها في صمت ٠

وحقا لم أكن أعلم شيئا عن مصير أخي ، فلم يكن وحـده من بين من هربوا الى الاتحاد السوفييتي ، بل كان الالوف من شبابنا ممن فعلوا مثله ولم نعلم شيء عن أي فرد منهم سوى ما يدور من الشائعات وكنا على يقين من شيء واحد ٠ وهو أن يقيم رجالنا جيشـا في الاتحاد السوفييتي وأن على رأسه جنرال سفوبودا ، وفي بعض الاحيان كان راديو موسكو يذيع أسمـاء بعض ضبـاط في هـذا الجيش ممن منحوا أوسمة من الاتحـاد السوفييتي ، وقد أصغيت بنفسي الى بعض هذه الاذاعات ٠ ولم يتبين لي أني أعرف أي فرد من أولئك الابطال الذين تقلدوا الاوسمة ٠ ولم يـكن أمامنا سوى وصول الجيش الاحمر حيث نستطيع الاستدلال على مصير أولئك الافراد ٠

وفي صباح اليوم التالي صحوت مبكرا وذهبت الى الحقول مع والدي ٠ وهناك باشرنا أعمالنا حتى بعد أنهبط الظلام حيث عدنا الى المنزل لتناول العشاء ٠ وبعد أن انتهينا من الطعام واذا بنا نسمع طرقة على الباب ولم يكن القادم سوى صديقي بيتكا ٠

قال صديقى مقترحا : « دعنا نذهب لزيارة لينتور » فلم أر ما يحول دون قضاء عشية مع لينتور الذى كان زعيما شابا له شعبية فى هذا القطاع ، وكنت أعرفه من قبل ولكنى كنت أعجب ماذا يصنع هذا الفتى فى قريتنا ؟ .

وما هو السبب فى مجيئه الينا ؟ .

وسرت مع رفيقى الى المنزل حيث كان لينتور يقيم مع بعض أقاربه . وكان فى استقبالنا على البـاب لينتور بنفسـه . ولم نتبين ان كانت ابتسامته وهو يرحب بنا صادرة من قلب مخلص أو كانت مفتعلة ، فقد كانت عيناه تشعان بوميض غريب لم يفهم له معنى . وأصبحت فى حيرة من أمره ، هل كان هذا الوميض يخفى وراءه كراهية لنا ولذلك كان يبتسم لكل شيء . أم كان دلالة على حسن نيته نحونا ؟ فكانت مظاهره تدل على أن السنين التى مضت لم تغير منه شيئـا . وأنه لا يزال يتميز بنشاطه المعتاد . ثم أشار الينا بالجلوس بجانب المدفأة بينما أحضر بعض أكواب من خزانة المطبخ وملأها بمشروب الفودكا ثم جلس فى مواجهتنا .

وفجأة سألنا قائلا : « هل أنتم فى صف الاتحاد السوفييتى ؟ » .

فأومأ بيتكا برأسه موافقا . وهنا قال الرجل :

« أنكم شبان صالحون . عليكم أن تعملوا على نشر هذا المبدأ فى كل مكان وبين جميع المواطنين » .

وأخذنا نصغى الى حديثه لمدة ساعة . وكان كلما مضى فى الحديث كلما اتضح لنا أنه قد باع نفسـه للشـيوعيين ، وتبين لى من أقواله أن الشيوعيين يعملون على الانتفـاع من طبيعة مشـاعر السـكان الموالين لروس ، وكان جميع المثقفين والمفكرين بيننا يتهامسون حول الحث على قيام اتحاد بين الكربات الروسية والاتحاد السوفييتى ، وكنـا جميعا نعتقد أن ما يخبئه لنـا المسـتقبل هو ذلك اليوم الذى كانت الكربات الروسـية تنتظره فى صبر وأناة لمـدة ألف سنة . كما كنـا نعلم أن فرصتنا ـ ونحن كالطفل الضال ـ هى الانضمام الى تلك الاسرة الكبيرة التى تضم شعبنا بين أفرادها . ومن واجبنا ألا تفوتنا هذه الفرصة . وأن أحلام الكربات الروسية سـوف تتحقق فى النهاية ، ولكن أولئك

الذين كانوا يعرفون حقيقة الشيوعية • وكذلك حكومة السوفييت التى كانت تدرك حقيقة أمرها • كان الجميع على يقين من أنه بالرغم من أنها كانت فرصة يترقبونها منذ قرون مضت الا أنها جاءت فى وقت لا يبشر بالهناء والسعادة ، ولم يكن هناك مجال لكى نلجأ الى خداع المواطنين • بل كان من واجبنا أن نظهرهم على حقيقة الامر بأن يدركوا أن الاتحاد لن يكون نتيجة سعادة عاجلة بل يجب علينا جميعا أن نقاسى مرارة العبودية كما يجب أن نستعد لخوض غمار معركة كبرى ، وأننا • باتحادنا مع الروس — نستطيع • ولابد لنا — أن نكسب هذه الموقعة لكى نحطم هذه القيود والاغلال •

وكان لينتور يعلم ذلك حقا كما كنت أعلمه ، ومع ذلك أخذ فى تضليل القوم فى هدوء وجمود • وكان يعلم أنه يخادعهم ويتلاعب بمشاعرهم الوطنية ، ومن حديثه تبين لى حقيقة مقاصده • فلم أستطع أن أقاوم مدى غدره وخيانته أكثر من ذلك • وبمجرد أن انتهيت من شرب قدح الفودكا بادرت بالاستئذان لمغادرة المنزل • وخرج معى بيتكا •

وكانت ليلة باردة من ليالى سبتمبر وكانت السماء صافية • وساعد هواء الليل القارص على ابعاد الشعور بالتشاؤم الذى كان نتيجة حديثنا مع لينتور ، وكان الرجل يسير بجانبى وهو يلتزم الصمت مطرق الرأس قليلا ويحشر يديه فى جيوب معطفه السميك • وعندما اقتربنا من منتصف المدينة ترامت الى أسماعنا أصوات العربات وضجيج عجلاتها • وقد دخلت فصيلة من المجريين مدينة هوست •

وأخذ بيتكا يهمهم قائلا : « يبدو أن اخواننا المغرورين قد وصلوا » • ولم يستطع أن يخفى كراهينه الشديدة لجنود المجر •

وعند منتصف الليل وصلنا الى مفترق الطرق حيث يواصل بينكا سيره الى منزله بمفرده ، ودون أن يتفوه بكلمة مد لى يده مصافحا ثم اتخذ سبيله فى سكون الليل • وكان منزل والدى مظلما فتسللت فى هدوء الى غرفتى حيث رقدت فى فراشى •

وبدا لى أنى لم أنم طويلا عندما استيقظت على صوت طرق خفيف على نافذتى • فزحفت فى بطء نحو النافذة لكى أتبين ملامح القادم فى ذلك الوقت من الليل • وكان الظلام دامسا ولم يكن هناك أثر لاشعة القمر • فلم أستطع أن أرى سوى شبح يلتصق بجدار المنزل •

وسألته فى شيء من الحذر : « من هناك ؟ » وكان رده :

شيزمار !!

وكان الرجل زعيما للانصار من المواطنين · وتعجبت ما الذى جاء به فى مثل هذه الساعة · فهمس فى اهتمام واضح قائلا : « أسرع وافتح الباب » ·

فقلت له : « تحول الى ناحية المطبخ » ·

ولما دخل جلسنا بجانب المدفأة دون أن نحدث صوتا ، وعلى ضوء النار الخامدة استطعت أن أتبين على قسمات وجهه ملامح القلق والخوف · وعلمت بالقصة · فقد وقع أخوه بين أيدى المجريين · وتحت ضغط استجوابهم له بالطرق الوحشية اعترف لهم بكل شيء يعلمه · حتى أسماء أولئك الذين قاموا بمساعدة الانصار ، وكانت النتيجة اعتقال ثلاثمائة من سكان المدن والقرى المجاورة ، وبعد أن علم المجريون بكل شيء يريدون معرفته قتلوه رميا بالرصاص مع عدد من أصدقائه المقربين ·

وعندما اقتربنا من النار الخامدة لنصطلى بما بقى منها فى المدفأة · تحول الى شيزمار وقال فى صوت خافت ينم عن شعوره بالقلق : « لابد أن تخبر أصدقاءك وذوى القربى منك ممن لديهم أية أسلحة أن يحضروا ليشتركوا معنا فى عملياتنا فى مجاهل الغابات » ·

فقلت له : « حسنا · سوف أفعل ذلك · وهل تريد شيئا آخر · هل تشعر بالجوع ؟ » ·

وقال : « لا أشعر بشيء من ذلك » · فسألته :

« متى تريد أن أحضر للاشتراك معك ؟ » فأجاب :

« عندما ترى أن الامر يقتضى ذلك » ·

ثم وقف وقال أن الوقت يستلزم أن أغادر المنزل · فصحبته فى هدوء حتى خرج واختفى فى ظلمات الليل ، وعدت الى فراشي ولكنى قضيت الليل أتقلب من جانب الى آخر ولم أذق طعم النوم · فقد كنت أدرك أن الاختلاط مع الانصار شيء خطير اذ كان سلوكهم أساسه التهور دون تعقل وروية ، مثلا ما هو السبب الذى من أجله تجرأ الرجل على

التسلل خلال طرقات المدينة لكى يصل الى منزلى فى هذه الليلة وفى نفس الوقت حيث كانت سرية كاملة من الجنود المجريين يجوبون الطرقات ؟ فقد كان من السهل أن يقع بين أيدى المجريين، ولكنى كنت أدرك أيضا أنه من الخطر التخلى عن مساعدة الانصار لانهم ـ لدى وصول الجيش الاحمر ـ سوف يفخرون بأعمال البطولة ، وسوف يصغى الروس الى أحاديثهم ، وعلى أية حال سأشترك مع الانصار ولكن لم يحن الوقت بعد ، وعندما أشترك معهم لن يكون الامر سهلا اذ أن رجال الشرطة سوف يلحظون غيابى عن المدينة ـ واذا ساورهم الشك فى أمرى فان ذلك سيكون مدعاة لبث عوامل الذعر فى قلب والدى ، ولكن للآن يبدو أن شرطة المجر لا يهتمون كثيرا بأمر الانصار ثم أن حصولى على جواز مرور لاحد الانصار سوف يكون له قيمة كبيرة فيما بعد ، فهو يفتح أمامى أبوابا كثيرة لابد أن أمر خلالها اذا أردت القيام بمهمتى ٠

وفى اليوم التالى كان الجو باردا وسماؤه ملبدة بالسحب وأمطاره منهمرة لا تنقطع ٠ فاتجهت أفكارى ومشاعرى نحو الانصار وهم يعيشون بين الغابات ولا يجدون ملجأ لهم سوى الاشجار لتقيهم شر الامطار وهبوب الرياح ٠ وعندما جلسنا لتناول العشاء لاحظت أن والدى يضيق ذرعا بحاله الطقس ويقول : « أمامنا أعمال كثيرة فى الحقول وسوف تمطر السماء لمدة يومين أو ثلاثة على الاقل » ٠

وعندما انتهت والدتى من رفع الصحاف وتنظيف المائدة ٠ اتجهت بنظرى نحو النافذة ٠ وكنت أشعر بدقات قلبى عندما وقع نظرى على أندريه كرالتزكى ومعه فيرا وهما يجتازان فناء الدار ٠ فشاهدت الفتاة بشعرها الذهبى الغزير الناعم ، ولم أكن قد رأيتها منذ فترة طويلة ، وكانت ترتدى ملابس محتشمة وحذاء أنيقا ومعطفا أسود وتلف حول عنقها شالا يقيها برودة الجو ٠ وكانت على رأسها قبعة من فراء القوزاق الاسود ، وكانت تبتسم ويشع الضياء من عينيها ٠ واحمرت وجنتاها بتأثير البرد القارس ٠ فكان لون وجهها على النقيض من شالها الاسود الذى ألقته يتدلى على أحد كتفيها ٠

حتى اذا دخلت المنزل قالت : « هذا أنت يانيكولا » ٠

وبدت فى نظرى كما كانت من حيث رقتها وأناقتها ولكنها عندما تحدثت لاحظت أنها قد تغيرت الى حد ما ٠

وبعد أن رحبت بهما أشرت اليهما بالجلوس . وهنا قالت الفتاة فى شىء من السخرية : « لابد أنك تقوم بعمل متواصل طول الوقت » .

كما لاحظت أنها تبدو مطمئنة لا تشعر بشىء من القلق أو المضايقة . ونظرت الى أندريه فاذا هو شاب أنيق رياضى طويل القامة .

وبادرتها بقولى : « نعم . يا فيرا . انى أعمل طول اليوم ، وماذا يستطيع الانسان أن يفعل فى مثل هـذا الجو سـوى أن يؤدى عملا بين جدران منزله » .

فسألتنى : « لماذا لم تأت لزيارتى بينما كنت فى انتظارك ؟ » .

وأجبتها : « فى الحق أنى لم أرغب فى ازعاجك » .

فكان ردها فى شىء من الضيق : « هذا قول هراء . اذ ربما سمعت عنى أكاذيب متنوعة » .

وقلت لها : « نعم . بلغنى ذلك » . فسألت :

« وهل صدقت هذا الكلام ؟ » وكان ردى :

« نعم » .

فقالت وهى تكاد تغمض عينيها : « انى أعلم ذلك . وهذا هو السبب فى مجيئى لزيارتك » .

وقلت لها : « فى الحق أنى أشكرك على هذه الزيارة » .

فى هذه الاثناء كان أندريه يوجه نظره نحو الفتاة التى التفتت نحوه ولاحظت ضيق صدره وامتعاضه . ثم أصبح الاجتماع يسوده نوع من سوء التفاهم . ولذلك قررت أن أغير موضوع الحديث ، فسألت الفتاة عن حياتها منذ مغادرتى البلاد . وكان ردها على أسئلتى بأن ألقت الى بأسئلة أخرى تستفهم عما كنت أصنع ، وما هى الخطط التى وضعتها فيما يتعلق بالمستقبل ؟ .

« تقولين الخطط ؟ ليس لدى خطط خاصة . فانى لن أصبح شخصا ممتاز بشهرته . كما لا أرغب فى أن أكون كذلك ، وانى أعجب بالرجل

العادى ، وصـدقينى أن بلادنا فى حاجـة الى رجال يعملون فى صمت ولا يفخرون بجهودهم • وما أقل هؤلاء فى هذه الايام ، أن بلادنا صغيرة لا تستطيع أن تقرر شيئا يتعلق بمستقبلها • وهناك آخرون يعملون من أجل صالحنا ومازالوا يفعلون ، ومصيرنا أصبح بين أيديهم • ثم أننا فى حاجة الى انشاء دور العلم • والمصانع • وتمهيد الطرق • وبناء محطات القوى الكهربائية ، وبالاختصار انشـاء حياة جـديدة يشـاركنا فيها الفلاحون • ونحن لغاية الآن ليس لدينا شىء من ذلك ، وما هى امكانياتنا فى الوقت الحاضر ؟ لنضرب مثلا محطة للقوة الكهربائية • ففى استطاعتنا بناء محطة تبلغ قوة أجهزتها مائتى ألف كيلو وات وتكفى جميع أنحاء البلاد • كما تمد المصانع بالكهرباء بثمن زهيد ، ويضاء كل منزل بالنور الكهربائى • وحتى القطارات تستطيع السير بقوة الكهرباء » •

وكان أندريه يصغى الى حديثى دون أن يقول شيئا • وفجأة قاطعنى بقوله : « كل هذا سوف يتم عندما تصبح السلطة فى أيدى الشيوعيين » •

فتظاهرت بأنى لم أسمع حديثه ومضيت أقول : « ومن الممكن أن يتم هذا كله على أيدى رجال عاملين بهمة لا تعرف الكلل ، وهو عمل شاق لا يرغب فيه الكثيرون • أنظرى الى هذه الكنوز التى تضمهـا أراضينـا الجبليـة ، فهنـاك مقادير من الملـح والفحم والحديد والزيت ! أننا حقـا فى حاجة الى رجال تدفعهم الرغبة فى العمل عن طيب خاطر • وليس أولئك الادعياء ممن لا قيمة لهم ولا وزن سوى هتافهم اليوم لاهل أوكرانيا وغدا للمجريين ، والله وحده يعلم ما هى خطوتهم التالية • وحقيقة القول أن السبب فى مأساتنا اليوم هى قلة الرجال العاملين حقا وصدقا » •

وهنا قاطعنى أندريه مرة أخرى قائلا : « وكذلك نحن فى حاجة الى الحرية والاخاء والمساواة » فسألته فى شىء من الغضب : « ومن تظن أن فى استطاعته أن يوفر لنا ذلك أيها السيد المرشد ؟ » وقال :

« الاتحاد السوفييتى هو الذى يستطيع أن يفعل ذلك أيها المهندس • فهو المجال الوحيد لمثل هذه الامور » •

وهنا قالت فيرا فى هدوء : « سوف نرى فى القريب العاجل » •

واقتضى الامر أن أحتفظ بهدوئى لكى لا أوضح لهذا الرجل مدى كذب أقواله ، فقد كنت على يقين من مصير الحرية والاخاء والمساواة فى الاتحاد السوفييتى •

وقلت للفتاة : « أنت على حق يا فيرا · سوف نرى ذلك بأنفسنا فى القريب العاجل » ثم تحولت الى كراليتنركى متسائلا : « أيها المعلم · هل قر رأيك على الانضمام الى الانصار ؟ » ·

فكان رده : « لا · وماذا يدعونى الى ذلك ؟ » ·

« انى كنت فضوليا · اذ كنت أظن أنك من بين رفاقى » ·

وهنا سألتنى فيرا فى شىء من القلق : « هل تقصد المداعبة بكلامك هذا ؟ » فأجبتها : « لا · لم أقصد ذلك مطلقا ، ولست شيوعيا · ولكنى سوف أنضم الى الانصار » · وبدا الارتباك على وجه الرجل وهو يقول : « أنى لا أفهم مغزى كلامك أيها المهندس · اذ يبدو لى أنك فى غير حاجة لكى تنضم الى الانصار » · وكان ردى على ذلك : « ربما كان الجبناء والتافهون فى غير حاجة الى ذلك ، ولكن بالنسبة للعاملين المخلصين لاوطانهم فهو أمر لازم لا يمكن التخلى عنه » ·

فبدت على وجه الرجل مظاهر الضيق والغضب والتزم الصمت ، ونهضت الفتاة من مكانها استعدادا للخروج ولكى تضع حدا لمناقشتى معه · وبينما كنت أساعدها على ارتداء معطفها همست فى أذنى قائلة : « حسنا يا نيكولا · انى أتمنى لك نجاحا وحظا سعيدا · وأرجو أن تزورنى قبل مغادرتك البلاد » · ووافقت على ذلك ·

وبعد ذهابهما جلست فى مقعد كبير بجانب المدفأة · وأسندت رأسى بين يدى · وأخذت أكافح ما يدور بمخيلتى · فتبين لى شىء واحد ــ وهو أن فيرا لا تزال تحبنى كما كانت من قبل · كما انى تمكنت من الانتقام من كراليتنركى · وتمنيت لو أصبح يتخلى عن خيلائه وعن تظاهره بالكبرياء الكاذب ·

والآن · رأيت أنه لابد من أن أضع خطتى لكى أنضم الى الانصار ، فقد كانت الجبهة تتحرك الى الامام فى كل ساعة من النهار · وكانت نسمع طلقات النار عن كثب · وكان حديث أهل القرية يدور حول موقف المجريين على طول خط الجبهة · وعلى مسافة قريبة كنت أسمع قرقعة عجلات مركباتهم وهى تعود القهقرى · فقررت أن أتوجه فى الغد لكى أنضم الى شيزمار فى أرجاء الغابات · وعلى ذلك لجأت الى فراشى حيث نمت نوما هادئا ···

٢

الأنصار يلتقون بالجيش الأحمر

كانت قطرات المطر تتساقط على النوافذ فى الصباح الباكر وقد اشتدت برودة الجو ، فارتديت سروال الركوب وحذاء من الجلد السميك ووضعت حول جسدى غطاء من الصوف • وأثناء تناول طعام الافطار أخبرت والدى ووالدتى بأنى خارج لقضاء مهمة عاجلة ، فأدركت والدتى كعادتها دائما حقيقة خطتى • ولكنها لم تحاول أن تمنعنى عن تنفيذها • وغادرت المنزل فى هدوء قاصدا منزل فيرا التى استقبلتنى لدى الباب • ودعتنى لدخول المنزل وهى تقول : « دعنا نجلس لنتجاذب أطراف الحديث » • ثم أخذت تنظر الى ملابسى حيث بدا عليها أنها أدركت انى فى طريقى للانضمام للانصار ، وفى صوتها نبرة توحى باللوم : « انه ليدهشنى هذا القرار الذى عزمت على تنفيذه • ما الذى يرغمك على الانضمام للانصار ؟ حقا يا نيقولا • انى لا أفهم حقيقة أمرك » •

فقلت لها مؤكدا : « سوف أعود فى وقت قريب » • ثم لزم كل منا الصمت لحظة قصيرة • وكان من الواضح أنها أدركت ــ كما تبين لى أيضا ــ خلال تلك الفترة القصيرة من القلق أن كل منا لا يستطيع التنبؤ بما تخفيه الأيام •

وعند مغادرتى المنزل قالت وهى تشهق بالبكاء : « أدعو الله أن يحفظك سالما » وأخذت أشق طريقى وحرصت على الا التفت الى الوراء • ثم أسرعت الخطى نحو الغابات حيث كنت على يقين من العثور على شيزمار وفريقه من الانصار •

وكانت حياتى مع الانصار أشبه بقصة خيالية • فقد أخذنا نتجول فى أنحاء الغابات ومعى شيزمار ورجاله • ولم نفعل شيئا • ولكنى علمت من الرجل أن الانصار من واجبهم التنقل دائما من مكان الى آخر خشية الاعتقال ، ولم أستطع أن أفهم هذا التعليل الذى أبداه الرجل • اذ أن

المجريين اذا أرادوا القضاء علينا فقد كان ذلك من السهل عليهم · ولكن لم يكن لديهم أي اهتمام بشأننا · وكان شيزمار يعرف ذلك حق المعرفة · وبالرغم من أنه لم يكن صريحا في قوله · فقد كان من الواضح أنه يتجنب أي اتصال بالمجريين حتى ولو كنا أكثر منهم عددا ·

ومرت الايام والجو مكفهر بارد والامطار لا تنقطع ، وأثناء تجوالنا بين الغابات وقعت أنظارنا على جيش المجر وقد انخفضت روح الجند المعنوية وأخذ في التقهقر أمام أعيننا ، وفي ٢٣ أكتوبر وبعد مضى عدة أيام بلغنا أن آخر فرقة من المجريين قد غادرت القرية · بعد أن قام أفرادها بنسف جميع الجسور ورائهم ، وكانت هذه اشارة لنا لكي نتخذ مواقعنا على المنحدرات حيث نستطيع مشاهدة القرية · وبينما كنا نتجول في انحاء الغابات كنا نسمع من ناحية الشرق طلقات متفرقة ودوى المدافع والبنادق الرشاشة ، حتى اذا اتخذ رجالنا مواقعهم بدأنا نسمع طلقات المدافع واضحة جلية وهي تدوى في الفضاء وفجأة · وعلى مسافة بعيدة ـ استطعنا أن نتبين طلائع القوات الروسية وهي تتجه نحو القرية · ومن وقت لآخر كانوا يطلقون مدافعهم في الهواء · وعند ما شاهد الانصار الآخرون القوات الروسية أخذوا يقفزون ويلوحون بأيديهم في الهواء · وردد رجالنا صدى هذا التهليل وراءنا في أنحاء الغابة ·

وهنا سأل شيزمار قائلا : « يا الهي · كم يبلغ عددهم هنا ؟ » وأخذ يضغط على ظهري بشدة دلالة على تحمسه للموقف ·

وسرعان ما تدفقت على الوادي جحافل من مشاة الجيش الأحمر وكأنهم سحب قد تجمعت في كبد السماء وأخذت ترسل أمطارها مدرارا · فأشار شيزمار الى رجاله من الانصار الذين تجمعوا على الفور وشقوا طريقهم نحو القرية للانضمام الى جنود الجيش الاحمر ، كما هرع الفلاحون من منازلهم وتدفقوا في الطرقات ملوحين بأيديهم ترحيبا بالروس ، وأحضروا معهم مشروبات الفودكا وأنواع الطعام والسجاير ، بينما وقف الطاعنون في السن من الرجال والنساء يبكون على جوانب الطريق ·

وعلى سطح المدرسة أسرع كرالتزكي بتعليق العلم الاحمر الكبير الذي أخذ يرفرف بشدة في مهب رياح الخريف ·

وبالرغم من مظاهر الترحيب والحماس فان مجموعات الاستكشاف من جنود الروس ، بعد مرورها خلال القرية ـ اختفت على طول الطريق حيث

أخذت مركبات الذخيرة تملأ جوانب الطرقات ، وبدأت قوات سلاح الاشارة في وضع الاسلاك حول المكان • كما أخذت الارض تهتز تحت ثقل السيارات المسلحة والمركبات المصفحة وهي تجر مدافع الميدان وعربات محملة بصناديق البارود والطلقات •

واتخذت طريقي بين الجموع المحتشدة قاصدا منزل فيرا • وعندما رأتني أسرعت في فناء المنزل وطوقتني بذراعيها حيث شاهدت مظاهر الفزع ترتسم على محياها ، فضممتها الى صدري وحاولت تهدئة خاطرها ، وفي هذه اللحظة شاهدنا احدى المركبات تحمل عددا من الضباط السكارى • وتنفصل عن صفوف السيارات ثم تدخل فناء الدار ، وقفز منها ضابط برتبة الكابتن • طويل القامة وقد احمرت عيناه بتأثير الخمر • وقصد نحونا وهو يصيح مرحبا بنا •

ورددت تحيته بينما شددت قبضتي على بندقيتي الاوتوماتيكية •

وهنا سألني الضابط قائلا : « من أنت ؟ » فأجبته :

« اني من الانصار » • وسألني مرة أخرى :

« أين مشروب الفودكا ؟ هل لديكم زجاجات منها ؟ وكان جوابي :

« لدينا في داخل المنزل » •

وحول الضابط السوفييتي نظره نحو فيرا •

فبادرته بقولي قبل أن يذكر كلمة أخرى • « هذه زوجتي » •

واذا به يصيح قائلا : « صه أيها الحقير • ولتكن زوجتك ! » وأخذ يواصل نظرته الى الفتاه وعيناه تتقدان بالشر • فخجلت الفتاة واحمر وجهها •

فما كان مني الا أن شددته من أكمام سترته وجذبته نحوي في شراسة ظاهرة وقلت : « أيها السكير القذر • لا تتحدث بهذه الطريقة أمام زوجتي ! »

وقال مزمجرا : « ماهى شخصيتك بحق الشيطان ؟ » فكان ردى عليه :

« هذا أمر لا يعنيك • وعليك الآن أن تغادر هذا المكان ! » ثم غمزته بفوهة بندقيتى فى بطنه • فما لبث أن وقع على ظهره • ووضعت ذراعى حول خصر الفتاة • وأسرعنا بدخول المنزل •

وكانت الفتاة قد تأثرت كثيرا بما حدث ، فصحبتها الى غرفتها حيث ارتمت على الفراش ، وعند ما عدت الى الغرفة التى تطل على فناء المنزل • رأيت الكابتن يترنح من تأثير الخمر ويتجه نحو المدخل • فذهبت وتناولت بندقيتى مرة أخرى •

وقبل أن أتمكن من طرد الكابتن خارج المنزل واذا بضابط آخر برتبة الميجر يدخل علينا وكان بدينا قصير القامة • فذعر الكابتن عند رؤيته وحاول أن يؤدى التحية لرئيسه الذى أخذ يحدق النظر اليه ، ولكنه لم يتمكن من رفع ذراعه الذى تدلى بجانبه • وفشل فى حفظ توازنه وأخذ يحرك رأسه من جانب لآخر • وأخيرا أشار الى ناحيتى قائلا : « هذا هو صاحب المنزل • وقد دعانى لتناول الخمر معه » •

وهنا قاطعه الميجر وقال له : « عد الى سيارتك أيها الكلب السكير » • فأطاع الكابتن أمر رئيسه وأسرع بالخروج • وتقدم الميجر • وكان ضابط قد احمرت وجنتاه بتأثير الرياح ، وقال لى معلنا : « أن ضباط فرقتنا سيقيمون فى هذا المنزل » • وكان أمره بلهجة لا تقبل الجدل ، ودون أن ينتظر اجابة منى سار بخطوات ثابتة نحو الفناء ليتخذ الاجراءات اللازمة لاسكان الضباط فى غرف المنزل • وكان كل منزل فى القرية يفتح أبوابه ترحيبا بالجيش الاحمر ، كما رحبت بهم جميع أنحاء الكربات الروسية كما لو كانوا أخوانا لهم •

وعندما حل وقت المساء كانت نوافذ منزل والدى تشع أضواء باهتة • فأسرعت بفيرا اليه حيث نلقى مظاهر الترحيب بنا وحيث الامان والاطمئنان ، وتنهدت فيرا بصوت مسموع بعد دخولنا وبعد أن أغلق باب المنزل فحجب عنا أصوات الفوضى التى انتشرت فى أنحاء القرية على أثر دخول القوات الروسية •

وبعد لحظة سمعنا والدى يقول أثناء وجوده فى المطبخ : «أن كل شىء هنا ملك لكم ورأيت والدى يجلس أمام منضدة ومعه ضابط شاب برتبة

الكابتن ومن رجال الجيش الاحمر وكان على وجهه ويديه بعض بقع داكنة ٠ فأمسكت فيرا بذراعي ٠ وتطلع الكابتن حوله مذهولا ٠ وهنا قال والدى : « ادخل يا ولدى ٠ كنا نأمل أن تعود الينا » ٠

وعند دخولنا المطبخ كانت فيرا لا تزال ممسكة بذراعى ، ورأينا مائدة الطعام حافلة بالصحان ، وكان والدى والضابط الشاب يتبادلان أقداح الفودكا ٠ فسأله في شيء من الحرج قائلا : « هل سمعت شيئا عن رجالنا في الكربات ؟ » وبدا على الضابط أنه لم يفهم السؤال حيث قال : « نعم ٠ أنت تقصد التشيك » وهنا اعترض والدى قائلا : « لا ٠ أنى لا أقصد التشيك ٠ انما أعنى رجالنا الذين يقاتلون مع الروس » فهز الكابتن رأسه واتضح أنه ازداد ارتباكا ٠ ودلت عيناه على أنه لا يعلم شيئا عن رجالنا الذين هربوا الى روسيا ٠

ثم أنى بعد ما حدث فى منزل فيرا لم أحاول أن أشعر الضابط بأنه موضع تكريم ، وأدرك والدى أنه لن يستطيع الحصول من الضابط على أية معلومات عن أخى ، وعند ذلك لم يكن هناك حديث بينهما وظلا يتناولان كئوس الخمر في صمت واضح ، فشعر الكابتن بالقلق من هذا الوضع ٠ واعتذر حيث طلب الانصراف من المنزل ، وأخذ يسير فى الطرقات مع رفاقه وضجيجهم وهم ينشدون الاغانى ويصيحون ٠

وبعد مضى ثلاثة أيام بدت أول بشائر المتاعب ، اذ أبلغ أحد الجيران عن سرقة ثورين من حظيرة منزله ٠ وانتشر الخبر فى أنحاء القريه ٠ وبدأ المزارعون يقفلون أبواب منازلهم بعد أن كانوا يفتحونها في وجه رجال التحرير ، كما أخذوا يغلقون أبواب حظائرهم ومخازن الغلال ، وعلمنا من والدى أن الفلاحين كانوا يرددون في الطرقات ذلك المثل الروسى القديم ٠ وكان نصه : « **أن من يعمل على وقاية نفسه فهو فى رعاية الله** » ٠

وبالرغم من القلق المتزايد فى أنحاء القرية فقد بدأت أن أضع الخطة لتنفيذ مهمتى ٠ والآن وقد احتل الروس جنبات الوادى لم يبق هناك مجال لضياع الوقت ٠ وأكد لى والدى ووالدتى أنهما سوف يرعيان مصالح الفتاة فيرا ٠ ففى وقت مبكر من صباح اليوم التالى تسللت من القرية واتخذت طريقى نحو مدينة هوست حيث وصلت هناك فى منتصف النهار ٠

وكانت المدينة مرتعا للهرج والمرج ، وكان النهب والسلب فى كل مكان ، وساد الارتباك على أيدى السوقة ٠ يقتحمون المخازن ويستولون

على ما بها من زجاجات النبيذ بينما يجوب الجنود السكارى طرقات المدينة يسرقون ما تصل اليه أيديهم وينهبون المارة ، وسادت الجلبة والضوضاء والفوضى دون خوف أو مبالاة . وأخذ الجنود يتلفون النقوش الجميلة والصور البديعة وغيرها من الكنوز التى بقيت على مضى الآجيال .

وفى مقر الرياسة أخذ الاوكرانيون يحاولون الاستيلاء على الحكومة المحلية . وبدا السوفييت كأنهم لا يهتمون بأى شيء يتعلق بالسلطة . وكذلك الشيوعيون المحليون ، وأصبح الجميع يلعنون كل فرد وكل شيء ، ودون اهتمام ظاهر أخذوا يحاولون تنظيم عدد من اللجان . وخلال هذه الفوضى الشديدة كانت هناك شائعات أن الكربات الروسية سوف تعود الى الانضمام الى تشكوسلوفاكيا ، ولدى وصول أحد الانصار برتبة الملازم أخطر بأن المدينة قد أصبحت مباشرة تحت ادارة حكومة من التشيك وعلى رأسها وزير من مواليد ألمانيا .

وهنا فى مدينة هوست شاهدت كل ما كنت أتوقعه ولم يكن فى استطاعتى أن أفعل شيئا ، ورأيت على وجوه القوم امارات الضيق والغيظ الشديد . وكانت نظراتهم فاترة لا توحى بشيء ، وقام المجريون الهاربون بنسف الجسر المقام فى عرض النهر . ورأيت القطارات وقد توقفت عن السير ، ولم تكن هناك أسلاك ممتدة للتليفون أو التلغراف . وفى ايجاز اختفت كل وسائل المواصلات وانتشرت الفوضى فى كل مكان ، ومما زاد الامور سوءا أن اكفهرت السماء وتلبدت السحب فى جوانبها . وتجمع الرجال من الشيوخ فى الطرقات يقولون أننا على أعتاب شتاء قارس البرودة . وأنهم لا يذكرون أن هذه البلاد شهدت من قبل مثل هذا الطقس فى فصل الخريف ، ولم تكن أيام وليالى شهر نوفمبر حيث اشتدت رطوبة الجو عقبة توقف جنود الجيش الاحمر عن مواصلة تعاطى الخمور ومتابعة أعمال النهب والسلب كلما اتيحت لهم الفرصة وكلما وجدوا الى ذلك سبيلا .

وفى المنزل حيث كنت أقيم مع بعض الاصدقاء علمت بشائعات تقول أن منظمة الشرطة السرية للجيش الاحمر التابعة لمنظمة NKVD قد بدأت تباشر مهمتها فى مدينة هوست ، وكانت هذه أول صدمة تلقيتها منذ أن شرعت فى مهمتى ، وأصبحت الخطوة التاليه هى أن أتصل بعملاء الشرطة السرية هنا . وفى محاولة للحصول على وسيله تقربى من NKVD توجهت لزيارة لينتور الذى لم يعد يخفى ميوله الشيوعية ، فدعانى لحضور

اجتمع لاحدى خلايا الحزب فى المنطقة ، وكانت الساعة الثامنة صباحا عند ما وافق المجتمعون على قرار ينص على أنه : لا بد وأن تضم الكربات الروسية الى الاتحاد السوفييتى • وسارت الامور فى مجراها وكنت الاحظ فى أول عهد الشباب أن كل فرد أعرفه كان يحلم بذلك اليوم الخالد حيث تنضم بلادنا الصغيرة الى أختها الكبرى ــ روسيا • كما كان هذا هو حلم والدى الذى يتطلع اليه وكذلك كان جدى من قبله • وبرغم كل شيء كنت أنا شخصيا أرغب فى مثل هذا الاتحاد ولو أنى كنت أدرك ما يتطلبه الموقف فى الوقت الحاضر • فأولا لابد من تطهير لا هوادة فيه • ثم التحول نحو الاشتراكية بالتدريج •

وكنت أعلم أنه ليس من المستبعد أن يخرجنا البلشفيك من بلادنا المحبوبة ، وأنهم سوف يدمرون تقاليدنا وحياتنا الروسية القديمة وكان هذا بالنسبة لى ولقومى يعد أشد لطمة لنا • فقد كنت أحب حياتنا القومية الكرباتية بعاداتها وأنظمتها العريقة • وحقولها النضرة • وجلال تلالها المنحدرة • وأكواخها المنتشرة على سفوح الجبال وبين الوديان • والانغام الموسيقية التى كان القوم يطلقونها من آلاتهم الموسيقية وهم يلتفون حول نار المدفأة منذ قرون مضت •

وكنت على يقين من أن قومى لن يستطيعوا تحت حكم الشيوعيين المحافظة على تقاليدهم وطرق معيشتهم ، ولكن اذا فشلنا فى الاتحاد هذه المرة فقد نقاسى ألف سنة أخرى تحت نير حكم الاجانب فى انتظار فرصة أخرى للانضمام الى وطننا الام • وبالرغم من هذا كله • فأنى اذا كنت أرغب فى الوحدة ، فان ذلك لانى أدرك تماما أن ملايين الروس يقاسون شظف الحياة فى هذه الايام ، وأننا اذا أردنا مشاركتهم حياة سعيدة فلا بد لنا أن نتحلى بالشجاعة لكى نقاسى مثلهم ونشترك معهم فى تحمل أعباء الحياة الشاقة ثم نجنى معهم ثمار الحرية والسعادة •

ولكن رجالنا من أمثال لنتور و كرالتزكى وآخرين كانوا جميعا من الانتهازيين ، ولا يفكرون الا فى أنفسهم ومصالحهم الشخصية ، فهم يخدعون شعوبهم دون مبالاة ، وليسوا سوى عبيد لدى عصابة الكرملين • وفى الحق لم يكونوا فى خدمة روسيا • بل كانوا يقدمون ضحايا جديدة ــ ومن بينها أمهاتهم ــ الى الجبابرة والطغاة • حتى اذا انتهوا من ارتكاب السيئات فأنهم يصبحون عبيدا وأداة طيعة فى أيدى الشيوعيين • كما يصبحون جذور الشر والفساد فى البلاد •

وفي صباح اليوم التالى أيقظنى ضابط تشيكى برتبة الملازم وكان وجيها طويل القامة · ولم يكن سوى فديا الذى كان من أعز أصدقائى · ولاحظت أنه قد تغير عما كان يتميز به من روح المرح والبهجة ، ثم جلس على مقعد بجوار الموقد بينما كنت أرتدى ملابسى · ولاحظت أنه يلف شريطا أحمر حول صدره · وبعد أن تبادلنا الحديث حول الوطن وحول ما فعله كل منا منذ عهد الدراسة · سألته عن هذا الشريط الاحمر · فكان رده فى شيء من الازدراء « كان هذا بسبب جرح أصابنى » وكان يتحدث وهو مقضب الجبين وفى شيء من البرود · كما كان يثور أثناء الحديث · ومن وقت لآخر كان يقف ويذرع الحجرة ذهابا وايابا وهو متوتر الاعصاب · ثم سألنى متهكما : « اذن أنت مهندس فى الوقت الحاضر ؟ » ·

وكان ردى عليه بايجاب · فقال :

« يا للجحيم · أن هذه الدبلوم لا تعنى شيئا » · وسألته عن السبب فقال :

« أنك لن تفهم الا اذا مررت بالتجربة التى قاسيتها بنفسى » · ثم جلس ووضع رأسه بين يديه · وبعد لحظة سألنى فيما يشبه الهمس :

« وما الذى عزمت عليه الآن · يا نيقولا ؟ » فقلت له :

« ليس لدى خطة فى الوقت الحاضر · وسوف أمكث هنا فترة من الوقت » · وتعجبت لماذا يتحدث فديا بما يشبه الالغاز · فسألته فى صراحة :

« ماذا جرى لك ؟ » ·

قال : « هل تريد أن تعلم ذلك حقا ؟ » · وكان ردى بالايجاب ·

ثم سألنى وقد بدت عليه الرغبة فى الحديث بصراحة أكثر : « هل تذكر عند ما هربت الى الاتحاد السوفييتى ؟ » فقلت له :

« نعم أتذكر بطبيعة الحال » · ومضى يقول :

« لم أجد عقبة فى اجتياز الحدود · وكما تعلم · لم يكن الاتحاد السوفييتى فى حالة حرب وقت مغادرتى · وبعد أن اجتزت الحدود أصبحت

أشعر أني في أمان • وتقدمت الى أول جماعة من الحرس التقيت بهم • فاستقبلوني بالترحيب وتوجهت معهم الى مقرالرئاسة حيث قدموا لى طعاما وسجائر ومشروب الفودكا ، وهناك بدأت أشعر أن الفرص التى انتهزتها للهروب الى روسيا كانت تستحق المخاطرة من أجلها ، وأخيرا شعرت كأنى بين أصدقاء لى وأن هذه أول فرصة للحياة في نطاق من الحرية لم تدم سوى بضع ساعات • بعد ذلك أقبل الحرس يأخذونى الى مقر قيادة NKVD وهنا بدأ صوته يتهدج وهو يحكى قصة ما جرى له على أيدى تلك الشرطة السرية المخيفة • فقال :

« وبعد استجواب في أول الامر أرسلت مع مائة آخرين من الهاربين من المجر الى أحد السجون فى ستانسلاف » : ثم آخذ يضغط على أسنانه وهو يواصل حديثه :

« واستمر الاستجواب لمدة ثلاثة أشهر ، وكنا نعيش فى زنزانات قذرة تنتشر فى جوانبها الحشرات على اختلافها ، ومات كثير من المعتقلين بسبب الجوع والحرمان وبسبب ازدحامنا فى حجرات صغيرة ، وكان الحراس يصبون علينا اللعنات ويوجهون الينا الاهانات كما كان الشجار يقوم بين المسجونين لأى سبب تافه ، أضف الى ذلك أن الحراس كانوا يسرقون منا ما تصل اليه أيديهم ، وعلى فترات معينة كان عملاء NKVD » يأخذوننى الى غرفة خالية من غرف السجن حيث كنت الاقى صنوف العذاب • وكانوا دائما يطالبوننى بشىء واحد هو « أن يعترف المسجون بأنه من الجواسيس »

ثم تحول الى ناحيتى وقال : « هل هناك ما يدعو للعجب من أنى كلما كنت أسمع كلمة « جاسوس » كنت أشعر بنفور شديد وغضب لا حدود له يكاد يصل الى حد الجنون ؟ »

فشعرت بصدمة ولم أستطع أن أقول شيئا ، وهنا أخذ الرجل يواصل قصته : « وحاولوا معنا كل شىء لكى تنهار أعصابنا سواء من الناحية المنطقية أو بطريق الوعود المؤكدة ، وخلال فترة الاستجواب كنت أشعر كأنى قد فقدت قواى العقلية ، وعند ما رفضت الاعتراف بأنى جاسوس صدر الحكم بسجنى خمس سنوات أشغال شاقة • ولا أستطيع التعبير عن مشاعرى عند ما سمعتهم ينطقون بهذا الحكم ، ثم ما هو سبب محاكمتى ؟ ذلك بعد أن ذقت صنوف الاذلال والعذاب لدرجة الموت على أيدى رجال الجندرمة المجريين هربت الى مكان كنت أظنه أعظم دولة متقدمة يعيش أهلها

في نطاق واسع من الحرية في هذا العالم ، واذا كان المجريـون يسيئون معاملتي لأني من الروس . فلماذا هؤلاء يعاملونني بهذه الصورة ؟ هـل لأني جئت اليهـم وأنا على ثقة من عدالة الاتحاد السوفييتي وكنت آمل كثيرا في حياة الحرية ؟ حقا ألقى معاملة أفضل لو كنت مجريا أو سـفاحا أو لصا ولكنني كنت بريئا .

« وذات ليلة أثناء اقامتي في سجن ستانيسلاف شعرت بأن حذائي قد سرق . فاقترح على أحد المسجونين أن أمزق قميصي وألفه حول قدماي . وفيما بعد تبين لي أني لا بد أن أكون شاكرا لمثل هذا النوع من الوقاية . فقد أرغمنا على السير الى خاركوف على طبقات من الجليد وفي مهب الرياح ، وبينما كنا نتعثر أثناء هذا السير المضني . تبين لي أنه لا نهـاية لهـذه الانسانية المعذبة . فأولئك الذين كانوا يتساقطون لعجزهم عن المشي كان مصيرهم القتل بأيدي الحراس ، وشاهدت بنفسي رجالا ونساء يرقدون على الجليد على جانب الطريق . فقد مشوا عدة أميال بأقدامهـم عارية ـ حتى دون خرق يلفونها حول أقدامهم » .

وعند توقفنا عن السير في مكان ما أخذ الحراس يحصون عدد المعتقلين فتبين لهم أن اثنين منهم قد لجأ الى الهرب في غفلة من الحراس ، وفي هذه اللحظـة كان رجـلان من العمال يمران بجانب مجموعة المساجين الذين جلسوا يستريحون من عناء السير » .

وهنا أخذ فديا يذرع الحجرة ذهابا وايابا واشتد به الحماس وهو يقول :

وعند ما تأكد الحراس من عدد المسجونين توجه ضابط NKVD الى ناحية الرجلين ، وتبعه عدد من الحراس يجرون وراء العمال حيث أجبروا الرجلين على الانضمام الى بقيتنا ، بأن أخذوا يضربوهما بكعوب بنادقهـم دون هوادة . وقبل أن تواصل السير صرخ الحراس في وجوهنا يحذروننا من أن كل فرد يحاول الهروب سوف يكون مصيره المـوت باطلاق النار .

وأخذ فديا يوضح ماجرى ويقول : « وكان السبب في أخذهم العمال مكان المسجونين . لأن جميع الحراس كانوا يتلقون عقابا صارما اذا اتضح أي نقص في عدد المعتقلين لدى وصولنا الى خركوف . وقد تمر عدةسنوات قبل أن يعرف أي فرد حقيقة ما جرى ، فمن يصدق كلام أي مسجون يقول

أنه اختطف على قارعة الطريق ، وأى شخص يحكى لى مثل هذه القصه لابد أن أبصق فى وجهه ، لانى لا يمكن أن أعتقد فى صحتها • ولكنى شاهدت ذلك بنفسى ولا يمكن أن تخدعنى عيناى •

« وكان مصيرى الى معسكر كوليما • وهو أحد عشرات معسكرات الاعتقالات فى هذا الجزء من سيبريا الشمالية والشرقية • وكان موقع المعسكر على نهر كوليما • بالقرب من شبه جزيرة كمتشتكا ، وكان المعتقلون يعرفون هذا المعسكر حق المعرفة • وسمعت من يقولون أنه لم يخرج منه أى شخص على قيد الحياة • وبعد ما لقيته من الذعر والعذاب أيقنت أنى لن أعود الى بلادى مرة أخرى •

« وهناك اتخذت من مجموعة أوركاس بعض أصدقاء لى ، وكان هؤلاء من المجرمين وممن لهم امتيازات أفضل من السياسيين ومن غيرهم من المعتقلين دون أن يرتكبوا جرائم معينة ، وعن طريق هؤلاء نجوت من الموت جوعا ، فقد كانوا يسرقون مقادير الطعام من موظفى رومانيا وغيرهم من الاجانب ، وكانت النتيجة أن أصبح هؤلاء يهلكون جوعا كالذباب • وقد اشتركت مع أوكارس فى ارتكاب عدة جرائم • والله وحده يعلم لماذا فعلت ذلك • وليكن هو وحده الذى ينظر قضيتى » •

وانهار الرجل عندما بلغ هذا الحد من قصته • ولم يذكر كيف تمكن من الهرب من كوليما ولم أجد لدى شجاعة كافية لسؤاله عن ذلك •

كما لم أتمالك مشاعرى عند سماعى قصته • وبالرغم من أنى سبق أن سمعت آخرين يتحدثون عن مظاهر الرعب فى روسيا • وكنت أعتقد دائما أنها تنطوى على شىء من المبالغة • ولكنى آمنت بكل كلمة قالها فلما ولما هدأت ثائرته سألته :

« هل تعلم شيئا عن ماروسكا ؟ » • فأجاب :

« نعم • بطبيعة الحال • فقد توفيت بداء السل فى التركستان • ولكن هل لديك شىء من المشروبات يا نيقولا ؟ » •

فاستخرجت زجاجة من الفودكا من حقيبتى وقدمتها له • وشرب قليلا منها ثم أعادها الى فوضعتها بجانب الفراش • وبدا أنه هدأ قليلا وصار أحسن مما كان عند ما بدأ فى حديثه •

وأخذ يعتذر قائلا : « أرجو ألا تغضب مني يا نيقولا » • فأني لست سكيرا • وإنما كنت في حاجة ملحة لتناول بعض الخمر •

فقلت له • « لا عليك من هذا » •

وبعد لحظات قليلة من الصمت تحول الى وسألني : « وعلى أية حال • هل ستبقى هنا أو سوف تهرب الى الغرب ؟ » وكان ردى :

« لا • سوف أبقى هنا فترة من الوقت » • فقال :

« أنى أخشى أننى لا أستطيع البقاء في وطنى بعد ذلك » •

وقلت له : « أنى أرى وجهة نظرك » •

نواصل كلامه يقول : « لقد بلغت بى الدرجة أنى غيرت جنسيتى ، ولكنك لن توجه الى اللوم لذلك اذا علمت مــدى ما قاسيته من صنوف العذاب والذل في ستانيسلاف ولسبب واحد وهــو أنى اعتبرت أنى من الروس » . وتقلصت عضلات وجهه عندما طرأت على ذهنه قصة اعتقاله • ثم قال : « ولا تزال أذنى تردد صدى صراخهم في وجهى وهم يقولون : « أنت أيها الروسى ! أيها الحقير مصاص الدماء ! أيها الروسى انك لخنزير من المجر ! أنت جاسوس ! » • وهذا هو السبب فى التجائى الى تغيــير جنسيتى • ولكنى • في صميم فؤادى • ما زلت كما كنت في سابق عهدى بالرغم من أنى لا أستطيع أن أتجاهل بذلك أمام أحد من الناس » ثم أخذ الزجاجة وتناول جرعة أخرى منها ثم قال « لابد أن أذهب الآن »•فتصافحنا وسرت معه الى أول الطريق •

وعدت الى مخدعى حيث وجدت أن زيارة فاديا قد زادت من شعورى بالسخط والاسى ، وتعجبت كيف أن البولشفيك على مثل هذه الدرجة من الغباء • فقد حاول ألوف من أفضل رجالنا من الروس الامناء أن ينضموا اليهم • ولم يجدوا منهم سوى اتهامهم أنهم من الجواسيس • وكان رجالنا يدركون مغزى المبدأ الشيوعى الذى يقول :

« دع ألوفا من الابرياء يموتون حتى لا يبقى مذنب واحد على قيــد الحياة » •

ثم جلست أفكر فى المثل الروسى القديم والذى يشير الى أنه : « ليس هناك شىء يبقى الى الابد تحت الشمس » ٠

حقا أن البولشفيك لن يستطيعوا البقاء فى منصة الحكم الى الابد ، وجال بخاطرى أنه قد تمضى عدة سنوات قبل نهاية هذه الفترة المظلمة من حياة قومنا ، ولكن لم يكن هناك دليل على النهاية لغاية الآن ٠ فقد تم اغتيال الآلاف من الابرياء ٠ بل أن المجريين لم يرتكبوا مثل هذه الجرائم ضد قومنا ٠

ثم توجهت الى موك شيفو ٠ وهناك أيضا وجدت الشيوعيين يبذلون جهودا طيبة لحث الكربات الروس على الاتحاد مع الاتحاد السوفييتى ٠ وكانوا يجمعون التوقيعات على التماسات متنوعة ــ بما فيها بيان هام لــ NRZU وهى الحروف الاولى التى تمثل Narodnaya Rada Zakapartskoy Ukrainy وهو البرلمان الشعبى لــ Trans-Carpathian Ukraine وكانت هذه منظمة سياسية ٠

وأثناء سيرى فى الطريق التقيت مع اندرى مورنياك الذى كان من أنصار NKVD كما علمت من عدد من أصدقائى ٠ فبادرته بالتحية باعتباره من أصدقائى القدماء ٠ وعند ما تحقق من شخصيتى على ضوء النور الخافت المنبعث من جوانب الطريق دعانى لتناول بعض المشروبات معه ٠ وكنت آمل أن أعرف منه شيئا حول عمليات قوميسيرية الشئون الداخلية فى ذلك القطاع ٠

واصطحبنى الرجل الى مكان قريب به صالون مزدحم بالمجتمعين ٠ وكان دخان السجائر يملأ جو المكان ٠ كما انتشرت رائحة الخمور من مشروبات البيرة والنبيذ ٠ وتمتزج بما ينبعث من الفودكا من رائحةشديدة وتختلط برائحة العرق المتصبب من الجموع المحتشدة فى المكان ٠ فقد اجتمع القوم على اختلاف أنواعهم يتناولون الخمر فى هذه القاعات وقد أضيئت أنوارها ــ وكان من بينهم الضبط والسكيرون واللصوص ومن يتعاملون فى السوق السوداء والعاهرات وكذلك بعض المثقفين ٠

واتضح أن خادم البار يعرف أندرى معرفة جيدة ٠ فعند ما أشار اليه أندرى أسرع الخادم بالبحث عن مائدة خالية . وبينما كنا ننتظره واذا

بغادة جميلة سمراء تقترب من أندرى وتضع يدها على ظهـره • فتجهم وجهه وأشار اليها أن تبتعد عنه • وهنا نظرت اليه الفتاة نظرة استغراب وتحد ثم تحولت عنه بعد أن أعربت عن استنكارها له •

وسرنا مع الخادم الى منضدة أعدها لنا حيث أمـره أندرى باحضـار زجاجة من النبيذ • ثم سألنى أندرى فجأة : « لماذا لا تؤدى مهمة فى أى مكان ؟

وسألته وأنا أهز كتفى : « أين ؟ فى منظمة بوليس الدولة ؟ » فبدت عليه مظاهر الضيق وقال بصوت أجش : « أنى أرى أن مثلك كمثل أى فرد آخر • وأنك لا بد أن سمعت بتلك الشائعات التى ثارت حولى • ان قصة بوليس الدولة ليست سوى شائعة منها • ثم قال وهو يصب له قدحا من النبيذ • « ليس هناك بوليس الدولة فى موكاسفيتو وأخذ ينظر الى من حولنا فى شيء من الارتياب ، وكانوا ممن يتعاطون المسكرات حول منضدة بالقرب منا ، ومال نحوى وهو يتحدث بصوت منخفض ويقول : « لست أدرى كيف أوضح لك الامر بالضبط ، فنحن فى الميليشيا غالبا ما نجـد أفرادا فى ملابس عسكرية يسألون عن معلومات عن مجموعات معينـة ، ونحن لا نعرف حقيقة هؤلاء الرجال العسكريين ، فهم لا يذكرون أسماءهم ولا الجهات التى قدموا منها » • ولكننى أظن أنهم لا يتبعون منظمة بوليس الدولة ، وانما من أفراد هيئة سرية أخرى » • وهنـا توقف أندرى عـن عن الحديث وانتهت مناقشة شرطة روسيا السرية •

بعد ذلك أشار للخادم ليحضر زجاجة أخرى من النبيـذ وقال لـه : « اخبر فتاتى الجميلة لكى تحضر الينا » • وكنت قد تناولت قدحـين من الخمر بينما أتى أندرى على بقية الزجاجة • وشقت الفتاة المجـرية ذات العيون السوداء والشعر الداكن طريقها بين صفوف القوم حتى جاءت الينا، وكانت تلبس رداء محكما من الجلد حتى عنقها • فأخذت تترنح بين ذراعى أندرى وقبلت جبينه ،وكان الرجل قد أصبح يشعر بمفعول النبيذ القوى• فوجدت من الافضل أن أغادر المكان •

واتخذت طريقى الى الباب بين صفوف قوم يتحدثون بأصوات مزعجة، بينما حاولت بعض نسوة شبه عاريات دعوتى للاشتراك معهن فى الشراب والتهريج ، وشعرت بانتعاش عند ما أصبحت فى انهواء الطلق ، وكانت المعلومات التى أدلى بها أندرى عن غير قصد سببا فى القضاء على آرائى حول

منظمة قومسيريه الشئون الداخلية • ففي فترة تدريبي للقيام بمهمتي كنت أعلم كيف تقوم هذه المنظمة بتنفيذ اجراءاتها ، وكنت أعلم أن معلوماتي كانت دقيقة فيما يتعلق بهذه الفرقة من الشرطة السرية • كما كنت على يقين من أنها لا تحاول العمل من وراء ستار ، ولذلك كانت هذه المعلومات الجديدة سببا في حيرتي وارتباكي ، فمن كان هؤلاء العسكريون الذين سعوا للحصول على معلومات من أندري وغيره من رجال المليشيا ؟ ومن أولئك الذين لا يثقون بكبار موظفي هذه الهيئة التي هي اداة طيعة في أيدي الشيوعيين ؟ وماذا كان وراء هذه الشكوك حتى أثاروا هذه الموجة الحديثة من الاعتقالات ، وأصبحت أهتم كثيرا بحل هذا اللغز قبل تأديتي مهمتي • وتساءلت : « كيف أقوم بتنفيذ ما تستلزمه المهمة • اذ أني حتى الآن لم أقرر أي نوع من العمل استطع القيام به » وتعجبت أن كان هذا يرجع الى نقص في استعدادي ومدى مقدرتي •

وأصبح أمامي الآن — وقبل كل شيء — أن أوجد صلات لها أهميتها . وكان الشيوعيون المحليون بوازع من أنفسهم يتحملون الاخطار التي قد تنجم من ذلك ، فاذا انضممت الى الحزب الشيوعي كان لا بد وأن أحمل عبئا ثقيلا من اجراءات الدعاية • ولن يصبح لدى وقت يكفي للقيام بأوجه النشاط الاخرى ، كما كنت أعلم أن موظفي سكرتارية المنظمات الشيوعية المحلية ليس لهم اتصالات مباشرة مع الحزب الشيوعي السوفييتي ، فاذا اتصلت بهم كان معنى ذلك فشلا عاجلا في أداء مهمتي ، ولا بد لي من العمل الروتيني المتواصل يوما بعد يوم ، ولكن متى وأين أبدأ العمل ؟ فاتضح لي أن أفضل وسيلة هي أن أتوجه مباشرة الى موسكو ، وهو اتجاه متعذر على الاقل في الوقت الحاضر • اذ كان لازال على الحدود بين الكربات الروسية وبين الاتحاد السوفييتي رجال وكلاب لتأدية مهمة الحراسة •

ولم يكن قد أعلن بعد • أن كانت روسيا الكرباتية سوف تنضم الى السوفييت أو تظل جزءا من تشكوسلوفاكيا . وفي بعض مناطق معينة كان التشيك ينظمون عمليات لتجنيد الأفراد للجيش ، ولغاية الآن كان الروس يقصرون جهودهم على حصر المتطوعين للخدمة في الجيش الاحمر ، ولكن معظم هؤلاء انضموا الى الجيش التشيكي • وكان رجال هذا الجيش ممن قاتلوا مع جنرال سفوبودا وعادوا الآن الى أرض الوطن لقضاء أجازاتهم ، قد أخذوا يعملون على أضعاف الدعاية الشيوعية للوحدة مع الاتحاد السوفييتي أكثر من أي وقت مضى . كما أخذوا يتحدثون عن حياة الرعب في معسكرات الاعتقال لدى السوفييت • وهي أمور شاهدوها

بأنفسهم • ثم انقسم الرأى العام بصورة واضحة الى معسكرين متضادين أحدهما يعضد الرؤس • والآخر يفضل البقاء مع التشيك • وكان من رأيى أن الشيوعيين سوف يكسبون الجولة بالرغم من أن أنصار التشيك كانوا يشكلون الغالبية العظمى ، وأصبح النفوذ فى كل مكان فى أيدى الشيوعيين •

وقررت أنه ليس من مجال لضياع الوقت ولا بد من بدء التنفيذ فى أقرب وقت • فتوجهت الى فيرا وشرحت لها فى عبارة صريحة واضحة أننا لا أمل لنا فى الزواج لفترة طويلة الاجل _ اذا كان هناك أمل •

فانفجرت قائلة : « اما أن تتزوجنى أو تكون هذه آخر علاقتى بك » •

وشعرت بأنى مخطىء تحت وطأة هذا الهجوم الشديد • فقد كنت أعلم أن فيرا _ كغيرها من الفتيات _ لها أمنية واحدة فى الحياة وأن آمالها تتجه نحو الزواج ، ولو كنت رجلا أمينا حقا لما لجأت الى تضليلها طول هذه الفترة • وكنت أود أن أشرح لها أن كلا منا يسير فى طريق يختلف عن طريق الآخر • وليس لى موضع فى مستقبلها كما ليس لها مكان لمشاركتى حياتى ، وحتى فى هذا الموقف الحالى لم استطع أن أبين لها الاسباب فى تعذر زواجنا ، وأنها قد تصل الى معرفة هذه الاسباب وحينئذ تستطيع أن تقدر معنى التضحية التى قمت بها فى يوم من الايام •

وكان البولشفيك قد سفكوا دماء مئات الالوف من الابرياء داخل معسكرات الاعتقال ، وماذا كانوا يصنعون بى وبفيرا اذا علموا بحقيقة شخصيتى والمهمة التى كنت بصدد اتمامها • وبالرغم من كل شىء لم يكن من المحتمل أن يعرفوا حقيقة مهمتى ، فقد كان لدى شهادة تدل على أنى من الانصار • وخطابات توصية من عدد من زعماء الشيوعية المحلية • وبطبيعة الحال كانت هناك فرصة لكشف الستار عنى بالرغم من الاحتياطات التى اتخذتها ، ولم تكن فيرا تعلم أنى كنت على حافة الهاوية وسوف ألاقى أخطارا لا مناص منها • ولم يكن أمامى شىء سوى قطع علاقتنا حتى ولو حلت الكراهية مكان ذلك الحب العميق ، وكان القتال من أجل روسيا كفاحا حقا من أجل الحياة أو الموت ، ولم يكن مباراة بين المهاجرين الساسيين ، ولكننى لم أكن بمفردى فى هذا الدور بل كان آخرون كثيرون يعملون ، ثم أن القوة التى كانت تثابر على حفظ مستواها وتتغلب على الاخرى • هى التى كانت تربح الجولة النهائية ، وكان لدى البولشفيك وتحت تصرفهم وسائل لا حدود لها وجيوش من الموالين لهم وممن يطيعون

أوامرهم ورهن اشارتهم • وكانوا على يقين من كل شيء ولا يتطرق الشك الى قلوبهم التى لا تعرف معنى الرحمة أو الشفقة • وكان معنا الملايين من الفقراء والمغلوبين على أمرهم وممن لم يتذوقوا طعم الحرية • ومن المخدوعين من رجال ونساء روسيا ، ولكن هؤلاء سوف ينهضون فى يوم من الايام •

وكان الامر يحتاج لزعماء لمكافحة الطغاة والجبابرة ، وكان بعضنا يرى ضرورة المخاطرة بحياتنا ، وقد تبين لى فى معتقلات الجستابو الالمان أن فى أوروبا بعض حكومات معينة لا ترغب أن تكون روسيا دولة قوية على أحدث نظام ، وأدركت أن هذه الحكومات كانت على استعداد لفعل أى شيء لتدمير روسيا وتشتيت شملها • وباعتبارى مواطنا روسيا أدركت أنهم يعادون ملايين من الروس من غير البولشفيك بسبب خوفهم من روسيا وكراهيتهم العميـاء لها • وأنهم – يفعلون هذا – وهم لايدركون أنهم يقدمون الىستالين أعظم الخدمات• وفاتهم أن الشعب الروسى لايريد القضاء عليهموعلىبقية العالم المتمدين، ولم يبتغى ذلكسوى السوفييت من الشيوعيين • اذن لا بد للروسأنفسهم – من أمثالنا – من خوضالمعركة ضد البولشفيك ، لأننا نعرف حقيقة شعبنا ونحب بنى أوطاننا ونفهم مقاصدهم ، وكنت أعد مجرما فى نظر البولشفيك اذا اعتقلت أثناء قيامى بمهمتى أكثر مما لو كنت أرتدى ملابس المجرمين الرسمية وأحمل السلاح. ولكننى لم الجأ مطلقا الى ارتداء هذه الملابس •

ولم تدرك فيرا معنى لكل هذه الامور ولم أحاول تفسيرها لها • ولم أكن أرغب فى وقوعها بين يدى الشيوعيين بسببى ، وشعرت بأنى أفضل أن أراها كسيرة القلب حتى ولو احتمت نفورها منى • وقلت فى نفسى لا بد أن أتحلى بشجاعة كافية لكى أتقبل كل شيء تفعله عن طيب خاطر لأننى لا أستطيع أن أذكر لها مثل هذه الامور وكثيرا غيرها • وعندما فرغت من ثورتها فى وجهى طلبت منى مغادرة المنزل •

وكانت الايام القليلة التالية حافلة بالاحداث • اذ عهد الى بمهمة التجنيد • وجمع المتطوعين للجيش الاحمر • كما أصبحت على صلة بالحزب الشيوعى المحلى •

وجاء يوم آخر نوفمبر وكان هذا هو عيد ميلادى الخامس والعشرين• فقررت أن أدعو بعض أصدقائى لتناول زجاجة من نبيذ كوكى كانت مقدمة هدية لى • وكنت آمل أن تحضر فيرا لمشاركتى فى هذا العيد . فقد

كان ذلك من دواعى سرورى لأنى كنت لا أزال أحبها حبا عميقا • وكان من بين الضيوف رجل يدعى نيكيتا وأخذ يطعن فى الروس طعنـــا مريرا ، وذكر لنا قصة قسيس نعرفه جميعا • وبدأ يروى لنا : « أنتم تعلمون كيف كان هذا الرجل ميشيكا يحب الروس ، وطول الوقت كما كانت بلادنا تحت سيطرة المجريين • كان يتحدث عن الروس كما لو كانوا من الملائكة وليسوا من الجنس البشرى ، وفى ذات ليلة أقتحم هؤلاء المــلائكة مسكن الرجل وأمروه بخلع ملابسه كلها • حتى اذا أصبح عارى الجسد أخــذوا يضربونه بكعوب بنادقهم ثم ألقوا به على قارعة الطريق • وفى الحـــق • الشيطان وحده هو من يعلم ما يجرى بيننا ! »

فذكرت لاصدقائى تلك القصة التى سمعتهامن فيديا من وقت قريب• والتى كانت تدور حول الاستجواب فى سجن ستانسيلوف و كوليما وحول المـوت جوعا وظروف الحياة القاسية فى معســكرات الاعتقـال التابعـة للسوفييت ، وأخذ الضيوف يصغون الى حديثى فى اهتمام واضح • بينما كان نيكيتا مقطب الجبين • يهز رأســه متعجبا ، وكانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة عندما بدأ الرجال فى مغادرة المنزل • وسرت قليلا مع نيكيتا لكى أحدثه على حدة • ولكى أنصحه بأن يكون حريصا فى حديثه حـول هذه الشئون •

وبعد مضى ليال قليلة واذا بى أرى نيكيتــا يدخل مســكنى مسرعا • وكان وجهه مكفهرا وعيناه تنمان عن الكراهية •

وسألته : « ماذا جرى لك ؟ » فأخذ يسخط ويسب قائلا : « عليهــم اللعنة جميعــا » • ثم واصل حديثه : « كم كنت غبيــا • لماذا لم أبق فى وطنى وبين عشيرتى • لقد اعتدوا على شرف أختى وانتهـكوا عرضهــا • وقتلوا والدى بالرصاص • وضربوا أمى بكعوب بنادقهم ، وحدث كل هذا بينما كنت فى الخارج أضيع وقتى فى المجون • دعنا يا نيقولا نذهب الى موسكو اللعينة ونعمل على نسفها ومن بها من أفراد الحزب الشيوعى ومعهم ستالين » •

فقلت له محذرا : « صه أيها الاحمق • فهناك فى الغـرفة المجـاورة ضابط روسى من حرس الحدود » •

وهنا صاح نيكيتا قائلا : « الى جهنم هذا الملازم • أنك لا تستطيع أن تدرك مدى انفعالى وشعورى الآن • أنها لصدمة شديدة من الخزى والعار • ولن أنساها مدى حياتى » • ثم جلس على حافة الفراش وهو لا يزال يلوح بقبضة يده •

وأخذت أحاول تهدئة خاطره فقلت له : « كل هذه الانفعالات لن تأتى بثمرة • أولا وقبل كل شيء : من المتعذر علينا أن نذهب الى موسكو • ثانيا : هناك ألوف من الناس ممن يعرفون ظروف الكرملين أفضل منك مائة مرة • وكانت نهايتهم فى ظلمات السجون التابعة لوزارة الداخلية • لا بد لك من التفكير الهادىء السليم » •

ثم توقفت قليلا قبل أن أواصل حديثى قائلا : « عليك بالتفكير فى الامر قليلا • واذا لم تجد بدا من القتال • عد الى وسوف نتناول الامر بصورة جدية » •

وقال بعد أن بدت عليه مظاهر الهدوء : « ليتك يا نيكيتا كنت تعلم كيف كنت أتوقع مجىء الجيش الاحمر • وكيف كنت أحب الروس • ولكنى الآن أكره هؤلاء الاوغاد ! » •

فسألته : « ألست روسيا ؟ » فقال :

« روسى ؟ نعم ولماذا هذا السؤال ؟ » وكان ردى عليه :

« اذن لماذا أنت حانق عليهم وتطعن ظهورهم • أن من حقك ومن واجبك أن تمقت البولشفيك • ولكن لا تنسى أن هناك ملايين من الروس يقاسون أكثر منك ! »

وأخذنا فى الحديث لمدة ساعة • حتى اذا استعد للمغادرة كان أهدأ بالا . حقا أن الانتقام يعمى الابصار • ومن يرغب فيه وينقاد له يفقد عقله واتزان تفكيره دون جدوى • وأنى أعلم أن فى روسيا السوفييتية يمكن القضاء على البولشفيك على أيدى رجال لهم أعصاب من حديد • ولديهم معلومات مفصلة عن حقائق الحياة السوفييتية • وعلى النقيض من ذلك كنت أعلم أن أى مجهود يبذل سوف يؤدى الى أحد سجون بوليس الدولة واذا كان نيكيتا قد انقاد الى رغبته فلابد أن هذه هى كانت نهايته أيضا • دون أن يجنى شيئا مطلقا •

وبعد مضى أسبوع • وحوالى الساعة السابعة من مساء يوم الثلاثاء • واذابضابط برتبة اللفتننت كولونيل يدخل غرفتى دون استئذان • وكان متوسط القامة وله عينان نفاذتان وملامح تدل على القسوة والحيلاء وحسن التصرف فى شئون الحياة • وبدا لى أنى أعرفه من قبل ولكن فى شيء من الغموض ، وبعد لحظات عاد الى ذاكرتى وتعرفت عليه • فقد كان الضابط المسئول عن حملة الدعاية لجمع المتطوعين للخـدمة فى الجيش الاحمـر ، وتلاه ضابط طويل القامة قد تغير لون شعر رأسه بتأثير حرارة الشمس • ووقف فى الغرفة دون أن يقول شيئا • ورأيت بالقرب من الباب اثنين من الجنود يحملان أسلحة آلية • وكانا يسيران ذهابا وايابا أمام الباب • ثم سألنى الكولونيل يقول فجأة : « هل اسمك نيقـولا ؟ » فأومأت برأسى موافقا • وعندئذ أمرنى أن أرتدى سترتى وأتبعه •••

٣

اختيارى للعمل

وتعجبت هل بدأ التنفيذ ؟ • ولكن هذاء هراء • اذ ليس هؤلاء من رجال بوليس الدولة • ولابد أن في الامر شيئا من وراء هذه المنظمة • ثم تذكرت حديث أندرى حول هذه الفرقة السريه من الرجال العسكريين، ودار بخلدى أن هؤلاء لابد أن يكونوا من أفرادها • ولكن كيف توصلوا الى معرفة مقرى بهذه السرعة ؟ ربما كانت هناك ثغرة لم أكن أتوقعها •

وأثناء السير كان الجنود يمشون ورائى بخطوات متزنة حتى وصلنا الى مكتب قائد الفرقة • وأمام المبنى حيث كنت أعمل مع القائد • توقف الكولونيل وأمر الجنود لكي يحتفظوا بى لفترة من الوقت • فما كان منهم الا أن زجوا بى فى زنزانة وأغلقوا بابها •

وكان الظلام حالكا بحيث لم أستطع أن أرى شيئا • ولم يصل الى سمعي سوى صوت أنفاسى تتردد فى صدرى • وأصبحت أشعر بالوحدة المفزعة • ولكى أتجنب التفكير المضنى فيما صرت اليه • أخذت أتلمس أركان الزنزانة حيث عثرت على بعض ألواح من الخشب فرقدت عليها وعزمت على أن أخلد الى النوم •

ولابد أنى نمت عدة ساعات فقد كان البرد قارسا عندما استيقظت من نومى • ونظرت فى ساعتى وكانت عقاربها من النوع المضىء فتبين لى أنها تشير الى الساعة الثالثة صباحا ، ففى هذه الزنزانة كانت الدقائق تتحول الى ساعات • وكانت الساعات لا نهاية لها • وتلمست طريقى نحو الباب وحاولت أن أدفعه الى الخارج • واذا بصوت يزمجر من الخارج ويقول « ماذا تريد ؟ » •

ودون أن أرد على سؤاله عدت الى مكانى اتفقد جوانب الزنزانة التى كانت ضيقة • وكان طولها خمس خطوات وعرضها أربع ، ولم يكن بها أى شىء سوى ألواح الخشب التى رقدت عليها وعندما حاولت النوم مرة أخرى لم أستطع الى ذلك سبيلا ، وكانت الساعة تشير الى طلوع النهار •

فانتظرت أترقب مجيء الافطار ، وطال انتظارى حتى منتصف النهار ، فشعرت بخيبة الامل فى الحصول على طعام · واشتد بى الجوع عندما جاء المساء فلم أجد بدا من أن أقرع الباب مرة أخرى ·

واذا بصوت جديد أجشى ولكنه أهدأ قليلا من الصوت الاول يقول :

« هل تريد أن تتلقى لطمة على وجهك ؟ » ·

فعدت الى مكانى فوق ألواح الخشب وحاولت ألا أفكر فى شيء مطلقا ، اذ أصبحت منهكا أشعر بشدة الرطوبة وبقذارة ملابسى · ولكنى لم أهتم بالامر وشعرت بضرورة النوم ·

وجاء اليوم التالى يتسلل كسابقه حيث اشتدت بى وطأة الجوع وكنت أحدث نفسى هل قرروا أن أموت جوعا ؟ · فبدأت أن أقرع الباب مرة أخرى فيما يشبه اليأس ·

وهنا صاح الحارس : « صه يا هذا » · فلم أسكت عن الطرق مما كان سببا فى توالى اللعنات الواحدة تلو الاخرى · ثم قال : « كف عن هذه الضجة والا دخلت لاركلك بقدمى » ·

وفى مواجهة هذه التهديدات لم يكن فى وسعى سوى أن أرقد على هذه الالواح الخشبية وأحاول النوم مرة أخرى ، وقضيت الليل على أية حال بالرغم من الرطوبة وشدة البرد ·

وسمعت ضجة فى الخارج وكانت هذه تباشير الصباح · فنظرت الى ساعتى حيث كانت الساعة الثامنة صباحا · واذا بجندى أغبر الوجه يفتح الباب ويأمرنى أن أتبعه · ثم يأخذنى الى الكابتن الذى كان بصحبة الكولونيل ، وأمرنى الكابتن بالجلوس ولاحظت على وجهه ابتسامة فاترة وأنه يضم شفتيه دليلا على الشماتة وكما لو كان يقول :

« أترى كيف نعامل المعاندين المتحجين أمثالكم ! » ثم سألنى :

« هل تشعر بالجوع ؟ » ، وكان ردى بالايجاب · فقال :

« حسنا · أمامك من الوقت ما يكفى لتناول الطعام ،ولكن دعنا نتحدث اولا » · وقال ذلك وهو لا يزال مشرق الوجه ·

وجلست أنتظر أسئلته بفارغ الصبر · وكنت آمل أن أعرف السبب في اعتقالي · وما سوف يترتب على ذلك ·

وقال الكابتن : « وصلت الينا شكوى فى حقك · ونحن نعلم أنك تقوم بدعاية ضد الالتحاق بالجيش الاحمر » ·

فقلت محتجا : « هذا غير صحيح » · وكان رده :

« نحن أصدق منك قولا · وعلى أية حال اما أن تكون مثالا صالحا تنير لاصدقائك معالم الطريق السليم ، واما أن ننتقم منك أيها الوغد الحقير ! » ·

وتعجبت كيف تتركز مثل هذه الكراهية فى نفس الانسان · وبدا لى أن ثورة مشاعره كانت نتيجة كراهيته ومقته للخونة والجبناء والمخربين ·

وقال بعد لحظة من التفكير : « هناك فى سيبريا متسع لامثالك » ·

وهنا أدركت السبب فى اعتقالى مما بعثفى صدرى الشعور بالضيق· فخلال الاسابيع الماضية كان عدد المتطوعين فى الجيش الاحمر قليلا لدرجة تبعث على اليأس ، وأصبح من الواضح أن ليس هناك من يرغب فى التطوع · ولما فشلت الدعاية التى قام بها الكابتن واللفتننت كولونيل لجأ كل منهما الى وسائل المكر والخداع فوقع اختيارهما على لان لى أصدقاء كثيرون · ولان لى بعض النفوذ بين شباب موكاشيفو كما أدركت أنى ارغم على الانضمام للجيش الاحمر لاكون مثالا لجمهور كبير من المتطوعين لخدمة الجيش ، وكان من سوء حظى أن وقع على الاختيار لاكون كبش الفداء · فوجدت أن الموقف يستدعى شيئا واحدا ولذلك بادرت باجابته قائلا : « حسنا · انى موافق على ما عرضته على » ·

وتهلل وجه الكابتن بالبشر والارتياح عندما تبين له نجاح خطته · فسألته : « وهل كان من الضرورى أن تتركونى أموت جوعا ؟ وكان رده :

« من الافضل دائما أن يلتزم الانسان الطريق المضمون » ·

وكان سخريات القدر شاءت أن تتدخل في شئوني ، وهو أمر لم أكن أرغب فيه مطلقا . اذ أن الجيش الاحمر ليس هو المجال حيث أقوم بمهمتي التي كانت تختلف عن هذا الوضع أشد الاختلاف ، وقبل اعتقالي ببضعة أيام كنت قد تسلمت التعليمات للاتصال ب ٠١٠ . وللبدء في اتخاذ الخطوات اللازمة لتنفيذ المهمة ، ثم تبادر الى ذهني أن ألجأ الى الهرب ولكن الموقف لم يكن يسمح بذلك ، وفيما يتعلق بالبولشفيك كان الامر يستلزم أن أكون رجلا له ماض لا يتطرق اليه الشك . وله كلمة يمكن الاعتماد عليها .

وتطوعت في الجيش الاحمر في هدوء وسلام بالرغم من أن تطوعي استلفت أنظار الكثيرين في موكاشيفو بسبب الدعاية التي انتشرت في أنحاء المدينة . ثم التحقت بفرقة احتياطية للتدريب في سفاليافا حيث كنا نستيقظ في الساعة الخامسة صباحا كل يوم وكان التدريب العسكري شاقا مضنيا ، وكانت أشق التدريبات ما يتم منها في الميدان حيث كنا نرغم على الزحف في البرد الشديد وسط الاوحال المنتشرة في كل مكان ، وكان التدريب يشمل اطلاق البنادق الروسية وقذف القنابل اليدوية .

وكانت ملابسي مهلهلة تبعث على السخرية . وكان حذائي ضيقا لا يناسب أقدامي . وكانت سترتي لا تليق الا بأحد أبطال القصص الخرافية . وكان معطفي يبدو كأنه صنع لاخ لهذا البطل اذ كان ضيقا حول رقبتي بحيث لا أستطيع تحريكها الا اذا تسلخ جلدي من حولها ، وكان يبدو لي أن الامر مدبرا بقصد مضايقتي . كما كان رئيس الفرقة يشاركني في هذا الشعور .

وكان هذا الرئيس مشاكسا ، وكان سلوكه هذا يتضح في كل مكان أو موقف يتخذه . فكان ينتقي الفاظا يعبر بها عن مدى شعوره بالاستياء ويكررها من وقت لآخر ، وبعد أن قضيت أسبوعا أعمل تحت ادارته تبين لي يقينا أنه لو أتيحت له فرصة للحديث مع ستالين لكان كلامه يدور حول هذا المعنى :

« أيها الرفيق ستالين ! يا من ينطوي نفسه على أساليب الشر والضغينة ! اني أود أن أهب حياتي لخدمة الوطن السوفييتي ! انك لعجوز حقير ! واكرر هذا القول ثلاث مرات ! » .

وكان الرئيس ليونكا يسير على النهج المتبع فى صفوف الجيش الاحمر ، فكان يلف الجزء الاعلى من أحذيته تحت ركبتيه · ويضع قبعته على مؤخرة رأسه كما كان متبعا فى الجيش الاحمر ، وكان يتوخى الادب وحسن الخلق فى حديثه معى بقدر ما يستطيع · بينما كان يتحدث الى الافراد من أمثاله يقول : « أنت مهندس أجنبى · عليك اللعنة ! أنت تفهم حقيقة مقتضيات الحياة » ·

وكان ليونكا يطلق على المجموعة التى انتمى اليها فرقة المتجولين · فقد كانت تضم أربعين رجلا من الكربات الروسية وعشرة من المجريين وخمسة من غاليسيا · والباقى من الروس والاوكرانيين ·

ولم يكن الرجل يميل الى الحديث فى الشئون السياسية ، وبعد أن فرغ من مهاتراته فى عشته أمس أخـذ ينصحنى بأن أسير على نهجه وأن أتجنب مثل هذه المناقشات فيما بعد ، وأبدى لى ملاحظة يقول : « قد يقوم البعض بافشاء سرك · وحينئذ لن تتـاح فرصة أخرى أمامك لكى ترى أسرتك · لعنه الله عليهم · أنهم يعاملوننا بمنتهى القسوة فى مثل هذه الظروف » ·

وكان الرجل صادقا فى قوله بطبيعة الحال · فقد كان الحزب الشيوعى وعلى رأسـه سـتالين العقل المدبر يفكرون نيـابة عن الجنود ، وكانت التعليمات تقضى بألا نشغل أذهاننا بشىء سوى التدريب على القتال ·

وكان ستالين ـ ذلك الزعيم الكبير ـ قد أدخل فى اعتباره تجربته التى تقتضى أضعاف الروح المعنوية بين جنود جيش القيصر · وكان يدرك حقيقة نقط الضعف فى كل جندى من الروس · وكانت هناك شبكة من الجواسيس يرسلون التقارير عن أى فرد يخرج عن نطاق النظام المفروض فيلقى من العذاب ألوانا · وقد اتخذ كل هذه الاجراءات بقصد حماية رجل الجيش الاحمر من أية دعاية مغرضة · وعلى الاخص ما كان منها ضد البولشفية ·

ففى أى موضوع كنت أستطيع الحديث مع رجال من أمثـال ليونكا وفى مثل هذه الظروف ؟ وكان رده بهذه المناسبة : « الحديث حول بنات الهوى والفودكا ! » ·

وكان ليونكا له من قوة الخيال ما أدى به الى تجاوز حد الاعتدال · وكنت أعتقد أنه قادر على السير فى هذا الاتجاه · فقد كان مغرما بحب النساء · وصحبة كل صنف منهن · من ممرضات فى فرقته الى بنات اشراف بولندة · وبنات جتزولكا وبنات فلاحى الكربات · وكن كثيرات بحيث لم يستطع أى يحصى لهن عددا · ومع ذلك كان يتطلع الى أصناف جديدة لكى يتمتع بملذات الحياة · وفى أغلب الاحيان كان يفتخر بمن حوله من النساء ويقول : « حذار أيها الاوروبيون · ها أنا قادم ! » ·

ومهما يكن من أمره فقد دارت عجلة الايام ونحن فى الجيش · وما لبث أن حل يوم عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة · واستقبلت سنة ١٩٤٥ باحتفال يشمل الكثير من ألوان المأكولات والمشروبات · وأسرف ليونكا فى شرب الفودكا حتى قضى الليل نائما فى فناء الدار · حتى اذا استيقظ أخذ يعالج هذيانه بالتى كانت هى الداء · وظل على هذا الحال يومين متتالين ·

وبالرغم من أنى لم أقبل على الشروب أثناء الاحتفال بالسنة الجديدة· فانى شعرت بالضيق مما يجرى حولى ، وكنت متيقظا من بين أفراد المجموعة · فقد اختفى الضباط فى مساء الاحتفال ولم يعودوا من المدينة حيث كانوا يلهون ويمرحون مع الفتيات ·

وأشد ما ضايقنى هى حالة الركود التى لجأت اليها مرغما · فلم أجد فردا واحدا أستطيع أن أتحدث اليه بصورة جدية · وتعجبت لماذا قبلت ما عرضه على الكابتن فى موكاشيفو · فهناك وفى أوزجورد كنت أستطيع أن أعمل شيئا ولو قليلا · ولكن الجيش الاحمر لم يكن سوى مرتع خصب للسكر والعربدة ·

وبلغ بى اليأس الى درجة انى أصبحت أحاول الاقبال على تعاطى الخمر · والميل نحو النساء كما يفعل ليونكا · ولكنى كنت أعتقد أن هذا نوع من العبث والمجون · وبطبيعة الحال لم أكن لاسمح لنفسى بالجرى وراء النساء بالرغم مما أقاسيه من قسوة الوحدة والاعتكاف ، وكنت أعتقد أن الثوار لابد لهم من خوض غمار الحروب مهما كانت الظروف ، وأسفت لانى ـ فى تلك اللحظة · لم أكن أعد من الثوار · فلم يكن أمامى شىء يدعو للقتال · ولم أجد بدا من أن أتخذ لى أصدقاء يمكن الاعتماد عليهم ·

واقتضى الامر أسبوعين لكى تنتهى الفرقة من الاحتفالات بالاعياد ، وبينما كنا عائدين من التدريب فى وقت متأخر فى المساء · واذا بقائد الفرقة يأمر مجموعة ليونكا بأن تكون على أهبة الاستعداد ، وتداول الافراد بين الصفوف كلمة : « القائد العام فى طريقه الينا » ·

وانتظرنا عدة ساعات على هيئة استعداد ، وحل المساء قبل أن نرى اشارة تدل على قدوم الرئيس . وأخيرا شاهدنا سيارة فيليوس — وهى الكلمة الروسية بمعنى سيارة جيب ، وهى تدخل الى فناء المكان · وحينئذ أصدر القومندان أمر يقول :

« استعدوا فى الساعة العاشرة تماما » ·

ووقفنا فى حالة انتباه لنرى ضابطا برتبة الميجر طويل القامه ينزل من السيارة · ويتقدم نحو قائد المجموعة ويتبادل معه التحيه ويصافحه. فأخذت أحسده على هيئته العسكرية الكاملة ومظهره الذى كان يتناسب مع مهنته الى أقصى حد ، وبعد حديث قصير مع قائد المجموعة ثم تحول الى ناحيتنا وأصدر أمره يقول : « أولئك الذين يتحدثون لغات أجنبية يخطون الى الامام ثلاث خطوات ! » ·

وتقدم معظم الرجال الى الامام · وهنا شعر قائد المجموعة بشىء من الحرج ·فصاح الميجر يستنكر ماحدث وقال « لا يتقدم الى الامام الا أولئك الذين يتقنون اللغة الروسية فقط » ·

وفى هذه المرة اتضح أنه من بين من يتحدثون اللغات الاجنبية ليس سوى خمسة فقط يتقنون اللغة الروسية . فأخذ الميجر يتحدث الى كل فرد منا على انفراد · ويسأل عن الجنسية والمركز الاجتماعى للعائلة ومهنة كل فرد ، ومدى المامه باللغات الاجنبية · حتى اذا جاء دورى أخذ يحدقنى بنظرة فاحصة · ودون أن يتحدث أخذ ينظر الى وجهى مرة بعد الاخرى ·

وشعرت بضيق شديد · فهل كنت من دواب الركوب لكى يفحصنى بهذه الصورة ؟ وكنت أتوقع أن يأمرنى أن أفتح فمى لكى يرى أسنانى · ثم سألنى :

« أى لغات تعرف ؟ » وكان ردى :

« اللغة الروسية والاوكرانية والمجرية والتشيكية والالمانية · كما أنهم اللغة الفرنسية والرومانية » ثم سألنى :

« هل أنت من اقليم أوكرانيا ؟ » ·

فأجبته بكلمة « نعم » مستخدما اللفظ الامريكى بمعنى « نعم يا سيدى » · « انى من اقليم الكربات الروسية · أيها الرفيق الميجر » ·

وعاد يسألنى : « ما هى مهنة والدك وأسرتك ؟ » ·

« من المزارعين » ·

« وما هى مهنتك » ·

فقلت له « مهندس ؟ » ·

وكان الميجر لا يحول نظره عن وجهى طول فترة المحادثة · وكان الرجل وسيما دقيق الملامح صارم الوجه ويضم شفتيه بما يوحى بقوة العزيمة · وكانت حدقات عينيه ثابتة توحى بالذكاء الخارق ، وكانت نظرته جامدة تشبه قطعة من الجليد · ولولا وظيفته باعتباره رئيسا لى لابديت اعجابى به ، وتعجبت لماذا يبدو بمظهر العظمة أمام بقية الرفاق ·

وكانت هيئته تدل على أنه يكاد يقول : « انى من نوع خاص من الجنس البشرى · وهناك فرق كبير بينى وبينكم أيها العامة من الشعب » ·

وهنا استدار الميجر فجأة نحو رئيس الفرقة وأشار الى قائلا : « لقد وقع اختيارى على هذا الرجل » ، ثم أضاف يقول : « وسوف أحضر فى صباح الغد فى الساعة العاشرة لكى أصحبه معى » ·

٤

ظلال سميرش

كان الرقيب ليونكا يشعر بضيق شديد بسبب مغادرتى فرقته . ولكنه كان يظن أنى سوف أشق طريقى الى مقر القيادة ، وانتهز هذه الفرصة فاقترح أن نتناول زجاجة من الفودكا احتفالا بهذه المناسبة . ثم قال بفلسفته المعهودة : « من يدرى ــ عليك اللعنة ــ ان كان أحدنا سوف يرى الآخر مرة أخرى » .

فقلت له : « لا شك فى أننا سوف نلتقى فيما بعد . فالحياة مليئة بمختلف الطرق والنواحى . ولكنها ليست اتجاهات متعددة كما يبدو فى هذه الايام » .

ولم أستطع طول الليل أن أتخلى عن تفكيرى فى هذا الرائد المجهول ، واعتقدت أننى فى الغد سوف أعرف من هو . والى اى طريق نحن مسوقون . كما أيقنت أن أهم شىء الآن هو أن متاعبى قد انتهت من حيث التدريب والغوص فى الاوحال . واتضح لى انى سوف أعمل مترجما . وأن مهمة المترجم فى الجيش لا تبعث على الملل . كما أن هناك فرصة للعمل بمقر القيادة حيث أتصل بقائد أو اثنين من قادة السوفييت . وفى ظنى . كنت على يقين من أن القادة لا يفكرون فقط فى النساء وشرب الفودكا كما كان يفعل صديقى ليونكا . وفى هذا المجال قد تتاح لى الفرصة لكى أتعرف على وجهات نظرهم نحو ستالين . ونحو العالم . ونحو حقيقة الحياة السوفييتية ، والحقائق التى أصل الى معرفتها قد يكون لها دور هام فى مستقبل الشعب الروسى .

وفى يوم الثلاثاء ١٦ من يناير وصل الميجر فى سيارته الجيب حيث ركبت معه وسرنا نحو المدينة . وهنا هبطنا من السيارة . ودخلنا مبنى صغيرا فى أحد الميادين ثم أدخلنى غرفة صغيرة وانصرف . ودهشت

عندما رأيت عددا من أصدقائي القدماء ـ منهم ميفودى وايفا وسونيا وكثيرون غيرهم • وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث دفعة واحدة :

« من أين أنت قادم ؟ » •

« الى أين أنت ذاهب ؟ » •

« وما هى الاسباب ؟ » •

ولم يتوصل أحد منا الى اجابة صحيحة • بل واصلنا الثرثرة لمدة نصف ساعة تقريبا • وبعد ذلك عاد الميجر ودعانى الى الغرفة المجاورة حيث أمرنى بالجلوس وكتابة ملخص لتاريخ حياتى •

فتناولت الورق والقلم وأخذت أكتب باختصار تاريخ ميلادى والمكان حيث ولدت • وأين تلقيت دراستى • ثم ذكرت اشـتراكى فى حركة الانصار ، وسلمت الورقة الى الميجر •

ولم تعجبه البيانات التى ذكرتها فطلب منى اعادة كتابتها فى شىء من التفصيل • وأسرع بتلاوة عـدة أسئلة لكى أجيب عليهـا : « **ما هى أسماء والديك وأخوتك ؟ أين قمت برحلاتك ؟ من تعرف من السياسيين فى منطقة الكربات ، أى حزب سياسى كنت عضـوا فيه • أو حتى كنت متصلا به بطريقة غير مباشرة ؟** » •

وفجـأة تبين لى أنى أصبحت بين جدران منظمة على قـدر كبير من الاهمية • وكانت الدلالة على ذلك ما بدا على وجه الميجر من نشاط وانفعال واهتمام بصورة غير عادية • وايقنت أن هذه لا يمكن أن تكون أقل من منظمة بوليس الدولة •

وبدا لى أنه اقتنع بالمذكرة الثانية التى كتبتها عن تاريخ حياتى ، فقد رأيته ينشر أمامه خريطة من خرائط هيئة أركان الحرب • ويشير بقلمه الرصاص الى القرية التى ولدت فيها • ودون أن ينظر الى وجهى طلب منى أن أذكر له جميع أسماء القرى المجاورة ، ومن هذا يتضح أنه كان يريد أن يتثبت من صدق كلامى وانى لم أكن أخدعه • بعد ذلك

قدم لى ورقة مطبوعة باللغة المجرية وتقول : « أنا ـ من أهالى روزفيوف ـ أقرر بأن الاجتماعات تعقد فى مساكن فيرجا فى يومى الأربعاء والسبت ٠ وأن كل شيوعى ٠٠٠٠٠ » ٠

وهنا قاطعنى الميجر وهو يقول فى شىء من البرود : « هذه ورقة من ملفات كاميلجارت ٠ وقد أطلق الرصاص على العميل » ٠

ولاحظت أنه يحدق النظر الى وجهى كما لو كان يريد أن ينفذ الى تفكيرى ومشاعرى ٠ حتى اذا انتهى من حديثه شعرت بشىء من الهدوء والسكينة وعلى الاخص عندما حول نظره عن ناحيتى ، وأخذ يذرع الغرفه مفكرا وبدا لى أنه اقتنع عند هذا الحد ٠ ثم قال : « اذهب الى الغرفة المجاورة وهناك سيقدم لك الكابتن البيانات المطلوبة » ٠ ثم انصرفت الى الغرفة المجاورة حيث بدأت فى مهمة طويلة شاقة وهى ملء عشرات من الاستمارات ٠

وكانت الاسئلة شاملة ولا نهاية لها ٠ فحمدت الله على انى ولدت مزارعا فى احدى القرى ٠ وليس من بين أفراد عائلتى قوم معروفون ٠

وعند منتصف الليل تقرر أن ستة منا قد اجتازوا الامتحان بصورة مرضية ٠ وصدر الامر بأن نستقل سيارة صغيرة جيب ٠ وهى سيارة مكشوفة من انتاج مصانع سيارات جوركى ٠

وكانت ايفا من بين أفراد الرحلة فسألتنى : « الى أين نحن مسوقون ؟ » فأجبتها : « لست أدرى » ٠

ثم غادرت السيارة حدود المدينة حيث تبين لنا طريق أوزجرود . وكان الظلام حالكا بحيث تعذر علينا رؤية معالم الطريق ٠ وكانت الرياح شديدة البرودة وتكاد الرطوبة تخترق عظامنا ٠ والتصقت بى ايفا وهى تجلس بجوارى فى المقعد الخلفى ٠ وبالرغم منى شعرت بالنفور من أن أضع ذراعى حول خصرها ٠ فقد تذكرت الشائعات التى كانت تدور حولها فى موكاشيفو قبل التحاقى بالجيش الاحمر ٠ فهى لم تكن فتاة جميلة أو رشيقة تستلفت الانظار ، وكان على وجهها بعض بقع من النمش ٠ وتدل عيناها على الغباء ٠ ولها أنف عريضة . ولم يكن لها من الملامح الجذابة سوى شفتيها الدقيقتين ٠ وتعجبت كيف أصبحت مترجمه . وقد

يكون ذلك راجعا الى شغفها بتجارب من نوع جديد • أضف الى ذلك أن الجيش كان يفيض بشبان من ذوى الاناقة وممن هم فى حاجة الى مترجمات بصرف النظر عن الرشاقة أو الجاذبية •

وكانت سونيا تجلس الى جوارى من الناحية الاخرى وكانت تختلف كثيرا عن ايفا ، فقد كانت على درجة من الجمال والرشاقة وتبدو مظاهر الحياء على محياها ، وتصورت أنها يصعب عليها مقاومة الرجال وخشونتهم وعلى الاخص فى هذا العالم الجديد الذى أصبحنا نعيش فيه •

وأخذت السيارة تهتز بنا واستسلمنا الى النوم فى مقاعدنا • حتى اذا أقبل الصباح لم يتبين لنا حقيقة المكان الذى وصلنا اليه • فقد اتجهت السيارة الى مدينة أخرى حيث دخلت الى مبنى كبير فى أحد ميادينها ، وهناك أتيحت لنا الفرصة لكى نغتسل ونستبدل ملابسنا • وفى الساعة العاشرة اجتمع الميجر وأشار الينا أن نتبعه الى الجناح اليسارى من المبنى •

وهناك شاهدنا ضباطا يرتدون ملابس أنيقة ، وكان من بينهم من هو برتبة الكولونيل أو اللفتننت كولونيل أو الميجر أو الكابتن • وكلهم يجلسون الى مكاتب فى مختلف الفروع • وكان عشرات الضباط يهرولون فى الطرقات دون أن يلتفتوا يمينا او يسارا • مما أعاد الى ذاكرتى حشرات النمل وهى تبنى لها مساكن على سفوح الجبال ، وكان كثيرون منهم ينظرون الينا فى شىء من الارتياب ولكن لم يحاول أحدهم أن ينطق بكلمة واحدة ، بعد ذلك أمرنا أن ننتظر فى احدى الغرف الكبيرة • ثم غاب الميجر ولم يلبث أن عاد بعد بضع دقائق وأشار الى بالدخول فى أحد الابواب •

ودخلت غرفة كبيرة تمتلىء بأفخر أنواع الاثاث والرياش • وأرضها مصنوعة من الباركيه ومغطاه بالطنافس العجمية • وعلى جدرانها صفوف منظمة من الملفات والاوراق • وهناك مكتب فخم فى أحد أركانها •

وأمام هذا المكتب كان يجلس ضابط برتبة الكولونيل ويضطجع فى مقعد كبير من الجلد • وكان ممن هم أفضل منى فى مهمة المباحث ومن بين أفراد قسمه الجنائى من يستطيع أن يصفه بأنه كان متوسط القامة ويتمتع بصحة جيدة وله وجه مستدير وشعر رأسه قصير • وله عينان زرقاوان وأنف منتظم وحاجبان شعرهما غزير وعنق غليظ أشبه برقبة الثور •

ولغاية الآن على الاقل لم تكن مهمتي البحث عما يدور في ادارته الجنائية · وكان للكولونيل طابع في نفسي يختلف كثيرا عما يبدو من مظاهر هذه الادارة · فقد كانت له عينان تشعان بالقسوة ولكن في شيء من الجمود · وكانت هيئته تدل على أنه يتميز بارادة حديدية · كما كانت حركاته سريعة سرعة ملحوظة ، ويوحي منظره بالثقة في النفس والثبات في الامر ، وكانت ملابسه أفضل بكثير من ملابس غيره من الضباط ممن رأيتهم في فرقتي الاحتياطية · وكان يرتدي سترة عليها الشريط الاحمر مع شارة سلاح المشاه · وكان سرواله من أفخر أنواع الاقمشة ومفصلا أدق تفصيل · وكان حذاؤه نظيفا لامعا ·

وكان بجواره كابتن يضرب لونه الى السمرة · ويلتزم الصمت بينما كان جالسا على مقعد بجوار المكتب من جهة اليمين ·

وهنا قال الكولونيل بلهجة محكمة : « أيها الرفيق الكابتن · عليك أن تفحص حديثه باللغة الالمانية ·

وكان يقصدني بحديثه هذا · وكان صوته يرن في اذني كصوت الحديد البارد · وسألني الكابتن أين تعلمت اللغة الالمانية ، وكان حديثه بلهجة روسية واضحة ، وبعد أن تبادلنا بضع كلمات اقتنع بانى أتحدث الالمانية بطلاقة · فأشار الى الكولونيل بذلك · ونهض هذا من مقعده وأحدق نظره في وجهي وسألني : « هل سبق لك أن اشتغلت في كاميلجاريت ؟ » ·

وأجبته في هدوء قائلا : « لا · لم يحدث » · وشعرت بأن الرجل كان يحاول قراءة أفكاري · وأخذت أحاول جاهدا أن أرد على هذه النظرة الصارمة · لانى لم يسبق لى أن اشتغلت في كاميلجاريت وتمكنت من أن أرد على سؤاله وأنا رابط الجأش ·

وقال الكولونيل في شيء من التهكم : « على أية حال سوف يتبين لنا ان كنت صادقا فيما تقول » ثم أردف يقول : « وربما أنت لا تعلم أى منظمة هذه التي تعمل بها » ·

« لا · لست أدرى » ·

فأوضح لى الكولونيل بنفس اللهجة يقول : « هذه هى مقر رئاسة المخابرات المضادة « سميرش » التابعة للجبهة الاوكرانية الرابعة » ٠

وأثناء حديثه كان الرجل ينظر الى وجهى ليرى مدى تأثير كلماته ٠ ولاحظت أنه كان يتوقع أن يكون لحديثه هذا أثر على مشاعرى ٠ ولكنى حاولت أن أبقى ثابت الجنان ٠

وكنت أقصد فى أول الامر أن أتظاهر بالدهشة ٠ ولكنى أعرضت عن ذلك بعد أن أدركت حقيقة الموقف ٠ اذ لو بدا على وجهى أى تغيير لاعتقد الكولونيل انى أعرف شيئا عن سميرش ٠

وقال الكولونيل : « تذكر جيدا ان سميرش Smersh معناها Smert Shpionam — أى الموت للجواسيس ! » ٠

وبدت أمامى شخصية الرجل كاملة مهيبة وهو يلقى هذا البيان ٠ ولم أفهم تماما ما يقصده فحسب ٠ بل أيضا شعرت بأن كلماته تنفذ الى قرارة نفسى وتستولى على مشاعرى ٠

وأمام كل من الكولونيل والكابتن أمرت بان أوقع على ثلاث صور من بيان هذا نصه :

« أقرر وأتعهد هنا وفى أى مكان آخر ، وحتى تحت تهديد بالاعدام٠ بأنى لن أذكر شيئا مطلقا يتعلق بعملى فى مقر رئاسة المخابرات المضادة « سميرش » التابعة للجبهة الاوكرانية الرابعة ، وانى على يقين من انى اذا اخلفت وعدى هذا أكون عرضة لاقسى أنواع العقاب بما فيها العقوبة الكبرى — الموت بطلقات النار » ٠

وأدلى لى الميجر بنصيحة أبوية يقول فيها : « أنك اذا لجأت الى الهرب منا ٠ ومهما كانت الدولة الاجنبية التى تهرب اليها ٠ فسوف نسلم نسخة من هذه الاوراق الى منظمة المخابرات المضادة التابعة للدولة التى تلجأ اليها ٠ وهذا كفيل بالقضاء على حياتك على الفور » ٠

فشكرت الميجر على نصيحته هذه ، وفى قرارة نفسى كنت آمل أن هذه هى نهاية تلك الاجراءات التى لجأوا اليها بقصد ارهابى ٠ ولكن كان لابد من اجتياز عقبة أخرى ٠ وهى تصويرى صورة فتوغرافيه لارفاقها بملف أوراقى ٠

وكان المصور الفتوغرافي برتبة الرقيب . وكان له وجه قبيح يكاد يكون أقبح وجه انسان رأيته في حياتي ، وكانت عيناه تنمان عن الشر والاجرام . والتقط لي صورا جانبية وصورا كاملة . بيده الخشنة المكسوة بالشعر الغزير كان يحول رأسي من ناحية الى أخرى يمينا ويسارا . وشعرت بالغيظ ولكنى لم أقل شيئا .

ثم عهدت الى ادارة المستخدمين بوظيفة مترجم بالقسم الثالث من الادارة الثانية ،حيث تقدمت الى رئيس القسم وكان يدعى الرائد جريش. وكان رجلا قوي البنية متوسط العمر وله وجه مستدير عليه بعض نقع سمراء ، وكانت له عينان منتفختان صغيرتان . بينما كانت ترتسم على فمه ابتسامة توحي بالشك . وتلقى تحيتي بمثلها ثم أخذ يلقى على محاضرة حول حسن السير والسلوك ، وكانت تعليماته :

« لا تغادر المبنى دون علمى أو قبل أن أصرح لك بذلك مهما كان السبب . وتجنب الاختلاط بالسكان من المدنيين . وأود أن أحذرك من النساء بنوع خاص » .

وعندما قال جملته الاخيرة كان يغمز بعينه في مكر ودهاء . ثم واصل حديثه يقول :

« ولدينا في منظمتنا عدد كبير من النساء ، ولك أن تعبث معهن كما تشاء . ولكن حذار أن تختلط بغيرهن من سكان البلدة » .

وأخذت أصغى اليه منتبها فقد كان يتحدث بلهجة رسمية مما يستدعي الطاعة العمياء لتنفيذ الاوامر .

ثم قهقه الرائد ضاحكا . وفجأة تغيرت لهجته . وأصبح حديثه بصورة ودية وهو يقول : « نحن هنا قوم نتميز بالخشونة والقسوة والشجاعة . ولابد لك أن تتحلى بهذه الصفات . فاذا أساء اليك أحد . لا تتقدم الى بشكواك . بل عليك أن تسوى حسابك معه ، وعليك يا ولدى أن تراعي شئونك بنفسك . فليس لدينا هنا ممرضات للاهتمام بأمرك. ومن واجبك أن تقوم بتنظيف ملابسك واصلاحها وغير ذلك من الشئون البسيطة » .

وشعرت بما يشبه الصـداع بعد أن تلقيت هـذا الدرس وبعد أن أصغيت الى كل هذه التعليمات والارشادات • وأصبحت أتوقع مغادرة الميجر بفارغ الصبر • ولكن بدلا من ذلك أخذ يغمرني بعشرات الاسئلة حول حالتي في الحاضر والماضي • وكانت اجابتي مختصرة ودون عنـاية ظاهرة • ثم علمت فيما بعد أن الميجر كان مستجوبا من الدرجة الاولى • وأن موافقته ـ بعد هذا الاستجواب ـ كانت الخطوة الاخيرة •

واستمر حديثنا حتى الساعة العاشرة مساء حيث سمح لي بالانصراف وتوجهت الى غرفتي • واستلقيت على الفراش حيث كنت منهوك القوى • وبقيت كذلك مدة ساعة قبل أن أتمالك مشاعري واسيطر على أعصابي • ماذا أصنع الآن ؟ وماهي الطريقة التي أتبعها ؟ وقد ذكر ميجر جريشن ـ اسم المدينة حيث مقر مهمتنا ، وأخذت أفكر بينما كنت مسـتلقيا على الفراش فتبين لي أن V • لم يكن بعيدا عنا ، وكان ذلك سببا في اثارة مشاعري • وأدركت أنه لابد لي من رؤيتـه بأي ثمن قبل فوات الاوان •

ولاحت لي الفرصة في الليلة التالية • فقد سمح لي الميجر بالتجول في أنحاء المدينة • واتخذت كل الاحتياطات الممكنة قبل مغادرتي المبنى حيث كنا نقيم • ولم أجد صعوبة كبيرة في العثور على المنزل محل اقامته

وبعد محادثة قصيرة تلقيت التعليمات بأن أبقى في خدمة المخابرات المضادة ، وكان هذا هو قرار V • وبعد أن افترقنا عـدت الى مقر اقامتي بطريق آخر • وكان معنى هذا القرار هو أن أواصل اللعب بالنار، ولكن حياتي كلها ـ لغاية تلك اللحظة ـ كانت موهوبة لهذا النوع من القتال ضد البولشفيك •

وكانت المشكلة التالية هي كيف أتصرف داخل منظمة بوليس الدولة فاتضح لي أن أتصرف بصورة طبيعية • فلا أقول شيئا غير ما يقوله أي مواطن آخر من مواطني موكاشـيفو اذا كان في مثل موقفي ، وقررت ألا أتظاهر بالطاعة والحياء أكثر من اللازم فقد كان هذا مدعاة للاشتباه في أمري ، وفي الوقت ذاته كانت مظاهر زيادة حب الاستطلاع ممـا يؤدي الى خطر جسيم • وكما سمعت من V « سوف تتضح لك الامور في وقت قريب وسوف تتعرف على كل شيء كنت تسعى الى معرفته » •

وبعد بضعه أيام جاءني ميجر جريشن يقول أن أمامنا مهمات عديدة لابد من انجازها في هذا المكان ٠ ثم ابتسم قائلا : « وفي بعض الاحيان سوف نستمر في العمل طول الليل » ٠

وكنا نعلم أن ساعات العمل في هذا المقر تسير حسب النظام الآتى ٠

الافطار :
من الساعة السابعة الى الثامنة صباحا ٠

ساعات العمل :
من الثامنة الى وقت الظهر ٠

طعام الغداء :
من وقت الظهر الى الثالثة مساء ٠ بما في ذلك فترة للراحه ٠

ساعات العمل :
من الثالثة مساء الى العاشرة مساء ٠

طعام العشاء :
الساعة العاشرة مساء ٠

من بعد العشاء لغاية الواحدة صباحا : أعمال اضافية ٠

وفي صباح اليوم التالي في الساعه السابعة توجهت الى صالة الطعام وكانت زاخرة بالموائد المستطيلة والتى تغطيها المفارش ، وعلى كل مائدة كانت هناك شطائر من الخبز الابيض ٠ وكان هذا النوع من الخبز نادرا في أول عهدى بالخدمة ٠ ولكنه بدا متوافرا في غرفة الطعام ٠

وتسلل الى المكان مئات من التشـيك من أفراد الشرطة السرية . وكانت مظاهر التعب الشديد بادية على وجوههم ٠ ولا أثر للبهجة على محياهم ٠ ثم جلست في غرفة الطعام بقدر ما استطعت بينما ازداد دهشة من الموقف ، كما كنت آمل أن أعثر على فرد ينبض قلبه بالحرارة وتدل عيناه على الرغبة في الحديث ٠ ولكنى لم أجد ٠

واذا بفتاة عادية تدعى ماشا وتبدو عليها مظاهر الخوف · تقترب مني وتسألني أن كنت راضيا عن الطعام ·

وأجبتها بقولى : « بطبيعة الحال » ·

فأخذت تتلجلج فى الكلام وتقول : « نحن دائما نتناول طعاما شهيا· وعادة يتكون الطعام من أربع الى خمس وجبات · وانك لن تشعر بالجوع مطلقا » ·

وبعد أن عدت الى غرفتى بفترة قصيرة جاءنى من يدعى كابتن بوتايوف وفى يده بعض أوراق · وقال :

« ترجم هذه الاوراق الى اللغة الروسية » ·

فأومأت برأسى موافقا ثم سألته : « هل يستلزم الامر أن أترجم الى بعض لغات أخرى بجانب اللغة الروسية ؟ » وكان رده :

« بطبيعة الحال » وكان يدغم حرف الراء فى كلامه ·

ثم سألته : « وما هى هذه الاوراق التى تطلب منى ترجمتها الآن ؟ » فقال :

« هذه هى التعليمات التى صدرت أخيرا الى الخلايا المحلية من منظمة المتعاونين السلوفاك Glinkova Garda وقائمة بأسماء أعضائها · (وكانت هذه منظمة تجمع بين متعاونين من السلاف يعضدون نظام حكم تشكوسلوفاكيا) · وغادر الكابتن بعد ذلك ·

وبدأت فى دراسة الاوراق فوجدت أن كل صفحة عليها اشارة حمراء تدل على أن محتوياتها « سرية للغاية » · وراجعت القائمة التى كانت تشمل خلايا جلينكوفا جاردا في اقليم سالينوف · فتبين لى أن سميرش كانت تسير طبقا لخطة مرسومة ، ودهشت اذ علمت من الاوراق أنها لم تكن تهتم فقط بأنباء العدو · بل تعنى بتصرفات الفلاحين الذين أرغموا على العمل مع Glinkova Garda بسبب ما اقتضته الظروف والاوضاع ، وشعرت ــ بطبيعة الحال ــ بأنه من الافضل ألا أشغل

مالى بمثل هـذه الامور فى الوقت الحاضر ، فقد كنت أدرك ـ كأى فرد آخر ـ أن النظام السوفييتى لا يأخذ بأية نظريات لا تنطبق على مبادئه • ولا يعترف الا بعقائده التى تتزعزع • والتى كانت على أساس من المبادىء الدينية التى تقول : « ليسـت هنـاك عقـائد أو قوانين غير المبـادىء السوفييتية ، وأن الفرق بينها وبين لوائح الكنيسة هى أن هذه تجتذب اليها الافراد طبقا للنصوص الالهية ، وكان التشيك من أتباع السوفييت يرغمون القوم على قبول حقيقة مطلقة تنص على الاشتراكية والشيوعية دون مجادلة • ويستخدمون كل وسيلة لنشر هذه العقائد ، ومنذ فترة طويلة كان الحزب الشيوعى وهو اللسان الناطق بنظام السوفييت • يدرك أن الاشتراكية والشيوعية ليسـت قضايا سليمة لا شبهة فيهـا كالعقائد الدينية التى تسرى فى الكنائس والمعـابد ولذلك كانت فى حاجة الى مروجين ودعاة يسيرون طبقا لخطط موضوعة •

وكنت أعمل مع رجال من التشيك من جميع الطبقات • وكان رجال سميرش هم أفضل رجال التشـيك • وكانت مهمتهم محـو الاتجـاه الاوروبى حيث كان القوم لهم مذاهب مختلفة ولا يرغبون فى النظام السوفييتى • وكانت اجراءاتهم فى منتهى القسوة بحيث لا تدع مجالا للفشل أو الانفصال • فقد كان الفلاح البسيط ـ فى اقليم سالينوف مثلا ـ لا يفهم عقيدة منظمة المتعاونين أو النظام السوفييتى • ومع ذلك كان يعد عدوا محتملا • وكان يعد فى أول الامر من خصوم الشيوعية • ولم تكن تصفيته باعتباره من الاعداء فحسب ، بل أيضا لانه يعتبر مثالا سيئا لغيره من جيرانه المزارعين • وكان لابد من القضاء عليه لكى لا تكون هناك جذور لانتقاد حكومة السوفييت • ولكى لا تصبح هنـاك معارضة من أى نوع كان •

وقد تعلمنا فى عهد الدراسة أن الله اله حازم لا يرحم • ولكنه فى صورته هذه ليس هناك من شاهده أو كان هدفا لغضبه ونقمته ، كذلك ستالين يعد آلها قاسى القلب • ولكن الملايين من القوم شاهدوه • وكان الروس يعانون قسوته وغضبه • وظلوا كذلك أحقابا متتالية •

وربما اتخذت هذه الاجراءات فى جميع أنحاء أوروبا فى وقت قريب• وهناك عشرات الالوف من رجال سميرش يعملون لتحقيق هذا الغرض ، ويهاجمون الدول التى يحتلها الجيش الاحمر ، وهم أشبه شىء بالذئاب

الجائعة . ويقضون على أولئك الذين يتمسكون بأهداف الحرية والحق ، وأينما مرت جموعهم لن يتبقى هناك أثر للحرية . ولن يبقى سوى عبيد النظام السوفييتى .

وكلما كنت أفكر فى هذه الامور كنت أشعر بالذعر . وأتصور انى أصبحت أعيش وسط قوم فقدوا عقولهم ويعملون على تحويل هذا العالم الى سجون مغلقة ، وحتى فى قرارة نفسى كنت لا أستطيع ازاحة هذا الكابوس الجاثم فوق صدرى .

وربما كان ستالين قد تعلم من تاريخ القديس الاعظم فى مصر طريقة حكم الجماهير وكيف وصلت هذه الحكمة فى مصر الى القليلين ممن نالوا شرف الاختيار . وذلك لانه يحاول فى هذه الايام أن يخفى عن أنظار العالم وسائله الوحشية وظلمه للانسانية .

كذلك دار بخلدى انى أستطيع التفوق على أساليب ستالين الفنية . والتى أتاحت له ـ من بين أمور أخرى ـ الحصول على ١٠٠٪ من الاصوات فى كل انتخاب .

ولم يمض وقت طويل قبل أن تتاح لى الفرصة لمشاهدة خشونة رجال سميرش ، فقد رأيت عراكا بين ضابط من سميرش برتبة كابتن وبين جندى على وجهه آثار القتال وتقلبات الجو . وكان يبدو أنه قادم لتوه من الخطوط الامامية ، ونشبت بين الرجلين معركة حياة أو موت . كان الجندى أثناءها يوجه للكابتن الشتائم ويقول له : « أيها الثعبان الخطير الارقط ! أنت لا تعرف شيئا سوى أن تمتص دماء غيرك من القوم ! أيها الفرد الحقير من أفراد مقر القيادة ! » .

وكان الكابتن يحاول يائسا أن يتخلص من قبضة الجندى حول عنقه . ولكن الجندى كان حانقا عليه كما كان أقوى منه . وأخيرا أسرعت مجموعة من حراس سميرش لنجدة الكابتن الذى كان قد أشرف على انهلاك ، وكان الجندى ينظر اليه بعين الاحتقار والكراهية . فقد أعماه غضبه الشديد وسلب منه عقله حتى أقدم على مهاجمة أحد ضباط سميرش . ولابد أنه أصبح على يقين من مصيره ، فقد كانت القيادة هناك سريعة التصرف فى مثل هذه الشئون . ولابد للجندى من أن يدفع حياته ثمنا لتصرفاته وتهوره ...

* * *

٥

صرت من التشيك

فى اليوم التالى عندما كنت فى طريقى الى صالة الطعام لتناول وجبة العشاء واذا بى أجد سونيا لدى الباب ٠ واستقبلتنى بالتحية ثم قالت : « بودى لو أستطيع التحدث اليك يانيكولا : « ولاحظت أنها تشعر بشىء من الحرج ٠

فقلت لهـا : « ماذا جرى يا سـونيا ؟ وأجابت والقلق يبـدو على ملامحها :

« لست أدرى كيف أبدأ الحديث » ٠

وحينئذ اقترحت عليها أن تأتى الى غرفتى بعد تناول الطعام وهناك نستطيع الحديث ٠ فقد كانت تبدو كأن لديها شأن هام تريد أن تحدثنى عنه ٠وبعد الطعام أسرعت بالعودة الى غرفتى حيث أخفيت الاوراق السرية التى كانت مبعثرة فوق مكتبى ، وبعد بضع دقائق جاءت سونيا وجلست على أحد المقاعد ٠ ثم اشـعلت لفافة من التبغ ٠ وكانت تضطرب وهى ممسكة بعود الثقاب ٠ فسألتها :

« ماذا جرى يا سونيا ؟ » ٠

وسكتت الفتاة لحظة لا ترد على سؤالى ٠ وأخيرا قالت فجأة : « ياليتك تدرى كم أشعر بالضيق ، ولكن قد يكون من الافضل أن أحدثك فى وقت آخر » ٠ فقلت لها :

« كما تريدين ٠ وتذكرى أنك تسـتطيعين أن يكون حديثك معى بمنتهى الصراحة ٠ فاذا لم أسـتطع مسـاعدتك فان ذلك لن يضرك شيئا » ٠

فهمست تقول : « يبدو أنك لا تشاركني مشاعرى » وقلت لها :

« هذا ما يبدو فقط » ٠

فقالت فى شيء من التردد : « لا ٠ ليس الامر كذلك ٠ فانى سوف أحدثك فى الغد » ٠

واثناء حديثها كانت كثيرة الحركة فى مقعدها ٠ وكانت تنفث الدخان من سيجارتها بما يدل على أنها مبتدئة فى التدخين ٠ وبعد أن سكتت لحظة سألتنى :

« هل تستطيع مساعدتى يا نيكولا ؟ » ٠

« بكل سرور ٠٠٠ » وترددت مرة أخرى ثم قالت « لا أستطيع أن أوضح لك أمرى » ٠

وأخذت أعجب من هذا التصرف ولكنى لم أقل شيئا ٠ اذ رأيتها تتحول نحو النافذة وتطل منها ٠ ثم تقول وهى تنظر حولها : « الضباط يطاردوننى فى كل مكان ، وانى أشعر بأنى سوف لا أستطيع مقاومتهم أن عاجلا أو آجلا ، فهل تستطيع أن تتظاهر أمامهم بأنى خطيبتك ، فان ذلك قد يوقفهم عند حدهم » ٠

وهكذا كان ما يقلق بال الفتاة ٠ وكنت على يقين من أنها كانت مخلصة فى حديثها ٠ ولم يقبل ضميرى أن أتخلى عن مساعدة فتاة لا معين لها ٠ كما كنت أعلم من قبل أن سونيا لم تكن راضية عن تلك المعاملة الخشنة التى كانت تلقاها من رجال سميرش ٠ وعلى ذلك كان وعدى لها أن قلت : « سوف أحاول يا سونيا » ٠

وهنا بدت عليها مظاهر الارتياح ٠ وخرجت مسرعة بعد أن أعربت عن شكرها وتقديرها لمساعدتى لها ، وكانت تحاول أن تخفى دموع الفرح فى عينيها ، وأخذت أتعجب كيف تكون نهاية هذه القصة ٠ وهل تظل سونيا محتفظة بتقاليدها أم سوف تتخلى عنها ، فان هذا العمل فى المخابرات المضادة لابد أن يكون له أثر على طباعها واخلاقها ٠ وأخذ يساورنى الشك أن كانت تستطيع المقاومة ٠ حتى أن ميدوفى ــ وهو من أقوى رجال مجموعتنا ٠ اعترف لى أنه لا يستطيع مقاومة رجال سميرش وهم قوم غلاظ القلوب ٠ لا يعرفون معنى الشفقة ٠

ولم تتمتع بملذات الحياة سوى تلك الفتاة ايفا · فقد التف حولها جمع من الاصدقاء ،وكنت أراقبها أثناء وجبات الطعام، وألاحظ ضحكاتها العالية وهى تدخن سيجارة تلو الاخرى · كما اتخذها رجال سميرش صديقة لهم ·

وفي ذات ليلة علمنا أن مقر القيادة سوف ينقل الى مكان آخر فى صباح اليوم التالى · وكان المقر الجديد سرا لا يعلمه سوى الرؤساء من الضباط ·

ولم يستغرق النقل الى سايتوف وقتا طويلا ، وهناك لم أستطع أن أوجه اللوم الى سكان المدينة وهم يصبون اللعنات على سميرش ويستنكرون كل شيء يتعلق بها · فقد كان رجال الشرطة السرية يتجولون فى أنحاء المدينة ويخرجون القوم من ديارهم ، وتسلمت غرفة صغيرة بجوار مبنى القيادة · وكانت غرفتى مجاورة لمسكن ضابطين هما النقيب يوثابوف والرائد جراشين ·

وأول من قابلت فى سابينوف كانت فتاة جذابة الملامح تدعى جاليا· وكانت رئيسة مباحث القسم الرابع ، وكانت الفتاة جميلة رشيقة ولها شعر ذهبى لامع · كما كان لها عينان زرقاوتان وشفتان رقيقتان · وكان جسمها متناسقا · ملتفة الساقين · صغيرة القدمين · ذات خصر نحيل وصدر بارز · وعنق جميل يستلفت الانظار ·

وكان الناظر اليها يخيل اليه أنها شذبة من أصل عريض ، ولكن كان حديثها كما لو كانت من حثالة القوم ، ففى كثير من الاحيان كنت استقل معها سيارة قديمة للتجول فى المنطقة ، وكلما تعطلت السيارة كانت تسب وتلعن وتستخدم الفاظا نابية ، وكانت لغتها بذيئة لم أسمع بمثلها من قبل من أى شخص · فما بالك اذا صدر ذلك من امرأة ، وظننت أن صديقى القديم الرقيب ليونكا ـ وهو المعروف بألفاظه الجارحة · كان يستطيع أن يتعلم شيئا كثيرا فى هذا الصدد من صاحبتى الجميلة · ولم أكن أتوقع أن أجد معى غادة هيفاء يكاد كلامها لا يخرج عن الاهانة والتجريح ·

ومن وقت لآخر كان يبدو على وجهها ملامح الغضب والضيق · وبخاصة عندما كانت تتعطل السيارة بالقرب من سابينوف · فكانت تتحول نحو السائق وتصرخ فى وجهه قائلة : « اذا تعطلت السيارة مرة أخرى فسوف أحطم أسنانك فى فمك » ·

وكان السائق عملاقا يكشر عن أنيابه ولكن لا يقول شيئا · وكانت تصرفاتها هذه تثير مشاعرى · فسألتها :

« هل تظنين حقا أن هذا التصرف يليق بك ؟ » ·

ولم ترد على سؤالى بل أخذت تنظر الى وجهى شذرا وتضم شفتيها ، وكنت أضحك فى سرى وأعجب ماذا تستطيع أن تفعل هذه الفتاة الرشيقة مع مثل هذا السائق العملاق · وأخيرا قالت محتدة : « يبدو أنك لم تعرفنى بعد » ·

فأحدقت النظر فى وجهها لاول مرة · ولم أستطع التوفيق بين ما رأيته وبين ما سمعته منها ، فقد تبينت مدى غزارة رموش عينيها · وتألق ملامحها · وقوة شخصيتها بالرغم من أنها لم تكن سوى فتاة · وكان ردى عليها فى شىء من الخشونة :

« أنا لا أهتم بذلك أيضا » ·

وبدا لى أنها لم تكن تتوقع مثل هذا الرد · فأخذت تحدق نظرها فى وجهى كما لو كانت تريد أن تقول شيئا آخر · ولكنها لزمت الصمت حتى غادرنا السيارة ودخلنا مقر القيادة ·

وفى صباح اليوم التالى · بينما كنت أتناول طعام الافطار مع النقيب بانايوف علمت منه أن جاليا كانت معروفة بحدة الطبع وشذوذ الاخلاق بين أفراد المباحث فى القسم الرابع ، ولما سمعت ذلك قررت أن أقف على حقيقة أمرها ودهشت عندما أدركت السبب الذى دعاها لان تتخذ موقف الحزم والشدة ·

وبعد بضعة أيام أمرنى ميجر جريشن بأن أتوجه الى كابتن شوارتر من ضباط القسم الرابع · فدخلت الى مكتبه وكان يشغل غرفة صغيرة فى الطابق الثانى من مقر القيادة · وكان جالسا الى مكتبه فبادرنى بالتحية قائلا :

« أجلس أيها الرفيق المترجم » ·

ونظر نحو الباب ينادى تابعه ويقول : « احضر لى الغلام السلوفاكى » ٠

فلاحظت أن الكابتن كان يبدو فى لهجة كما لو كان جزارا ، فقد كان ضخم الجسم مكتنز الوجه ٠ وتبدو على عينيه آثار التعب والاجهاد ٠ وكان صوته عميقا له طابع الخشونة ٠ بينما كان يمسك فى يده عصاة قصيرة من المطاط ٠

وفتح التابع الباب دون استئذان ٠ ودفع الى الغرفة غلاما يحنى قامته ٠ فأيقنت أنه هو الشخص المطلوب ٠ وكان يبلغ من العمر حوالى السنة عشر عاما ٠ كما كان ضعيفا يبدو أنه فى حاجة الى الطعام ، وكانت عيناه زائغتين لا يكاد يرى ما أمامه ٠ كذلك كان رث الثياب وحذاؤه ممزقا ٠ وأخذ يترنح حيث سقط على الارض بجانب مقعدى ، وفاحت منه رائحة أشبه ما تكون رائحة الحيوان ، واختلطت حبات العرق على وجهه بما عليه من القذارة ٠ وعندما رفع رأسه ونظر الى وجه الكابتن بدا أنه يدرك ما سوف يحدث له ٠ فأخذ يرتعد بصورة واضحة ٠

وهنا زمجر الكابتن وأمره قائلا : « اجلس هناك » ٠

فحاول الغلام بكل ما استطاع من قوة حتى وصل الى مقعد فى نهاية الغرفة وجلس عليه بينما كان لا يزال ينتفض من الخوف ٠ وأخذ ينظر الى أرض الغرفة ٠

ولست أعتقد أن أى كاتب فى هذا العالم يستطيع أن يصف ما رأيته خلال فترة استجواب هذا الغلام ٠ فقد وقف الكابتن ـ ودون أن ينطق بكلمة ـ توجه نحو الغلام وأخذ يضربه بكل ما أوتى من قوة ٠ ويواصل الضرب حتى ظننت أنه يقصد قتل السجين فى النهاية ٠

وأما الشاب فقد تحول لون وجهه الشاحب الى اللون الازرق ٠ وما لبث أن سقط من مقعده على الارض ٠ وأخذ جسده يختلج من عنف اللطمات ٠ كما لاحظت أنه يحاول جاهدا أن يركع على ركبتيه أمام الكابتن ، وأخذ يبكى بكاءا مرا وهو يطلب منه الرحمة والشفقة ، ثم انى سبق لى أن شاهدت مواقف مؤلمة كثيرا فى مجرى حياتى ٠ فقد قضيت فترة فى ستة من سجون الجستابو ، ولكنى لم أشاهد موقفا يبعث على الفزع مثل ما رأيته هنا ٠ مما كاد يصيبنى بالهذيان ٠

وتقدم الشاب وهو يكاد يعانى سكرات الموت فقبل أقدام الضابط السوفييتى وأخذ ينتحب ويتوسل اليه أن يرحمه ، وكنت أرقب وجه الضابط فلم أر عليه أثر للرحمة أو الشفقة · ولم أر سوى مظاهر البغض ترتسم على وجهه وهو يقول :

« انهض أيها الحقير وأجب على أسئلتى · سوف ألقنك درسا » ·

وحاول الغلام أن ينهض ولكنه لم يستطع · ولاحظت أنه لا يزال يتمسك بخيط رفيع من الامل فى رحمة الكابتن ، ولكنه لم يجد الى ذلك سبيلا · فقد أخذ الكابتن يضربه حتى أفقده الوعى ، واعتقدت أن الغلام اما أن يموت أو على الاقل يصاب بالجنون ، ولكنى وجدت أنه لا يزال يعانى آلام الضرب ويتقلب على الارض ويجول بعيون زائغة فى أنحاء الغرفة · وفى اعتقادى أنه لم يكن يرى شيئا ·

وبعد أن استجدى شربة ماء · فقد وعيه مرة أخرى واستلقى على الارض أشبه شىء بجثة لا حراك بها ، فنهض النقيب وركله بقدمه فى وجهه ثلاث أو أربع مرات · ثم صاح ينادى تابعه ويقول له : « خذ هذا من هنا وألقه بعيدا » ·

وسحب التابع جثة الغلام · وحينئذ ضحك النقيب وهو يقول :

« ليذهب الى الجحيم · فقد علمت منه كل شىء على أية حال · وفى الغد سوف أطلق عليه الرصاص » · ثم أخذ الكابتن يتثاءب دون اكتراث ·

وهنا اعتذرت للكابتن والتمست الانصراف ثم أسرعت بمغادرة الغرفة · وكانت صرخات الشاب لا تزال ترن فى أذنى وتثير أعصابى · وشكرت الله فى سرى على أنى لم أعين فى قسم المباحث · كما دعوت الله أن يمدنى بعون منه لكى أستطيع مقاومة مظاهر الرعب والوحشية السائدة فى سميرش · ودعوته تعالى أن يهبنى قوة أستعين بها على اجتياز هذه الاهوال ــ أهوال الموت ــ وأخرج منها غير مخضب بالدماء ·

ومكثت ليلتين لا أذوق طعم النوم الهادىء · ولا أستطيع أن أنسى هذا الغلام وما جرى له من العذاب ·

٦

سميرش

كانت هذه تجربة من عدة تجارب مررت بها . كما عرفت كثيرا عن منظمة سميرش وأدركت أن هذه المنظمة ـ المخابرات المضادة ـ كانت تنقسم الى خمسة أقسام :

وكان الاول يتصل بالجبهة مباشرة . وتنحصر مهمته الاساسية في مراقبة الاتجاهات السياسية بين صفوف الجيش الاحمر . فلم تكن هناك مجموعة أو فصيلة أو فرقة ليس بها عملاء من سميرش . التى كانت أشبه شيء بعنكبوت هائل ينشر خيوطه حول جبهة أوكرانيا بأكملها ، وترتكز الخيوط على نظام من العملاء والمخبرين والجواسيس وعلى مايكتبونه من تقارير الى الاتحاد السوفييتي الذى لا يثق بأى شيء سوى أعضائه ، وعلمت من هذا القسم أن ليس من حرج على رجل الجيش الاحمر أن يسفك الدماء أو يقوم بأعمال النهب والسلب . وهو يعلم أن السكان المدنيين كلهم تحت رحمته ، كما كان يزود دائما بفيض من المقالات يكتبها ذلك الصحفى السوفييتى والمشهور بالتهور « **اليا اهرنبرج** » والذى كان أداة طيعة فى أيدى ستالين ، وعلمت أن مهمة هذا الرجل كانت تنحصر فى اغراء رجال الجيش الاحمر .

وكان **اهرنبرج** نفسه يفتخر دائما بأن بين السطور التى كان يكتبها للجيش الاحمر يستطيع الانسان أن يقرأ أوامر صادرة بمواصلة القتل وسفك الدماء . وكانت مقالاته بمثابة سم زعاف لمن يعرف حقيقة ما يجرى فى روسيا .

واذا حدث أن أى فرد من أفراد الجيش الاحمر نطق بكلمة واحدة ينتقد بها حكومة السوفييت أو الحزب الشيوعى أوحتى المذهب الشيوعى . فان منظمة سميرش تبادر فى الحال بالقضاء عليه .

وعلمنا أن القسم الثانى كان مختصا بالعمليات • وكان هذا القسم فى الجبهة الرابعة فى أوكرانيا وعلى رأسه ضابط برتبة الكولونيل • وكان هذا الرجل على استعداد لبدء عملياته فى بضع ساعات بعد أن يحتل الجيش الاحمر أى بقعة من الارض •

وكانت أول خطوة يتخذها قسم العمليات فى سميرش هى اعتقال جميع أعداء النظام السوفييتى ، وكانت هذه الاجراءات تشمل كل زعيم حزب سياسى يعارض الشيوعية ففى المجر كان هناك حزب Nilosh • وفى تشكوسلوفاكيا كان هناك الحزب الوطنى Glinkova Garda والهيئة التعاونية التى كانت تعمل مع النازيين ، وفى بولندة كان هناك حزب Armia Krayova ، وهو الحزب السرى المعادى للنازى ، وفى ألمانيا ذاتها كان هناك الحزب النازى فى ذلك العهد ، وأينما كانت هذه الاحزاب ومهما كان زعماؤها فقد كانت كلها تعد من خصوم الاتحــاد السوفييتى على حد سواء •

وكانت الاوامر الصادرة لرجال سـميرش تنص على اعتقــال جميع العناصر الفعالة فى أى حزب ديمقراطى • كما كانت تقتضى عدم الثقة فى أى فرد كان • وكان رجال سميرش لا يثقون حتى بالاحزاب الشيوعية الاجنبية ، وكان اللاجئون والمهاجرون من الروس يعتبرون من الخصوم فى نظر منظمة سميرش • فقد كان لحكومة السوفييت معهم حســابات قديمة فى حاجة الى التسوية •

وأصبحت أشعر بأن لدى معلومات كثيرةعن اتجاهات معظم المهاجرين من الروس • وخلال فترة الحرب وبعد بضعة أشهر من تسليم ألمانيــا كانوا يعلقون آمالهم على الاتحاد السوفييتى، وكثيرون منهم كانوا يتوقعون أن ترحب بهم روسيا الصديقة •

كذلك كنت أسمع فى غالب الاحيان أن ستالين قد أنقذ روســيا ، ولكن ما أشد ما كان هذا الاتجاه يدل على الغباء • فان هؤلاء البسطاء من الرجال والنساء لم يدركوا حقيقــة مصيرهم والى أين هم مســوقون ، وأصبحت على يقين من أن الآلاف من عملاء سميرش ــ أولئك الوحوش الآدميين ــ سوف ينقضون على هؤلاء النــادمين من المهاجرين المســاكين فيلحقون بهم الهلاك والدمار • ولن يكون هناك مجال للصفح أو المغفرة •

وخلال فترة خدمتى فى الشرطة السرية اتضح لى أن حياة النظام السوفييتى كانت تتوقف على الرجال المخلصين له ـ رجال سميرش الذين خلت قلوبهم من العاطفة أو الرحمة · والذين لم يعرفوا سادة لهم سوى دولة السوفييت ، وكان الخطأ البسيط يضاعف آلاف المرات · ولن يكون جزاؤه سوى الموت · وكان هذا هو المبدأ الذى تسير عليه عمليات سميرش ·

كما اقتنعت بأن عميل سميرش لم يكن فى استطاعته أن يضع ثقته فى أى مخلوق من البشر · وأن وجهة نظره هى أن أى فرد يحوم حوله أى ظل من الشك لابد من اعتباره أنه ارتكب جريمة ضد الاتحاد السوفييتى · ولابد أن يكون جزاؤه الاعدام ·

وبعد الحرب كانت مأساة كبرى بالنسبة لاولئك المهاجرين الروس · الذين حاولوا التوفيق بينهم وبين ستالين · ولما علموا بما جرى فى سميرش من الاحداث تبين لهم أن الاوان قد فات . ففى معسكرات الاعتقال فى كوليما وفى سيبيريا وفى المناطق المتجمدة فى اتشتورا Ust-Petchora أو فى صحراء القرغيز التركستان · علمت أن الكثيرين من مهاجرى الروس كانوا يلعنون اليوم حيث جاءوا الى هذه الحياة الدنيا ·

واما القسم الثالث من سميرش فكان القسم الادارى · ولم أستطع أن أعرف عن هذا القسم الا قليلا · فقد كان يتصل مباشرة ـ وبصفة سرية ـ بالقيادة الرئيسية للمخابرات المضادة فى منطقة سميرش · وكان مقرها دائما فى موسكو ·

وكل فرد منا ممن كانوا يعملون فى الجبهة الاوكرانية الرابعه · كان يعلم أن رجال المباحث كانوا يجمعون المعلومات ليلا ونهارا ويرسلون بها برقيات سرية الى اباكوموف القائد العام للقيادة المركزية ، وفى اعتقادى أن هذه المنظمة بلغت من الضخامة الى حد كبير · اذ كانت المعلومات تتدفق على مقر الرئاسة من كل جبهة · ومن فروع سميرش الملحقة بكل هيئة عسكرية فى روسيا ، ومن مراكز الجاسوسية المنتشرة فى كل ناحية فى الخارج ، وكانت الجبهة الرابعة مركزا لتلقى جميع المعلومات التى كانت الرئاسة تتولى تنسيقها وترسل التوجيهات اللازمة

الى كل جبهة مختصة ،كما كانت تصل الاوامر الى الاقسام الملحقة بالمناطق العسكرية فى روسيا • والى كل مركز من مراكز الجاسوسية السوفييتية فى الخارج – فى أوروبا وفى نصف الكرة الغربى •

وبالرغم من انى كنت أشعر بأنى فى أمان نسبيا لان مهمتى كانت مقصورة على الترجمة • الا انى كنت أعيش – من وراء ستار – فى ذعر مستمر • وأخشى أن يدرج اسمى فى يوم من الايام • فى قائمة تشتمل على أعداء حكومة السوفييت • وكنت أعجب ماذا يقول القائد الاعلى اباكوموف لو حدث مثل هذا الامر ، كما كنت أعرف النتيجة ، ولكننى فضلت أن أبعدها من تفكيرى فى مثل هذه الظروف •

وقمت بجمع بعض مقتطفات من المعلومات حول مقر القيادة المركزية مما يكفى للدلالة على أنها كانت أعظم شبكة تستلفت أنظار العالم • وربما لم يكن لها نظير فى سجلات التاريخ ، ولابد أن هناك حقائق بالغة الاهمية وتضمها السجلات فى موسكو • وجال بذهنى أن هذا هو المكان الذى يجب الوصول اليه ، كما تصورت أنه اذا كان لابد لى من المخاطرة بحياتى • فالاولى بى أن أخاطر بها فى موسكو من أجل شىء يستحق التضحية •

وكان القسم الرابع فى مقر رئاستنا هو قسم المباحث • حيث كانت الرواسب من المعلومات – حقيقية أو خيالية – تستخرج من عقول الناس رغما عنهم • وعلمت من الرائد جراشن – بعد أن أصبحت على صلة وثيقة به – بأن هناك حالات كان يستمر استجواب الشخص لمدة ثلاثة أشهر دون انقطاع ، كذلك تمكنت سميرش من تطوير فن الاستجواب الى أقصى حدود الكمال ، وكثيرا ما كنت أسمع الرائد يقول : « **ليس هناك رجل مذنب ولديه معلومات نافعة لها قيمتها • يستطيع مجابهة الاستجواب دون أن يعترف بذنبه ويفضى بما لديه من المعلومات •**

ورضيت بهذه المهمة بعد أن لاحظت أن كثيرا من عملاء سميرش يؤدون واجباتهم عن طيب خاطر وعلى أدق نظام • وبعد أن شاهدت رجالا يستجوبون لمدة أسابيع – ساعة بعد الاخرى ليلا ونهارا • ولم تتوقف الاسئلة الا أثناء فترات الضرب المبرح • ولم يكن هناك مذنب يستطيع المقاومة أو البقاء على قيد الحياة •

وكان القسم الخامس هو قسم الاتهام • ويضم مجموعات تتألف كل منها من ثلاث رجال يكونون الهيئة الثلاثية فى المحاكم العسكرية •

وكنت الاحظ المحاكمات السياسية والمحاكم العسكرية حيث كان السوفييت يسيرون على نظام القضاة الثلاثة الذين يصدرون الحكم على كل ضحية ، وكان كل قاض خبيرا فى مهمته • فلم يصدر أحد منهم حكما سوى اطلاق النار أو السجن مدى الحياة • أو عندما يريد تخفيف الحكم على المتهم فانه يصدر حكما بالسجن لمدة خمسة عشر عاما فى سيبيريا •

وكان القضاة يصدرون أحكامهم طبقا للمعلومات التى كانت تصل اليهم من القسم الرابع •

وكانت ادارة المستخدمين تحت اشراف لفتننت كولونيلجوريتشيف وكانت مهمتها الاساسية هى مراقبة رجال سميرش بصورة مستمرة •

وأما القسم المالى فكانت مهمته صرف المرتبات : وكان مرتبى ألف وخمسمائة روبل فى الشهر فضلا عن الطعام والملابس والسجائر •

ولغاية الآن كنت سعيد الحظ • فقد أصبحت موضع ثقه فى جميع فروع سميرش • كما أدركت أن هذه المنظمة قد قبلتنى عن طيب خاطر •



٧

الموت للجواسيس

في أواخر يناير سنة ١٩٤٥ انتقلت منظمتنا مرة أخرى • وفي هذه المرة كان النقل الى كوشيتزى في بولندة • وكانت مهمتي في مبنى القيادة تتعلق بمجموعة العمليات التي يرأسها الرائد بوتابوف • وكان العمل هناك كثيرا ومتنوعا • مثلا كانت مهمتي تقتضي مساعدة كابتن شيبايلوف في الوقوف على مدى اخلاص موظفي مكتب البريد في كوشيتزى ، وكان الكابتن لديه أوامر لكشف الستار عن أى فرد يتسلم برقيات سرية وعمن يتسلمها منه خلال فترة الاحتلال المجرى من وقت قريب ، وشرع في مهمته هذه بأن وضع مجموعة من عملائه داخل ادارة البريد • وكان هؤلاء لديهم أوامر للتبليغ عن كل أنواع نشاط غيرهم من الموظفين • وكانوا يعلمون أن مخالفة الاوامر ليس لها جزاء سوى الموت • وكان القصد من ذلك هو معرفة كل شيء حدث خلال الاحتلال المجرى • وعلى الاخص ما كان معاديا للاتحاد السوفييتي •

ولفترة من الوقت كانت المدينة البولندية تحتلها قيادة الجيش المجرى الثامن ، وكان الغرض من ارسال مجموعة الرائد يابانوف هو مساعدة عملاء مخابرات الجيش الاحمر لتوحيد الجهود للقضاء على جواسيس المجر ، فكنا نعمل ليلا ونهارا وكانت ممرات المبنى جميعها تحت حراسة رجال من سميرش •

وكانت مخابرات الجيش الاحمر أشبه شيء بخلية النحل ويقوم أفرادها بأعمال القسوة والتعذيب • وكنت كلما سرت في أروقة المبنى كنت أسمع الصيحات والصرخات والتأوهات واللعنات تتسرب من خلال الابواب •

وذات يوم تناولت طعام الغذاء مع ضابط برتبة النقيب • حيث أخذ يصف لي مغامراته مع مجموعة من عملاء سميرش ، وكان أحد أفراد مجموعة هبطت بالمظلات في مؤخرة الجيوش الالمانية في سلوفاكيا ، وكانت المجموعة

مرسلة لتأدية مهمة مباشرة بأمر من مقر القيادة المركزية لـ NKVD في موسكو · وكانت الاوامر تقضي بعدم الاشتراك في القتال ، وعليها أن تتصل بمجموعات الجاسوسية في كل من سلوفاكيا وبراتسلافيا وبراج·

وبينما كان النقيب يواصل حديثه واذا بضابط آخر يقاطعه ويذكر لنا كيف كانت زيارته لوزارة الداخلية في سلوفاكيا وكان يقوم بمهمة مماثلة ، فقال تصوروا أن براتسلافيا مزدحمة بالالمان ، وأن أبواب الوزارات عليها حراسة مشددة يقوم بها أفراد الشرطة من السلوفاك · وكنت أحاول الدخول ومعي خطاب سري في أحد جيوبي ·

وأخذ يتحدث عن مغامراته في شيء من الاسهاب بينما كنت أصغي اليه وأنا أشعر بالذعر بسبب تلك العمليات التي كانت تقوم بها منظمة سميرش في صمت وفي غاية من الدقة والاحكام ·

وكان كل من الضابطين يتحدث عن جواسيس السوفييت وكيف كانوا يعملون في الوزارات التي كانت تحت مباشرة رئيس حكومة سلوفاكيا خلال فترة الاحتلال النازي ، كما كان حديثهما حول جواسيس الجيش الاحمر داخل مبنى وزارة الداخلية ذاتها ، وحول الاجتماعات السرية التي كانت تعقد هناك وغير هذا من القصص التي تعد ضربا من الخيال ·

وذات مساء في الساعة السادسة توجهت لمباشرة عملي بوصفي مترجما لكابتن شيبالوف · فطلب مني ترجمة التقارير التي وصلت اليه من العملاء ثم مرافقة من يدعى النقيب شابيرو وكان على موعد سري ·

وأرسلني شابيرو مع ضابط في الجيش الاحمر يدعى كبتن سيكالتكو وكان على رأس حملة أعدتها منظمة NKVD لاعتقال جاسوسة مجرية حسناء وكانت تعرف باسم « هيلين الجميلة » · وقيل أنها كانت تختفي في أحدى القرى على مسافة بضع دقائق بالسيارة في الجنوب من كوشتزي· ثم كانت الحملة مصيرها الفشل فلم يكن هناك أثر للجاسوسة الحسناء ·

وفي طريق عودتنا الى المدينة كان النقيب ساخطا على مخبريه بسبب تقديمهم معلومات خاطئة ، وكان يعبر عن شعوره بالضيق ويقول : « مما يدعو للأسف أننا لم نعثر على هذه المرأة ، استمع الى أوصافها · « وأخرج من محفظته ورقة وأخذ يقرأ بها : « هيلين امرأة ذات جمال ملحوظ · أتمت

دراستها فى مدرسة المخابرات التابعة لادارة المخابرات المضادة الالمانية فى بريستيشسيفو • تمكنت من التسلل الى مجموعة الانصار » • ثم تجاوز بضعة أسطر وقال : « هذا كله لا يجدى شيئا » وعاد الى قراءة الورقة وهو يقـول : « هنـا أمر على جانب من الاهميـة : فهى تنحـدر من أسرة من الاشراف • ولديها لقب كونتس • من عهد ولادتها » •

وغمز سيكاليكو بعينه وهو يقول ضاحكا : « هل فهمت هذا ؟ هى كونتس من الاشراف منذ ولادتها » •

وكانت عودتنا الى كوشيتزى فى سيارة مكشوفة حيث أصبت بشيء من البرد ، حتى اذا وصلنا الى مقر القيادة كنت أرتعد من الحمى ، ولاحظ النقيب ما بدا على وجهى من أعراض المرض • فأمرنى بالتزام الفراش على الفـور •

ولزمت الفراش طيلة اليوم التالى بالرغم من اعتراض ضباط سميرش الذين كانوا فى أشد الحاجة الى مساعدتى لهم ، وضقت ذرعا بمـلازمتى الفراش طول اليوم ، ولكن ذلك كان أفضل بكثير من التجول فى أنحـاء المنطقة نهارا ثم العمل مع هيئة الاستجواب طول الليل •

وبالرغم من الحمى التى كانت لا تزال تؤلمنى من وقت لآخر • فقد عهد الى بالعمل مع كابتن شيبالوف الذى كان قد بدأ فى استجواب « بطـل المجر » •وكان هذا من بين موظفى مكتب البريد فى كوشيترى ونال أوسمة لما أبداه من الشجاعة ضد المجر فى الجبهة الشرقية سنة ١٩٤٢ ، كما نال وسام القلادة الذهبية • وكتبت صحف المجر قصـة حول ما قام به من أعمال البطولة • وكانت القصة بعنوان « صغار القوم ـ من كبار الابطال ، ثم وقع هذا المقال فى أيدى رجال NKVD • وكان به وصف لما امتاز به هذا البيروقراطى الصغير من شجـاعة واقدام ، وأنه عاد الى وطنـه والى وظيفته فى ادارة البريد ، وحدث أن قام أحد الشيوعيين ممن كانوا يعملون مع البطل فى ادارة البريد • بابلاغ أمره الى منظمة سميرش وأنه يحمل فى محفظته مقتطفات من هذه الصحف ، وفى الساعة الرابعة صباحا قام عملاء سميرش باعتقاله •

وكنت حاضرا مع الكابتن لأداء مهمة الترجمة عند ما بدأ فى الاستجواب فاتخذ المجرى موقف العناد وأنكر كل شيء نشرته الصحف •

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى دخل جنرال كوفالشوك غرفة التحقيق ليلقى نظرة على المتهم المجرى بعد أن علم بموضوع القضية. فحياه النقيب شيبالوف وأبلغه أن الاستجواب يسير فى مجراه طبقا للخطة الموضوعة . وكانت هذه هى أول مرة أرى فيها الجنرال كوفالشوك رئيس مخابرات سميرش المضادة والتابعة لجبهة أوكرانيا الرابعة ، وسبق أن سمعت عملاءه يتحدثون عنه كثيرا . ويعجب المخلصون منهم بمدى ذكائه ويخشون بأسه ونفوذه فى الدوائر التشيكية العليا .

وسبق لهذا الجنرال أن أخمد ثورة سيبيريا التى قام بها سيمانوف خلال الحرب المدنية ، وتمكن من ابادة الرجال الذين حاولوا القيام بثورة مضادة فى روسيا عقب الحرب بفترة قصيرة، كما سبق أن كان يعمل مباشرة تحت عدة رؤساء من وزارة الداخلية . وكان موضع ثقة تامة من ستالين الذى لم يساوره الشك فى أمره مطلقا ، كذلك أولئك الآلهة الذين يحكمون فى الكرملين ، كذلك كان قائدا له ضمير ملوث بدماء الالوف من الروس وغيرهم من مواطنى الدول الاخرى . وكان هذا الرجل يقف فى مواجهتى فى غرفة التحقيق .

وكان يحدق النظر بالرجل المجرى بعينيه النافذتين . ولاول مرة أخذت أرقب هذا الرجل النحيل الجسم المتوسط القامة ، وكانت ملامحه تبدو فى عينيه وابتسامته الساخرة . فقد كان كوفالشوك من صميم قادة التشيك .

ثم وجه حديثه الى قائلا : « سل هذا الرجل أن كان فى المجر أبطال كثيرون ؟ » وكان حديثه فى لهجة ودية . فحولت السؤال الى المتهم الذى كان جافا فى رده وهو يقول :

« لست أدرى » .

وهنا بدت على وجه الجنرال مظاهر الغضب الشديد . فشعرت بالذعر يملأ قلبى . اذ بدت شخصية الجنرال الحقيقية وما كان يخفيه بتظاهره بالبرود بينما كانت جوانحه تنطوى على العنف والشر .

وقال يخاطب الكابتن : « أيها الرفيق الكابتن . لا تضيع معه وقتا أكثر من ذلك » . وكان حديثه بلهجة عادية بعد أن استعاد هدوءه وحالته

الطبيعية · ثم أمر بايقاف التحقيق قائلا : « أن بطلكم هذا لا يزال شابا قويا · وأن عشرين سنة فى أحد معسكرات العمل الشاق فى سيبيريا لكفيلة بكسر حدة عناده وتصميمه » ·

ثم التفت الى يقول : « سمعت بأنك كنت مريضا · ولذلك اقترح أن تذهب لتستجم وتأخذ حماما ساخنا · لكى تسرى حرارة البخار فى عظامك · وهذا هو أفضل علاج مضاد للحمى » ·

وكان حديثه أقرب ما يكون من نصيحة أبوية يلقى بها وهو يبتسم ، وكان يبدو عليه أنه نسى أنه ـ منذ لحظة مضت ـ أصدر حكمه على انسان مثله بقضاء عشرين سنة فى ذل العبودية فى سيبيريا ـ ـ عشرين سنة من الموت جوعا ـ عشرين سنة يقضيها فى الصقيع والجليد بين أسوار معسكرات العبيد فى « تايجا » وهى غابات العصور الاولى فى شمال سيبيريا ·

ودهشت عند ما رأيت انسانا يستطيع أن يخفى روح الشر والوحشية وراء ستار من اللطف والوداعة ، فقد كان هذا القائد يمثل الاجرام بنصه وروحه وكان كاذبا فى كل ما يدعيه ، كما كان شيوعيا لحما ودما ، ويكره الرفاهية بأنواعها ، وسمعت أنه لم يتناول المسكرات أو يدخن أو كانت له مغامرات مع النساء طيلة حياته ·

وكان جدول أعماله اليومية كفيلا بالقضاء على حياة أى انسان عادى ، فقد كان يعمل ليلا ونهارا ، ونادرا ما كان يأوى الى فراشه قبل الساعة الرابعة صباحا · وفى اعتقاده أنه كغيره من محققى العصور الوسطى · كان مقتنعا بأن احتراق القوم فى النار باسم المسيح هو بمثابة تقديم قربان للآلهة ·

ولكن الانسانية لم تقبل هذا النوعمن الاستجواب اذ أنه يعتبر تفسيرا زائفا لفلسفة المسيح · كما تقضى الانسانية أن تنتشر المبادىء المسيحية بين البشر بواسطة النشرات الدينية والقاء المواعظ ـ وليس بطريق العنف وبث الارهاب والذعر وسفك الدماء ·

وكان جنرال كوفالشوك يتعبد فى محراب العقائد الكاذبة والتى كان يعمل على نشرها رجال منحرفون ، وكان المسيح بريئا من هؤلاء جميعاومن

مبادئهم التى كانوا يتلقونها • ومع ذلك كان الجنرال يعتقد بأنه يقدم للانسانية خدمة جليلة • وباسم الشيوعية كان يقضى على حياة عشرات الالوف من بنى آدم ومن الذين لم يقبلوا مشاركته فى عقيدته ومبادئه •

ولو لم يعتنق هذه المبادىء كل من ستالين وكوفالشوك وغيرهما من المتعصبين للشيوعية لشعروا بالاختناق والغرق فى دماء الكتل البشرية التى أسالوها بأيديهم أو ربما أصيبوا بفقد عقولهم ، وليس هنـاك من يستطيع أن يتحمل تبعة هذا العمل الا من كان يؤمن بصـدق النزعات الشيوعية ، وكان كوفالشوك من عملاء ستالين وأخذ يسفك الدماء لأكثر من عشر سنين دون أن يكون له وازع من ضميره ودون أن يشعر بعذاب النفس الذى يحس به كل معتد أثيم •

واعتقدت حينذاك ــ وأعتقد الآن اعتقادا راسخا بأنه سوف يأتى يوم تتبرأ فيه الانسانية من طريقة ستالين فى حكم الشعوب ــ تلك الطريقة التى تقوم على أساس من العنف وعدم الثقة وانتشار الذعر وسفك الدماء وارتكاب عشرات الاغتيالات • ولم يكن لدى شك فى أن العالم الحر اذا لم يعمل للقضاء على هذه الحية الرقطاء من الشيوعية الحمراء • فسيصبح القوم ذات يوم ليجدوا أنفسهم وقد أصيبوا بالشلل عن طريق هذا السم الزعاف الذى سوف ينتشر فى أنحاء العالم المتمدين •

ومن الغريب أن النقيب شابيرو لم يكن يتحدث اللغة العبرية لغة قومه • وكنا كلنا نعرف أنه رجل مثقف نابه • فهو متخرج فى معهـد اللغـات الاجنبية فى خاركوف • وأتم دراسته فى مدرسة خاصة بالمخابرات المضادة فى مقر القيادة المركزية فى موسكو ، وجاء ذات مساء الى غرفتى لنتبادل أطراف الحديث • وبعد أن جلس فى مقعد مريح بدأ حديثه قائلا : « هل قضيت فى روسيا فترة من الوقت ؟ »

وكان جوابى : « كلا » •

فهز رأسه عجبا وقال : « حقا أنه شىء غريب » • فسألته :

« وكيف ذلك ؟ » • فقال :

« أنك اذا كنت تستطيع فقط التحدث باللغة الروسيـة فلن أعجب لذلك • ولكنك على دراية تامة حتى بالاصطلاحات اللغوية التى يعرفهـا الروس فى منطقة سمولنسك » •

ولم أحاول تغيير أسلوبى فى التغيير بالرغم من نظرة النقيب وهو يحاول اغرائى على الكلام • وقلت له :

«باعتبارك رجلا درس اللغات فأنت جدير بأن تقف على حقيقة معلوماتى » • فقال : « لغاية الآن على الاقل • لم أدرك حقيقة أمرك • وربما كان ذلك راجعا الى أنى لم أسبر غورك بعد » •

وقلت له : « الامر لا يعدو أن يكون بسيطا • فمنذ سنوات عندما كنت فى فجر العمر قررت أن أصبح من حملة الاقلام فى الكربات الروسيةوهذه المنطقة — وتسمى الآن « أوكرانيا عبر الكربات — لا تعرف آداب اللغة على الاطلاق • » وواصلت الحديث لكى أوضح الامر فقلت : « وأستطيع أن أقول أنه لغاية الآن لم يلجأ أحد من المؤلفين لدينا الى كتابة رواية واحدة • وكانت هذه الحقيقة المؤسفة مصدر قلق شديد فى أعماقى » •

وقاطعنى شابيرو يقول : « اذن أنت قررت كتابة الروايات » • فقلت له : « أجل • ولكنى واجهت صعوبات كبرى • فلم أعرف اللغة الروسية أو الاكرانية مما يتيح لى الوسيلة لتأدية هذه المهمة ، وكانت غرابة اللغة فى منطقتنا لا تشجع على تحقيق رغبتى • فقد كانت مشحونة بعدد كبير من الالفاظ الاجنبية وبخاصة الالفاظ المجرية ، ولما لم أكن ملما بقواعد اللغة الماما تاما مما كان يؤدى الى قلة عدد القراء الذين يقبلون على رواياتى فقد اضطررت — ازاء هذه الظروف — الى التخلى عن فكرة تحرير رواية بلغة بلادى ، وبعد تفكير عميق فى مختلف المشاكل فترة طويلة قررت أن تكون رواياتى باللغة الروسية •

وكان هذا يقضى أن أشرع فى الامر من بدايته • وهذا ما فعلته • فأخذت فى التوسع فى دراسة اللغة مبتدئا بالقطع النثرية • ثم بعد أن ازدادت معلوماتى بدأت فى قراءة الشعر • واقتضى الامر أن أمكث حوالى سبع سنوات أعمل بجد واجتهاد • وكما يتبين لك أيها الرفيق النقيب • كانت جهودى مثمرة ولم تذهب كلها سدى ، كما أصبحت أعرف مصطلحات اللغة الروسية معرفة جيدة • وذلك لانى أثناء عملى معهم كنت أرغب فى معرفة اللغات الروسية فى وطننا الام أقرب الى لغتنا السارية فى الكربات الروسية » •

ثم سألت الكابتن : « هل ترغب فى سماع بعض القطع الشعرية من تأليفى ؟ »

واعتذر وهو ينهض من مكانه ويقول : « ليس لدى وقت الآن · ولابد أن أسرع الى موعد مع فتاة من تشكوسلوفاكيا على جانب كبير من الجمال والرشاقة · وتتقن فن العشق والغرام الى أقصى حد » · بعد ذلك ابتسم النقيب واستأذن للانصراف · ثم توقف لدى الباب وأضاف قائلا : « على أية حال أود أن تحتفظ بما قلته لك فى طى الكتمان · فأنت تعلم القوانين المشددة التى تطبق فى مثل هذه الظروف » ·

وكان النقيب شابيرو يتتبع فلسفة غربية · فكثيرا ما كان يتحدث عن زوجته الحسناء التى تركها فى روسيا · ويعرب عن اقتناعه بأنها مخلصة له · وأنها تحبه حبا جما ، وكان يكتب لها خطابا يوما بعد يوم ، ولكن ذلك لم يمنعه من الاختلاط بنساء أجنبيات ·

بعد هذا الحديث القصير أدركت أنه لا بد أن التزم جانب الحرص والعناية · وتعجبت أن كان شابيرو قد صدق كلمة واحدة مما قلته له · ولأول مرة منذ شهور بدأت أفكر فى تلك الزجاجة الصغيرة التى كانت تحتوى على سيانيد البوتاسيوم والتى كنت أحملها معى دائما ، حتى اذا اكتشف رجال سميرش حقيقة الدور الذى كنت أمثله فلن أتردد فى تناول محتويات هذه الزجاجة ، وقد أتيحت لى فرص كثيرة أنارت أمامى الطريق بحيث أصبحت مقتنعا بأنه لا الاعتراف أو الندم سوف يجدى شيئا اذا تبين لهم ما كنت أفعله بين صفوفهم ·

ولقد تغيرت فلسفتى حول الموت تغيرا جذريا · ومن قبل لم أكن أفهم حقيقة أولئك الذين يقدمون على الانتحار ، وكنت دائما اعتقد أنهم قوم فقدوا عقولهم ولكننى أدركت الآن أن الانتحار يعتبر أفضل وسيلة للهرب ولتجنب الذل والعذاب الذى لا داعى له بينما ليست هناك نهاية سوى الموت رميا بالرصاص ، كما أدركت الآن بعد شهور قضيتها فى سميرش · بأن لدى من قوة الادارة ما يكفى لكى أقدم على الانتحار اذا استدعى الحال ، وبطبيعة الحال ــ لغاية الآن ــ لم يكن هناك مجال للتفكير فى مثل هذه الامور · ومن الافضل التخلى عن هذا الاتجاه ·

ثم اتجه ذهنى الى التفكير فى سونيا ·ماذا كانت تفعل هذه المسكينة ؟ فقد ظلت باقية فى مقر القيادة · ودار بخلدى شعور بأسف عميق من أجلها · اذ أنى ــ كرجل ــ كان على أن أستخدم كل ما أوتيت من قوة

الارادة لكى أتغلب على مظاهر الرعب التى كانت واضحة أمامى فى هـذا الحقل ـ حقل الموت والهلاك ۰ وأخذت أتصور كيف كان شعـور هـذه المخلوقة الرقيقة بعد أن أرغمت على مشاهدة هذه الويلات من حولها ۰

وفى صباح اليوم التالى بعد حديثى مع النقيب شابيرو صدرت الاوامر بأن ننتقل الى زاكوبان ۰ وسبق أن ذكر النقيب سيكالينكو أن هذه القيادة قد ضمت اليها أخصائيين للتعامل مع كل منظمة سياسيـة فى منطقـة زاكوبان وشعرت بأنى يجب ألا أتظاهر برغبتى الشديدة فى التعرف على شخصية هذا الاخصائى والمسئول عن معلومات NTS ۰ فلقد كانت ثروة من المواد أستطيع الحصول عليها اذا أتيحت لى الفرصة للاتصال بهذا الاخصائى فى شئون NTS ۰ وقررت أن تكون هذه هى خطوتى التالية ۰

وكان وصولنا الى زاكوبان وقت غروب الشمس ۰ وفى الحق كانت هذه مدينة عظيمة تضم كثيرا من الفنادق الفاخرة ۰ فمـا أجمـل منظـر الاشجار تتدلى فروعهـا تحت ثقل الجليـد المتسـاقط ۰ وكانت سلسلة جبال « تايزى » تشكل صورة رائعة تفوق حد الوصف ، وسبق أن شاهدت عدة مرات هذه الجبال من ناحية تشكوسلوفاكيا ولكنها ـ فى هذا الموقع ـ كانت تأخذ بالالباب ۰ وكثيرا ما ألف البولنديون أغنيات وأشعار تشيد بجمال هذه المنطقة ۰ وبعد أن شاهدتها أدركت تماما تلك الاسباب التى من أجلها يعشقون هذه المدينة ۰

وقبل موقعة بولندة كانت المدينة تزخر بحياة الترف والمرح ۰ وكان هواة الانزلاق على الجليد يمرحون على سفوح الجبال المغطـاة بالثـلوج ، وشعرت بأنه من سوء الطالع لم يكن لدى معدات الانزلاق ۰ فقد كان مما يبعث على السرور أن أتسلق منحدرات الجبال وقد كستها الثلوج بحـلة ناصعة البياض ۰ ولكن لم يعد هناك مجال للتسلية والتمتع بالحياة كمـا كنت أفعل من قبل ، ولم تكن هناك سوى الحياة الشاقة فى سميرش ۰

ولم أستطع أن أستبعد من تفكيرى هذه الظروف لمجرد لحظة واحدة ۰ فقد بدأت الحياة تتغير بالنسبة الى من يوم لآخر . وجال بذهنى أن بولندة ذاتها قد دمرها النازيون ۰ وأصبحت زاكوبان ساحة اللهو لجنود العصف الالمان . واليوم تعيش المدينة تحت رحمة رجال سميرش بأحذيتهم الثقيلة ، وغدا سوف يكون يوم الجيش الاحمر وهو عطلة فى جميع أنحاء الاتحـاد

السوفييتي · وكان كولونيل شابلين قد أعد احتفالا عظيما · حيث تكون هناك المشروبات والموسيقى والرقص والفتيات · وكانت المدينـة زاخرة بالاماكن التى تصلح لمثل هذه الحفلات ·

والتقيت وقت الغذاء بسونيا · ولأول مرة لاحظت أنها خجلت عندما رأتنى · وحولت وجهها عن ناحيتى لكى تتجنب حديثى معها وفهمت أنها قد سلمت بالامر الواقع ·

وجلست بجوار أيفا التى بدأت فى الحديث عن سونيا وكيف تغيرت اتجاهاتها ·وأخذت تقول :« لقد أصبحت هذه الفتاة الجميلة قاسية الى أقصى حد · وبالرغم من مظهرها الذى يدل على الشفقة فقد لجأت الى ضرب الاسرى وتعذيبهم » · ثم ابتسمت الفتاة وهى تواصل كلامها : « وفى موكاشيفو كانت تلعب دور القديسة · وهنا بدأت فى حياة اللهو وتعاطى المشروبات ليلة بعد الاخرى · وهى الآن صديقة لاحد ضباط القسم الثانى ويشتركان معا فى النوم كل ليلة »

وهنا حاولت تغيير مجرى الحديث فلم يكن من اللائق مطلقا أن أستمع لمثل هذه الامور تذكر عن سونيا ، وقلت لها : « يبدو أن العمل فىالمخابرات المضادة قد غير من طباعك أيضا · فأصبحت لا تمزحى كثيرا كمـا كنت تفعلين · وأنك اتخذت مظهر الجد واقلعت عن نواحى الهزل » ·

وهزت الفتاة كتفيها وقالت : « انها قصة طويلة يضيق بها المقـام » وما لبثت أن لحقت بضابط متوسط العمر وبرتبة النقيب ، ولم يسبق أن رأيته من قبل · ونظرت اليه وعلى وجهها ابتسامة عند ما قال لها : « دعينا نذهب لنأخذ قسطا من الراحة » ، قال ذلك وعلى وجهه ابتسامة عريضة· فسألته : « هل نذهب الآن ؟ » وسارا معا حيث غادرا المكان ·

وبعد مغادرتها لاحظت أن النقيب بوتابوف كان يجلس الى منضـدة بالقرب منى ، وكنت أعلم أنه من المثقفين ثقافة عالية بين ضباط منظمة سميرش · ودار بذهنى أنه ربما التحق بمقر رئاسة المخابرات المضـادة بطريق المصادفة كما حدث لى · ولم يكن لهذا الرجل سوى عدد قليل من الاصدقاء ، ولم يلجأ الى القذف فى حق انسان ولم يشرب الخمر ولم يدخن· وكان يعمل فى اطار من الهدوء والسـلام ، كمـا كان خبـيرا فى شئون بريطانيا · ويتحدث الانجليزية بطلاقة ويعد التقارير اليومية عن اذاعات

لندن التي وضعت في رعاية قسم الاستماع ، كما كان معى دائما على صله ودية للغاية ــ صلة قوامها الادب والاحترام · وبعد أن تبادلنا تحية قصيرة وبضع كلمات خرجنا معا من غرفة الطعام ·

ومن بين من عينوا في مقر قيادتنا من الضباط الجدد بعد الانتقال الى بولندة كان النقيب ستيبانوف وهو تشيكى صميم · وكثيرا ما كان يفتخر بقوله : لقد قضيت خمسة عشر سنة أؤدى عملى بنزاهة تامة ·

وكان ينتمى الى تلك المجوعة ممن أسعدهم الحظ من رجال سميرش · ويضع على صدره أوسمة تشهد بحسن طالعه أيام خدمته فى المخابرات المضادة ·

وخلال الاحتفالات بيوم الجيش الاحمر كان كل فرد يسرف فى شرب الخمر كل ليلة · بينما تمكن النقيب ستيبانوف من اعتقال « رجل أهمية كبيرة » ــ وكان هذا شابا بولنديا حسن الهندام وعضوا بارزا من أعضاء المنظمة البولندية التى كانت تعمل في مقاومة Armya Krayova هتلر ، ولكنها لم تكن قد بدأت فى معارضة الروس بصورة علنية ، وكان أفراد مجموعة سميرش يساورهم الشك فى منظمة المقومة هذه · وتعتبرها المخابرات المضادة أشد خطرا من منظمة المخابرات الالمانية . وبالرغم من أن سميرش كانت تعرف زعمــاء هــذه المنظمة فن المخابرات المضادة لم تستطيع الاهتداء الى أوكارهم . ويعتبر هذا « الرجل الهام » جائزة نالها كابتن ستيبانوف ، وكان الرجل يعرف مخبأ أولئك الزعماء · فأكـرمه رجال سميرش وقدموا له الطعام والشراب ووعدوه باطلاق سراحه فى وقت قريب ·

وفى صباح اليوم التالى اطلعت على القائمة التى أعدها ذلك الرجــل وجدتها تحتوى على أسماء عشرين من زعماء Armya Krayova وفى بضع ساعات بعد اعتقال الرجال تمكنت سميرش من مراجعــة عنــاوين أولئك الزعماء واقتنعت بأن البولندى كان صــدق فى قــوله . حتى اذا تحققت أغراض منظمة سميرش بدأ هذا الجهاز ــ جهاز الرعب ــ فى اتخاذ الاجراءات اللازمة ــ وأخذ النقيب ستيبانوف يعمل طول الليل لارســال برقيات متتالية وتقارير متتابعة الى موسكو · الى مكتب الرفيــق جنرال أباكوموف ، ولم يكن من الصعب أن نتصور نتيجة هذه الاتصالات فقــد كانت هناك مئــات من الاعتقالات والاستجوابت ثم اعتقــالات جــديدة

ومعلومات جديدة ، ولم يكن ذلك فى خاركوف فحسب باعتبارها مخبأ الزعماء ، بل فى جميع أنحاء بولندة ، ورأيت لاول مرة ما هو المقصود باعتقال فرد واحد « له أهمية » ، معنى ذلك وضع آلاف من الرجال فى معسكرات الاعتقال • ثم اطلاق النار على مئات آخرين • وبعد ذلك اضافة وسام آخر على صدر النقيب ستيبانوف • ومما يجعله من التشيك الذين أسعدهم الحظ •

وكان من الواضح من أول الامر أن بونابوف كان يحقد على ستيبانوف فقد كان يعتبر أن هذا النقيب من الاغبياء بالرغم من الاوسمة التى تزين صدره ، وذات مساء ـ وقت العشاء • أصغيت الى محادثة دارت بينهما وكان بوتابوف يقول : « هلا قرأت على البرقية التى وصلت اليوم من جنرال فيريس ؟ »

وأجاب ستيبانوف فى شىء من الضيق • « كلها هراء أن ندى من الاعمال ما هو أهم » •

فقال الآخر متهكما : انظر الى وسامك الذى نلته فى الحرب من أجل الوطن • لقد علاه الصدأ •

وهنا نظر ستيبانوف الى صدره وقال وهو عابس الوجه « حقا • عليه اللعنة • ألا يستطيعون أن يصنعوا أوسمة أفضل من هذا ؟ »

فلم تكن للرجال هواية سوى الحديث عن أوسمته وجوائزه • وكان يقضى ساعات فى الحديث حول هذه الشئون الفارغة ، وكان مغرما بها كما لو كانت أولاده وزوجته •

وبهذه المناسبة تذكرت قصة تتعلق بجنرال فيريش • ومرت بذهنى بطريق المصادفة • ففى ميوكاشيف سبق أن استجوب النقيب ستيبانوف جنرالا مجريا يدعى فيريش ، وكانت التعليمات الصادرة من موسكو تنص على طريقة هذا الاستجواب وقد سار ستيبانوف بمقتضاها • ويعد ذلك من الاسباب التى دعت الى شهرة الكابتن • لان الاستجواب الذى قام به كانت نتيجة تسليم جنرال فريش الى أيدى منظمة بوليس أمن الدولة •

ثم أن سكان المجر أنفسهم لم يخطر ببالهم أن الجنرال فيريش هذا كان أحد عملاء سميرش • وأن مقر رئاسة المخابرات المضادة فى موسكو أصبحت تعرف كل شىء يحدث بين أروقة الحكومة المجرية •

وبنفس الطريقة لم يعرف سكان يوجوسلافيا أن رجال المخابرات المضادة فى مقر رئاسة سميرش كانوا يقومون بتدريب ضباط هيئة أركان حرب المارشال تيتو ، وكان هؤلاء الضباط اليوجوسلافيون ـ بعد تدريبهم فى الجبهة الاوكرانية الرابعة ـ يقومون بمساعدة تيتو فى حكم البلاد على نظام ستالين ٠

واسترحنا عدة أيام ثم بدأنا العمل فى معسكر يضم عددا كبيرا من المهاجرين السوفييت ٠ وكنت مع النقيب شابيرو والملازمين شيرنوسوف وكوزياتين للقيام بالتحقيق مع أسرى الحرب من الالمان ، وكان الاستجواب يتم بمساعدة عدد كبير من جنود الجيش الاحمر ومخبر المانى يدعى هاتز ، وكان هذا الرجل من سائقى السيارات فى قسم المخابرات التابع للمجموعة الوسطى فى مقر قيادة الجيش ، واستطاع الرجل أن يتعرف على عدد من جواسيس الالمان مما دعا رجال سميرش لكى يصطحبونه معهم وهم يتنقلون بين أقسام المعسكر ، وكان يؤدى هذه المهمة باخلاص بينما كان يكشف الستار عن بنى وطنه من الالمان ، وفى أول يوم تعرف على سبعة من الجواسيس وأدى هذا الرجل خدمات جليلة شهدت بها تقارير سميرش ، فكانت مكافأته عددا كبيرا من علب اللحم المحفوظ وأرغفة الخبز الابيض والشيكولاته ٠ ومنحوه قدرا كافيا من السجائر وزجاجات الفودكا ٠ وأصبح يعيش عيشة راضية ٠

وكان معسكر أسرى الحرب مقاما حول أحد السجون ٠ وكان خاليا من النور والماء ، وكان الاسرى يرقدون على أرض رطبة ويقاسون شدة البرودة مما لا يستطيع أن يتحمله أحد من البشر ، وبدت القذارة تعلو أجسادهم جميعا ، وكانت رائحة العرق وفضلات الاسرى تملأ جو المعسكر بأكمله ، فكانت النتيجة المحتومة والتى لا يرقى اليها الشك أن أخذ عشرات الرجال يموتون كل يوم ، وفى نهاية جولتنا فى أول يوم توجهنا الى الغرفتين المعدتين لنا ٠ ولكن لم نذق طعما للراحة أو النوم ٠

وفى اليوم التالى اشتركت مع شيرنوسوف فى مساعدة النقيب شابيرو فى مراجعة البيانات بأسماء الاسرى وبدأنا فى توزيع المخبرين فى أنحاء المعسكر ، كما بدأ الجنود ومعهم هاتز يمرون حول أماكن الاسرى للتفتيش على النظافة ، ولم تسفر جهودنا الى هذا الحد عن شىء له قيمته ولكن النقيب شابيرو كان يثق بمخبريه ثقة لا حد لها ، وعلمنا منه ـ أثناء تناول الطعام ـ أن الالمان كانوا يفشون أسرار زملائهم عن طيب خاطر ٠

بينما تبين لنا أثناء العمل فى معسكر الاسرى أن الالمان بالرغم من تكريمهم بتقديم السجاير والمشروبات ووعدهم باطلاق سراحهم كانت نسبة من يتقدم منهم لمساعدتنا كنسبة ١ : ١٠

وكان كل من الرائد جريشن والنقيب شيبايوف ومجموعة من رجال سميرش يعملون بين المهاجرين من الروس ، وكان مما يزعجنى ويثير فى نفسى الشعور بالخوف معاملة هؤلاء لبنى وطنهم واعتبارهم من الحيوانات ، واذا أصغى الانسان الى اذاعة موسكو أو اطلع على صحيفة برافدا لابد أن يبكى رثاء لتلك المخلوقات من المساكين الذين نجوا من مشانق النازى ومن العبودية لكى يلقوا هذا المصير ، ثم أن الصحفيين من السوفييت والاقسام السياسية فى الجيش ورجال الحزب الشيوعى ورجال الدعاية والادباء • كانوا جميعا فى صف أولئك الشهداء الذين استحقوا كل عطف واحترام، ولكن سميرش لم تعرهم اهتماما ونفذت التعليمات الصادرة اليها •

واتخذت سميرش اتجاها مختلفا ، اذ أن حكومة السوفييت اعتبرت المواطنين الروس ممن قضوا سنوات فى العمل الاجبارى فى المانيا ، أنهم من المحتمل أن يكونوا جواسيس قد امتلأت نفوسهم بكراهية النظام السوفييتى • وكان هذا هو السبب فى فحص واستجواب كل مهاجر ، وعلى ذلك انتشر بين المهاجرين عدد كبير من المخبرين يواصلون العمل بهمة ونشاط • ونصبت شبكة من العملاء وسط هذا الجمع من المغلوبين على أمرهم ، وكانت وسائل منظمة سميرش هى الوعود الكاذبة وعدم الثقة والتهديدات والتقارير والاستجوابات والتعذيب والاعدام •

وكان مجرد التفكير فى مصير أولئك المهاجرين عند عودتهم الى روسيا يبعث على الرعب • وعلمت من الرائد جريشن أن الاغلبية العظمى من هؤلاء لا بد أن يقضوا سنتين على الاقل فى معسكرات التأديب والتهذيب •

ولكن لأى سبب ؟

ألم يكن هؤلاء هم من الشهداء الذين يستحقون الرحمة والشفقة ؟ وهل من الجائز أن هؤلاء الملايين الذين نجوا من العبودية فى المانيا لايستحقون سوى وضعهم فى معسكرات اعتقال جديد ؟ •

وكان من الصعب أن يفهم الانسان حقيقة الموقف • ففى استطاعة الفرد أن يكذب أو يخدع أو حتى يرتكب جريمة قتل • ولكن لم يسبق أن نال المذنب جزاءا على هذا النحو من القسوة والعذاب •

فهل نسى هؤلاء القوم أنه بجانب هذه المحاكم التى تعقد لمحاكمة الناس والتى أصبحت تنشر الموت فى كل مكان بصورة جماعية • هناك محكمة أخرى سوف يقف أمامها الجميع فى يوم ما لمحاكمتهم ـ تلك هى المحاكمة الآلهيـة ! •

ولم استطع أن أجد الالفاظ التى تساعدنى على تسجيل هـذا الذل والهوان مما تعرضت له الانسانية •

« **سميرش !** »

« **الموت للجواسيس !** » ••• لا ليس كذلك بل انه لمن الافضـل أن نطلق على منظمة المخابرات المضادة هذه « **الموت لكل من يعادى الشيوعية** » فان هذا الوصف مما يتناسب المقام •••

٨

ثلاثون قطعة من الفضــة

ذات صباح ـ بعد مضى عدة أيام ـ قمت بزيارة أحد المعسكرات التى كانت تتولى ترحيل الاجانب ، وأمر الرائد جريشن الملازم شيرنوسوف أن يصطحبنى ومعنا هانز لفتهنز وذهبنا ثلاثتنا المعسكر فى جولة به ٠

وكان الاسرى يتـــألفون من فرنســـيين وبلجيكيين وبريطـــانيين وهولانديين وديتماركيين ونرويجيين ومن التشيك والصربيين ، وكانوا جميعا يتجولون فى صالة المبنى الآيل للسقوط حيث كانــوا معتقلــين ، وكانت نظرتهم الينا تنم عما يضمرونه لنا من العداء والبغضاء ٠ وكلمــا استطاعوا كانوا يتجنبون محادثتنا ٠ وكانت وجوههم العابسة تدل على مدى كراهيتهم لنا ، ولكن ـ بطبيعة الحال ـ كان عملاء سميرش يندسون بينهم ٠

وكانت الفرق الاحتياطية من المخابرات المضادة تعمل ليلا ونهارا فى هذه المعسكرات المختصة بترحيل الاجانب ، وبالتدريج تم القضاء على أتباع ملك الصرب وأنصار الحزب الزراعى التشيكى ٠ وغيرهم من الاجانب الذين أبدوا عداءهم ـ بطريقة أو بأخــرى ـ للشيوعية . ولــم تعترف منظمــة سميرش بأى مادة من مواد القانون الدولى بــل كانت تعــامل المواطنــين الاجانب طبقا لطريقتها الخاصة . وهنا ـ فى المنطقة التى كان يحتلها الجيش الاحمر ـ كان أفراد المنظمة يتصرفون كما كان أملهم فى الخارج فى يوم من الايام ، فقد كانوا يقتلعون الجذور المعادية للثورة ٠

وأثناء جولتى تذكرت أغنية مميزة كان السوفييت يترنمون بها ٠ وكانت تبدأ بهذه الكلمات : « المجد لكم أيها التشيك ، والمجد لارادتكــم الحديدية ! » فقد كان التشيك ذوى شهرة فى روسيا ، ولكن كان هــذا المجد مظلما وملوثا بالدماء وعلى النقيض مما صورته الاغنية ٠ وأما الاجانب فكانوا يصمون آذانهم عن أغانى التشيك وعن كل شىء يتعلق بهم . وأصبح لدى الأسرى الآن فرصة مناسبة لكى يعلموا شيئا كثيرا عن هؤلاء الأبطال ـ أبطال القصص فى العهد الاستبدادى ٠

وبعد أسبوع صدرت الاوامر بنقلي مع كوزياكن من نوفي سونس الى فاديفتسي وهي مقر رئاسة المدينة ، ولم تنص الأوامر على الطريق الذى نسلكه ولذلك رأينا أن نستدل عليه بمعرفتنا ٠

ولم نعلم أن هناك عقبات سوف تعترض سبيلنا ، وعلى حدود المدينة كان ضباط الشرطة العسكرية يوقفون كل مركبة تسير فى الطريق ٠ وبدا أن الضابط لا يستطيع الحصول على عربة نستقلها ٠ وكان السائقون يرفضون أن نركب معهم بحجة سوء حالة الموتورات أو ضعف الاطارات أو زيادة حمولة السيارات مما ينذر بالخطر ٠

وبعد أن انتظرنا أربع ساعات فى شيء كثير من التعب والقلق استطعنا الحصول على مركبة توصلنا الى فاديفتسي٠ ولدى وصولنا وجدنا أن معسكر ترحيل الروس قد استولى عليه عملاء سميرش من الفرق الاحتياطية للمخابرات المضادة ، فتوجهنا لمقابلة النقيب شابيرو والملازم شيرنوسوف وكانا قد وصلا من قبل ويعملان داخل أسوار المعسكر ٠

فلما شاهدنا النقيب صاح قائلا : « سوف نلقى هنا كثير من المرح والتسلية » ٠ وبعد رحلتنا الشاقة فى تلك الطرق الوعرة شعرنا بالارتياح عند ما رأيناه متفائلا بهذه الصورة وهو يقول : « ليس هنـاك رؤساء يشرفون علينا ٠ وليست لدينا مهمات كثيرة تستدعى الاشراف عليها ٠ كما أن المدينة تزخر بالفتيات » ٠ وأخذ يلفت أنظارنا ويقول : « وهناك ثلاث فتيات فى مسكن الملازم وفى شقتى اثنتان منهم ٠ فلا تضيعوا الوقت أيها الرفاق » ٠

وأقام كوزياتين مع الملازم واتخذ لى غرفة فى مسكن رئيس المدينة ٠ وبعد فترة قصيرة جـاء الملازم وأخبرنا بأنه عثر على عـدد من زجاجات الفودكا وأنه أعد حفلا للاجتماع مع الفتيات ، وأصر عـلى حضورى هـذا الحفل ٠ فلم استطع الاعتذار لكى لا أثير الشكوك من حولى بمثـل هـذا التصرف ٠

وفى الليلة التالية تأخرت قليلا فى حضورى تلك الحفـلة ٠ وعنـد وصولى وجدت فتيات من بولندة وقد لعبت برءوسهن الخمر ٠ ويجلس فى صالونه الرحب حول موائد قد رصت عليها زجاجات الفـودكا وألـوان

الاطعمة الفاتحة للشهية التي تسمى زوكسكي وكان الضباط يرقصون في خلاعة على نغمات موسيقى منخفضة تنبعث من « حاكي » من الطراز القديم ·

ولما دخلت الغرفة أخذ الفتيات يحدقن في وجهي وتهمس كل فتـاة مازالت في أول عهد الشباب · فلم تكن تزيد عن العشرين من عمرها بأي حال · وجلست على يساري فتاة بدينة ثرثارة سوداء الشعر ·

وتبسمت الفتاة الشقراء قائلة : « هـل أدعوك مستر أم ملازم ثان أم ماذا ؟ »

فقلت لها : « لاتهتمي بوظيفتي · أنا اسمي نيقولا · وما اسمك ؟ »

وأجابت : « يامينا » · فقلت لها « اسم ظريف » ·

وكان يبدو أن هذه الفتاة لم تشرب خمرا كثيرا كغيرها من الفتيات · فقد كانت تتحدث باتزان وهي تلقى على عشرات من الاسئلة · وبعدحديثي معها لمدة نصف ساعة · اقتنعت بأن صديقتي الجديدة الشقراء كانت من طلبة المدارس العليا وأنها في السنة النهائية · وسألتها :

« أين مقر والديك ؟ » فأجابت :

« ليس لي والدان · فقد قتل أبي بيد الالمان منذ سنتين · وتوفيت أمي عندما كنت في الخامسة من عمري » ·

« وكيف تعيشين اذن ؟ » وكان ردها :

« ان لي أختا تساعدني » ·

وكان شيرنوسوف يرقص مع الفتاة ذات الشعر الاسود ويضمها الى صدره · وكان كوزباكين يحتضن بين ذراعيه فتاة في أشد حالات السكرة وعلى الاريكة كان يجلس شابيرو يداعب فتاة لا تكاد تزيد عن الساسةعشر من عمرها ·

ومال شيرنوزوف لكوزيالين مازحا : « من الافضل أن تصحبعشيقتك معك الى منزلك » ٠

واعتقد كوزياكين أن صاحبه جاد! في قوله واتجه نحو الفتاة يدعوها لمرافقته وكانت الفتاة مخمورة وفى حالة سيئة لدرجة أنها وقفت بشكل صعوبة وسارت مع رفيقها ٠

وكانت هناك فتاة طويلةالقامة ذات شعر ذهبي وتجلس منفردة طول الوقت ٠ ووقفت فجأة وأخذت تغنى أغنية وطنية بصوت عال ٠ وأخذ صوتها يتهدج وهى تقول :

« أيها الضباط السوفييت عليكم اللعنة » ثم صرخت ووقعت على الارض فاقدة الوعى ٠

وهنا أخذت يامنيا تهمس متذمرة من الموقف وقالت :

« هل لك أن تأخذنى معك الى منزلك ؟ » فقلت لها :

« أخشى أن يكون ذلك مضايقة لمضيفنا »

وكررت سؤالها متوسلة الى ٠ فقلت لها :

« ليكن ذلك اذا كنت مصرة على مغادرة الحفل » ٠ وهل منزلك على مسافة بعيدة٠ وكان ردها بالايجاب ٠

ثم ساعدتها على ارتداء معطفها واستأذنا للخروج من المنزل ٠

وأثناء الطريق أخذت تتسكع من جانب الى آخر ثم اقتربت منى ولفت ذراعها حول ذراعي وهى تقول لتقطع حبل السكوت : « أنت لست من الروس » ٠ فقلت لها :

« هذا هراء ٠ بالطبع أنا روسى » وسألتنى :

« وأين تعمل ؟ » فضحكت وقلت لها :

« هذا من الاسرار العسكرية » ٠ فقالت :

« ليس هناك داع لأن تخبرني فأني أعلم ذلك » وكانت الفتاة تتحدث وهي رابطة الجأش وعلى يقين من أمرها مما جعلنى أتخذ فى الحال موقف الحرص والحذر ٠

وسألتها : « هل سبق لك أن كنت تعملين مع الالمان ؟ »

فقالت في هدوء : « كنت أعمل فى مطبخ احدى مستشفيات الميدان »

وقلت لها : « أنت تكذبين ! » ٠

فقالت وهى لا تزال تحتفظ بهدوئها : « ولماذا تظننى كاذبة فى قولى ؟»

« لقد كانت مهمتك فى أحدى الوحدات العسكرية ٠ ألا تذكرين قولك لى أثناء حفلة الملازم حول علاقتك الغرامية مع أحد ضباط المخابرات ؟ »

« نعم أذكر ذلك ٠ لقد كان مريضا فى المستشفى الذى كنت أعمل به »

وهنـا قلت لها : « أنت تكذبين مرة أخـرى ٠ لقد قلت أنه كان فى مسكنك » ٠

« فقالت : « كان ذلك فيما بعد ـ بعد أن تم شفاؤه » ٠

وكانت الفتاة على درجة من الحذق وسرعة الخاطر فى الرد عى أسئلتى لدرجة أنى لم أستطع أن أحاول الضغط عليها أكثر من ذلك ٠ ولسبب ما شعرت بأن هذه الفتاة التى لم تكن سوى طالبة أصبحت على صلة بى أكثر مما لو كانت صلة غرامية ٠

فقلت لها : « على أية حال لا داعي للمحاولة ٠ أخبرينى عن الجهة التى أعمل بها » ٠ وكان ردها وهى على ثقة مما تقول : فى المخابرات المضادة » فسألتها :

« وما سبب ظنك هذا ؟ » فقالت وهى جادة فى قولها :

« بالرغم من كل شيء ٠ فان منظمتكم للمخابرات المضادة لا تحسن تغطية اجراءاتها ٠ وجميع الضباط يرتدون ملابس أنيقـة ٠ ويمتازون

بالذكاء وحضور الذهن · وهذا وحده هو الفرق بينهم وبين غـيرهم من ضباط الجيش ولنضرب مثلا أنتم أيها الشبان · أنتم الاربعة من الضباط تتحدثون اللغات الاجنبية وتمتازون بحسن معاملة النساء » ·

فضحكت وقلت لها : « اسمعي يا يامنيا · لو كنت أنا من ضبـاط المخابرات المضادة لبادرت باعتقالك في الحال » ·

وسألت قائلة : « ولأى سبب ؟ » فقلت :

« لأن معلوماتك أكثر مما ينبغي · وأني على يقين تام من أنك تعملين لصالح منظمة « أرميا كرايوفا » ·

ومررنا بعدة مبان قبل أن أقول لها : « ليكن ظنك بي كما تشائين · وليس لدى اعتراض على آرائك ، ولكن تذكرى جيدا وكونى حريصة أشد الحرص على ألا تتعرضى للهلاك في أغلب الاحيان » ·

ولم ترد الفتاة على ملاحظتى · وبعد بضع خطوات وقفنا وقالت :

« هذا هو منزلى · هل تتفضل بالدخول · أن أختى خارج المنزل · وفي غرفتى فراش يكفى شخصين · وفى استطاعتك أن تقضى الليلة فى مسكنى » ·

وأحدقت النظر فى عينى الفتاة اللتان تنمان على المكر والخداع · وكاد صوتها الهادىء ودفء جسدها النحيل مما شجعنى على قبول دعوتها ولكنى فى قرارة نفسى كنت أرتاب فى حقيقة أمرها ، ولم أجد سببا لذلك سوى المحافظة على حياتى · فرفضت دعوتها بحجة أنى لا بد أن أعود الى منزلى ·

فقالت فى هدوء : « كما تشاء » ·

وبعد أن تبادلنا تحية المساء قالت وهى فى مدخل الباب : « أنى فى انتظارك فى الليلة القادمة » ولم أرد عليها بل أسرعت فى طريقى الى قلب المدينـــة ·

وفي هذه الاحياء كانت الاغتيالات ترتكب فى معظم الاوقات ، مما كان يدل دلالة واضحة على مدى كراهية البولنديين للضبـاط السوفييت ·

فمن كان يعرف حقيقة هذه الفتاة الرشيقة ؟ ولم يساورني أدنى شك فى أنها كانت من جواسيس منظمة المقاومة · واذا لم تكن فكيف كانت تعرف مثل هذه التفصيلات الهامة عن مخابرات الروس المضادة ؟ ، ورأيت أنى لغاية الآن ـ وعلى أية حال ـ لم أكن قد ضقت ذرعا بالظروف الحالية · وأكثر من ذلك لم تكن مهمتى قد انتهت بعد ·

وفى ذات مساء فيما بعد اجتمع أفراد مجموعتنا الصغيرة فى مسكن شرنوزوف حيث أخذوا يتناولون المسكرات · وأخذ كوزيابين يتحدث عن صديقته الجديدة · فانفجر شابيرو ضاحكا بصوت عال بقصد أثارة هذا العاشق الجديد الذى لم يسبق له تجربة فى هذا الميدان ·

وقال شرنوزوف : « أخبرنا يا نيقولا عن فتاتك الشقراء » وكان يتحدث بصعوبة واضحة بسبب تأثير الخمر · ثم نظر الى ناحيتى لحظة بعد سؤاله هذا ثم حول عينيه المتقدتين وأخذ يحدق فى الفضاء ·

فقلت بسلامة النية : « ليس لدى حديث يستحق الذكر · فقدصحبت الفتاة الى منزلها · وعدت بمفردى الى مسكنى » ·

فانفجر الرجل يقول : « أنت كاذب · أنت لست كأحدنا » · أنت بورجوازى متطرف » وكان ردى بسرعة :

« لتذهب الى جهنم » ·

فركز شرنوزوف عينيه فى وجهى وهو يفتح فمه قليلا · ثم أخذ يقرض على أنيابه ولاحظت يده تمتد الى منطقته ويمسك بغدارته · كما لاحظت أنه فقد اتزانه بتأثير الخمر ، وكانت نظراته تدل على أنه يقصد قتلى ·

ومرت بضع ثوان قبل أن يمسك النقيب شابيرو بمعصم يده وينتشل منه غدارته · ثم صرخ فى وجهه : « ارجع عن هذا يا أيفان » ·

وهنا صاح شرنوزوف قائلا : « سوف أقتله · ! هو ليس فرد منا · أنه حيوان حقير ! » وكان صوته يوحى بشدة الكراهية · كما كان فى حالة سيئة من الضيق والغضب الشديد · ومثل هذا الرجل الحاقد فى قرارة نفسه لابد أن تبدو على وجهه مظاهر النفور والمقت الشديد ·

وقلت له في هدوء : « لو لم تكن مخمورا الى هذه الدرجة لكان حديثي معك يختلف كثيرا · الى اللقاء » ·

وغادرت المكان دون أن يحاول أحد أن يعترض طريقي · وأثناء سيري تنهدت كمن أزيح عن عاتقه عبء ثقيل ، فهل كان تصرفي على الوجه الصحيح ؟ دون شك · اذ لابد أن أكون صلبا شجاعا ومتهورا في بعض الاحيان · فتلك هي الطريقة الوحيدة لكي لا أصبح موضع اشتباه ·

وفي الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي استيقظت على صوت طرق على الباب · واذا بشرنوزوف يدخل الى مخدعي وهو يقول :

« أرجوا أن تغفر لي يا نيقولا ، أني لأشعر بالخجل مما حدث مني · وحقا أني آسف لما جرى في الليلة الماضية · وأني أعتذر لذلك · ويرجع اللوم الى خمر الفودكا » ·

ولم أعتقد في صدق حديث الرجل · فقد كان كاذبا في كلامه · وكانت كراهيته لي اليوم كما كان يكرهني بالامس · وما السبب ؟ ·

من المؤكد أن ذلك لم يكن بسبب أني من البورجوازيين · فقد كان أبي وأمي من المزارعين الفقراء · وربما كانت يامينا لها دور خفي في هذا الصدد · ودار بخلدي انها فتاة بولندية ماكره ، وفي استطاعتها أن تفعل أي شيء · ثم أنها لم تبلغ من العمر سوى عشرين سنة · فكيف احتفظت بقوة ارادتها وأصبحت حريصة في تصرفاتها في مثل هذه الظروف الحرجة ·

وكنت أدرك بفطرتي أن شرنوزوف كان يكرهني · فقد كان من التشيك من الطراز القديم ، وربما اكتسب من السنوات العديدة التي قضاها في بوليس أمن الدولة موهبة خاصة · للتعرف على خصومه ·

وكانت مخابرات الروس الاقتصادية تعمل في معسكر مجاور لنا ، فالتقيت ذات يوم بالفتاة ريتا · وكانت تعمل هناك · وكانت فتاة وسيمة وعلى قدر من الذكاء · فسألتني :

« ما هي مهمتكم ؟ » وأجبتها :

« فى الحــق لا أستطيــع أن أوضحهــا بالضبــط · نحــن نبحث عن اخصائيين فى حقل التفجير الذرى » ·

فرفعت حاجبيها عجبا وهى تقول : « يا للعجب · نحن أيضا نعمل فى مثل هذا الميدان ولكن بصورة عامة · ويبدو أن الاشعاع الذرى أصبح على قدر كبير من الاهمية » ·

ثم أخذت تحدثنى عن بعض أمور تتعلق بعملها ، وبالتدريج أخذت تكشف الغطاء عن تلك الصورة الهائلة والتى توضح كيف تؤدى المخابرات الاقتصادية السوفييتية مهمتها ، فقد كان هناك مئات الالوف من أسرى الحرب يفحصون ويستجوبون · وكانوا يدلون بمعلومات عن حالة المانيا من حيث الصناعة والزراعة ·

وفى مكان ما ألقى على عاتقنــا ــ بجانب مهمتنــا الاصلية ــ القيـــام بتفصيل كل هذه المعلومات وتقسيمها وتحليلها ووضعها طبقا لأهمية كل منهــا ، ثم اتسع نطاقهــا بما كان يرد من المعــلومات الاخرى من مراكز الجاسوسية فى الخارج ، وكانت هذه المراكز لا عداد لها · وخطر ببالى أنه لم يكن هناك مصنع واحد فى ألمانيا ليست له بطاقة خاصة به فى موسكو تحتوى على جميع المعلومات الهامة · وكان ذلك واضحا جليا ·

وفى هذا المعسكر كانت لدينا أوقات فراغ كافية · فلم يكن لدينــا ما يشغلنا طول الوقت · كما لم يكن لدينــا ما نقرأه · وكذلك لم يخطر بذهنى أن أستأنف صداقتى القديمة مع شيرنوزوف بالرغم من أننا كنــا نعمل جنبا الى جنب ·

وفى الساعة الثامنة صباحا ذهبت مع شرنوزوف الى مكان الاسرى لكى نبدأ فى العمل اليومى ، فأصدر أمره الى رؤساء معسكر الالمان لكى يرسلوا الينا خمسين رجلا للمراجعة ، وأمام مكتبنا كان يقف خمسون أسيرا من الالمان بملابسهم القذرة وهم فى حالة من الضعف يرثى لهــا . ووقفوا صفوفا ثم أخذوا يدخلون الغرفة واحدا بعد الآخر · وكنت أترجم أجوبتهم على أسئلة شرنوزوف : ــ

« أين ومتى كان مولدك ؟ أين تلقيت دراستك ؟ فى أى الوحــدات كانت مهمتك ؟ »

وكان الالمان يردون على الاسئلة بصورة آلية روتينية · حتى دون أن يفكروا قليلا قبل أجابتهم · وكان شرنوزوف ينظر فى وجوههم بأمعان ويحاول أن يقف على حقيقة أمرهم من مظهرهم وتعبيراتهـم ، ومن وقت لآخر كان يقوم بتفتيش محتويات جيوبهم ، ولم يكن لديهم ســاعات أو خواتم أو أى شيء له قيمة بل كان كل فرد منهم يحمل صورة فتوغرافية لزوجته وأطفاله أو لعشيقته ، وفى أغلب الاحيان كان شرنوزوف يعثر فى جيوبهم على قطع شعرية مبتذلة أو صور عاريه ، وكانت هذه فى الغالب توضع بعناية فى محافظهم مع الخطابات التى وصلت اليهم من وقت قريب من زوجاتهم وعائلاتهم ·

وعندما كنت أترجم هذه القصائد المبتذلة كنت أحاول جاهدا ان أظهر بمظهر الجد ولكنى لم أستطع وكنت ابتسم فى أغلب الاوقات ، وكان الخجل يبدو على وجوه الالمان كما لو كانوا يعتذرون عن هذا الضعف فى الناحية الاخلاقية ، وكانشرنوزوف يقرأ ويفحص كل شيء بعناية · وعلى الاخص الصور الغرامية ، وكان يحتفظ لنفسه منها بمــا يتفق مــع ما يوحى به خياله ، ومن وقت لآخر كان يلقى محاضرة ساخرة عــلى أصحــاب تلك الرسوم والصور الخليعة ، وبعد خروج الاسير من الغرفة كان يضع الصور العارية فى محفظته ثم يأمر باحضار سجين آخر ، وفى بعض الاحيان كان الاسرى الشبان يعربون أمامنا عن متاعبهم ويدعون عادة بأنهم لايتحملون أية مسئولية تتعلق بهتلر رجل الشرور والآثام · وأنهم دائما كانت لهم ميول شيوعية ، وأنهم على أتم استعداد للالتحاق بالجيش الاحمر بنفس الدرجات التى كانوا مقيدين عليها فى جيش « هتلر السفاح » ·

وكان شرنوزوف يصغى الى كل فرد منهم ويقول : « لا تذكر أمامنا قصصا خرافية ·فلن يجديك ذلك شيئا · ونحن لا نعتقد فى صدق حديثك هذا · واذا أردت أن تؤمن بكلامك فعليك أن تؤدى لنا خدمة بسيطة » ·

وكان الالمان لا يصدقون أعينهم عندما يرون شرنوزوف وهو يقدم لهم بعض لفافات التبغ ، وكان يتخذ موقف الجد دائما دون استثناء • وكانت أفكاره تدور دائما حول هذا المحور ورأى ضرورة تقديم السجاير مرضاة للاسرى •

وكان يبدأ الحديث بقوله : « أوجه أنظاركم الى نقطة هامة • وهى أن فى هذا المعسكر عدد كبير من رجال المخابرات على اختلاف درجاتهم ، وكذلك موظفون فى معسكر الاعتقال ، وكل أولئك مستترون بين الاسرى، كما أن هناك مجموعة متنوعة من المحرضين وعملاء الجاسوسية المضادة وجندرمة الميدان والمترجمين وغيرهم من زعماء الحزب النازى ، فلا تكونوا أغبياء ، وساعدونا فى اعتقال هؤلاء المجرمين ونحن سوف نطلق سراحكم، هل أفهم أنكم لا ترغبون فى الحرية ؟ » •

فكان كل ألمانى يؤمى برأسه موافقا • ويبدو على وجهه بارقة من الامل وهو يعد بأن يفعل كل ما فى وسعه لتحقيق الغرض المطلوب منه •

وأما شرنوزوف فكان يقول فى بساطة ودون تكلف : « خذ معك لفافتين من التبغ • ولا تذكر كلمة واحدة لاى شخص حول ما دار بيننا فى هذا المكان ، فليس هذا مجالا للهزل ، واذا تبين لنا أنك خالفت هذه التعليمات فان مصيرك الاعدام رميا بالرصاص • ولابد أنك سمعت عن منظمة أمن الدولة وأنك لست فى حاجة الى ايضاح آخر ، وما عليك الا أن تحضر الينا فى الساعة الخامسة بعد الغد •

ومن بين كل مجموعة تضم خمسين أسيرا تمكننا من اعداد خمسة من المخبرين • وخصصنا كل يوم بعد الظهر للاصغاء الى التقارير التى يقدمها هؤلاء العملاء • وفى معظم الحالات كانت المعلومات التى تصلنا لا تساوى شيئا ولا حتى لفافة التبغ التى كانت ثمنا لها ، وكانت المعلومات ــ فى أغلب الاوقات ــ تدل على أن أسيرا معينا كان يعمل فى مكتب أحد القادة العسكريين أو أن آخر كان رئيس شرطة الامن فى أحد البلاد الالمانية •

وعلى ذلك كنا نستدعى الاسير المسئول فى اليوم التالى ونأخذ فى استجوابه بصورة مرهقة :

في أي جهة ولـدت ؟ من همـا والداك ؟ من هم اخوتك من الذكور والاناث ؟ وغير ذلك من مئات الاسئلة ٠

وأخذنا نضيق الخناق حول كل ألماني نستجوبه ٠ فلم يمض وقت طويل حتى أصبح كل فرد منهم يعتقد أننا نعرف عنه شيئا كثيرا ، ودون استثناء كان كل منهم يبذل ما في وسعه لكي نقتنع ببراءته ومن وقت لآخر كان شرنوزوف يقول : « سوف نرسل هذا الاسير الى مقر الرئاسة » وكان الباعث له على ذلك أن السجين قد يدلي بمعلومات على جانب من الاهمية تحت تأثير هيبة القيادة العامة ٠

وكان كل يوم يمر كسابقه ٠ بين أبحاث وتعيين المخبرين والاستجوابات واستقبال الاسرى ٠ وكان العمل يدعو الى الضيق والسأم ٠ وأصبحت أضيق ذرعا بما نحن فيه ٠

فمن أجل سجارة أو اثنين كان الاسير لا يتورع عن خيانة أخيه ، وكان الالمان يتطوعون للتبليغ كل منهم عن الآخر بما يزيد عما كان يفعل المجريون ٠ فقد كانت الظروف السيئة في المعسكرات والتي كانت لا تمت بصلة للانسانية سببا في تحول الالمان الى ما يشبه الحيوانات ٠ ولم يكن هناك فرصة للاغتسال أو حلاقة ذقونهم أو غسيل ملابسهم ٠ **فمن أجل قطعة من الخبز أو لفافة تبغ كان كل أسير على استعداد لخيانة أعز صديق له ٠ وكان هؤلاء من كبار رجال ألمانيا النازية تحت سلطان هتلر ٠ ٠**

ولست أدري كيف كان نيتشه يتصرف اذا بعث من قبره وأصبح من بين هؤلاء الاسرى ٠ فهل كان هذا الفيلسوف العظيم ـ فيلسوف النازي ـ وهذا الالماني المثالي ٠ يتصرف كما كان أتباعه يفعلون ؟ ٠

وهؤلاء الضباط البروسيون الذين نشأوا يمتازون بالروح العسكرية ٠ وكانوا ـ منذ فترة قصيرة ـ يفخرون بجدارتهم وشجاعتهم ٠ أصبحوا الآن يشاركون الجنود في حياة الضنك والشقاء في هذه المعسكرات ٠ ويلتقطون فضلات الطعام حول المطابخ ٠

وكان رجال سميرش يعرفون ذلك تمام المعرفة • وقاموا بمهمتهم على أحسن وجـه • وهم يسـتغلون خوف الاسرى من الموت وغرائز البشر للمحافظة على الحياة •

وكثيرا ما كان النقيب شابيرو يشيد بالنتائج التى حققناها وبالوسائل التى كان لها ما يبررها • ولم أكن أتفق معه فى هذا الصـدد ، **فقد كنت أعرف من تجاربى أنه ليس هناك آراء مثاليـة توحى باسـتغلال كرامة الانسان حتى ولو كانت تلك الآراء صادرة عن أعظم الانبياء • وأصبحت أقتنع بأن الانسان ليس سوى مخلوق ضعيف يمكن أن يتحول الى حيوان تحت ضغط الظروف التى شاهدتها فى المعسـكرات** • كما أصبحت على يقين من أن الحكومة ــ ومثلها كمثل أى فرد ــ اذا كانت تؤمن بالمبدأ القائل أن الغاية تبرر الوسيلة • فانها ترتكب أشد الجرائم عنفا وضراوة • ولن تكون هناك سعادة أو عدل فى هذا العالم • ما لم تعمل الانسانية للحط من شأن هذا المبدأ المشين واعتباره من المبادىء الزائفة • وليكن هدفها الاخير واضحا تمام الوضوح مما يضمن حضارة الانسانية فى المستقبل • ولا يكون الهدف هو اعدام الملايين من البشر على هذه الصورة • فذلك لا طائل تحته بل هو الاجرام بعينه •

ثم أن ستالين الذى يقضى على حياة عشرات الملايين من الشعب الروسى باسم الشيوعية • لم يرتكب جرما فحسب • بل بسبب عجرفته وأنانيته قد ارتكب خطأ فاحشا ، فقد أخرج من نطاق الشـيوعية معظم الشـعب الروسى ممن كان يعتمد عليهم • وبذلك فقد الفرصة التى كانت تتيح له تحقيق أغراضه ، وحتى لو كان من أنصار نظرية نيتشه فلم تكن هناك ضرورة لكل هذه الاغتيالات •ولكن الرجل لن يوفق الى ادراك هذه الحقيقة• **وكان نيتشه يجادل فى أن عظماء الرجال لا يدركون ــ بصـورة عامة • حقيقة مبادىء الخير والشر • كما أن** ستالين • بما لديه من قوة وجبروت ــ يعمل على هلاك مئات الملايين من البشر سـواء فى داخل روسـيا أو فى خارجها باسم الشيوعية •

واذا كان ما أعتقده خطأ فمن الافضل نهاية الحياة من الآن • اذ أن هذا العالم ليس سوى معسكر اعتقال لا حدود له •

بعد عدة أمســيات جاء النقيب شــابيرو لزيارتى • وكان يميل الى الثرثرة بشكل ملحوظ فأخذ يقول : « لقد كنت أفكر فى مدى ما وصلنا اليه من تغير الاحوال وكيف توصلنا الى أداء واجباتنا على أحسن وجه » • ثم واصل حديثه فى تفكير فلسفى : « ففى تلك السنوات التى تلت الثورة كانت المحاكم العسكرية تسرع فى اصدار حكم الاعدام دون ترو • وكان هذا هو السبب فى موت كثير من الابرياء • ولكن اللجنة التشيكية غير العادية أدت مهمتها على خير وجه • وطردت المعادين للثورة خارج البلاد • ومنذ اعلان السياسة الاقتصادية تمكن الكولاك وأبناؤهم من رفع رءوسهم وهم يباشرون زراعتهم ،فقد أصبحوا موضع رعاية وعناية وكانوا يستحقون ذلك •

لقد تحققت أغراضنا • وطهرت البلاد من أعداء الاشتراكية • وأخذت الشيوعية تسير قدما • ولكن لابد أن يكون هناك شىء من الخطأ • شىء غاب عن الاذهان • وألا لما جرت حادثة توخاتشفيســكى وما شابههــا من المؤامرات » •

ثم سألنى : « هل تعرف فودوبيانوف ؟ » فأومأت برأسى موافقا وقلت أنى سبق أن سمعت عنه • وواصل حديثه :

« كان فودوبيانوف يراقب أحد المواطنين فى موسكو مدة تزيد عن الخمس سنوات • وفى تلك الفترة تمكن من أن يعرف كل شىء عنه فيما يتعلق بشخصية هذا المواطن • ومن كان يجتمع بهم • وأين كانت جولاته عادة • وكيف كان يقضى أوقات فراغه • وما لبث أن عرف عنه كل شىء يريده •

ومضت خمس سنوات قبل أن تتمكن هيئة القيادة من اعتقال هــذا المواطن • ولكن كان اعتقــاله مع مئات آخرين ، وفى عصر الشـــيوعية العسكرية كان اعتقال مثل هذا الشخص يتم فورا لا محالة ، وكان لابد من اعدامه •وبذلك تستريح منظمة أمن الدولة ،وهناك مئات من هذا النوع يعملون فى الخفاء ويترقبون الفرص لالقاء ضربتهم ، ثم أن مبدأنا الاساسى هو اهتمامنا بالعمل ومهارتنا فى تأديته ،ومن غير ذلك كان لابد من الوقوع فى أخطاء كثيرة » •

وهكذا كان حديث الكابتن الصلب الرأى بوصفه مندوبا للمخابرات المضادة فى الاتحاد السوفييتى الجديد ٠

وجال بخاطرى كيف كانت هذه الآراء خاطئة فى أذهان كثير من المهاجرين الروس وحتى فى أذهان كثير من الحكومات الاجنبية ٠ فاذا كانوا يعتقدون أن فى الاتحاد السوفييتى الجديد لم يعد هناك اعدام باطلاق النار ٠ ولم تعد هناك تلك الوحشية المعروفة فى الحرب الاهلية ٠ فانهم يخدعون أنفسهم الى حد خطير ٠ كما أن التشيك ـ أولئك العملاء الجدد لمنظمة سمرش ـ أصبحوا يعرفون دورهم فى هذا الصدد حق المعرفة ٠ وكان هذا هو السبب فى تطورهم ٠ وعلى هذا الاساس قام الاتحاد السوفييتى الجديد ٠

وواصل شابيرو حديثه : « والآن أصبحنا نسمح للقوم بالذهاب الى الكنيسة ونحن على ثقة مما لدينا من المعلومات الكافية ومن مدى مقدرتنا لدرجة أننا ـ فى أية لحظة ـ نستطيع أن نعرف أن كانت كنيستنا قد جاوزت الحد وسارت فى اتجاه خاطىء ٠

وأننا ـ اذا حدث ذلك ـ سوف نسحقها تحت أقدامنا كما لو كانت حشرة تدب على الارض » ٠

وأخذ شابيرو يروى أمامى : « وحدث ذات مرة أن أتيحت لنا فرصة طيبة ٠ اذ اجتمعت أنا وفودوبيانوف وموكاشيفو مع اثنين من مراسلى الجيش الامريكى ،وبطبيعة الحال كانا يتظاهران بأنهما من مخبرى الصحف٠ وفى الحقيقة كانا من الجواسيس ٠ وانتدبنى شابايين للعمل بالاشتراك مع فودوبيانوف كمرشدين لهذين المراسلين . وكانت الاوامر تقضى بأن نرشدهما الى الاماكن المصرح بمشاهدتها ٠ وبعد جولة دعوناهما لتناول الشراب وأحضرنا معنا فتاتين للترفيه عنهم ٠ بينما كان أحدنا يفحص محتويات أمتعتهما » ٠

وعندما وصل الكابتن الى هذا الحد فى قصته سمعنا طرقا على الباب ٠ وكانت تلك الفتاة التى أغراها شابيرو فى حفل الملازم شرنوزوف ٠ وعند دخولها الغرفة عرفت شخصيتى وأحمر وجهها خجلا ٠

وحياها شابيرو بقوله : « أهلا يا زيسيا » ·

وهنا قالت الفتاة فى صوت خافت : « كنت أريد أن أراك لحظة قصيرة· وعلمت أنك كنت هنا » ·

ودعاها شابيرو للجلوس ·

ولكنها اتجهت نحو البيانو وأخذت تعزف عليه · فمكثت بضع دقائق مراعاة لادب اللياقة ثم استأذنت للخروج معتذرا بما لدى من العمل فى مكتبى ، ورافقنى شابيرو الى الباب وهو يبتسم خجلا ويهمس فى أذنى : ما رأيكَ فيها ؟ » ·

« على قدر من الجمال والظروف » ·

ثم قال متفاخرا : « لو كنت تعرف فقط ···· » ·

وقرأت فى عينيه أكثر مما كان يوضحه بالالفاظ · وعندما ألقيت اليهما بالتحية عند خروجى لاحظت أن الفتاة قد رقدت على الاريكة فى هيئة مثيرة · وتعجبت أن كانت الفتاة تعلم ـ كما يعلم زملاؤه ـ بأن شابيرو عليل ·

٩

جاليـــا

لم تمض أسابيع قليلة حتى نقلت مرة أخرى رئاسة المخابرات المضادة سميرش ، وكان مقرنا الجديد في جبهة أوكرانيا الرابعه يبعد عن ريبنيك من أعمال ـ بولندة بحوالى خمسة كيلو مترات ، وأقمنا في قرية صغيرة كانت قد نجت من الاغارات الجوية بمعجزة من السماء ، وقامت مجموعتنا المختصة بالعمليات من فادفيتس وانتقلت وراء مقر الرئاسة في بضعه أيام ٠

واثناء رحلتنا الى ريبنيك لم تقع أنظارنا الا على القرى التى أصبحت أثرا بعد عين ، والحقول التى دمرتها القنـابل ، والاراضى التى احترقت وتحولت الى تضاريس وأكوام من الاتربة ، واختفت المدن بأكملها عن الانظار ٠ وكان لابد لنا من اجتياز جسور مؤقتة تمتد فوق الانقاض ٠

ولدى وصولنا استقبلنا ميجر جرتشين ورحب بنا بصورة ودية على غير عادته ٠ وكان قد أعد الاماكن اللازمة لاقامتنا وطلب منا أن نستريح من عناء السفر ٠ ثم أخذ فى الحديث يقول : « نحن هنا ـ أيها الرفاق ـ بالقرب من ألمانيا ونكاد نشم رائحة الالمان من هذا المكان ٠ ولدينا أعمال كثيرة لابد من انجازها ٠وقد تم طرد جميع السكان المدنيين خارج القرية٠ ولم يبق هنا سوى رجالنا من منظمة سميرش ٠ وســوف تكون هنـاك حراسة مشددة حول مقر الرئاسه ٠

وأقيمت الحواجز حول جميع الطرقات المؤدية الى مـدخل القرية ٠ ولم يسمح بالدخول الى منطقة القيادة الا لرجال سميرش وحدهم ، وكان ميفودى هو أول من وقع عليه نظرى ٠ فقد كان يجلس فى صالة الطعام المعدة لصغار الضباط ٠ والى جواره كان عـدد من أهل الصرب عابسى الوجوه ولا يرتاح الانســان الى مظاهرهم ٠ وكانوا يتحـدثون بلغتهم ويدقون على مائدة الطعام بقبضاتهم أثناء مناقشاتهم ٠

وكان هناك مئات من الضباط لم يسبق أن رأيت أحدا منهم • وكانوا يدخلون قاعة الطعام ويخرجون منها • ولا يلقون لاحد بكلمة واحدة •

فأوضح لى ميفودى حقيقة الامر وقال : « تصور أن كل هؤلاء من رجال مجموعتنا » وقلت له : « ولكنى لم أر مثل هذا العدد الكبير من قبل » • فقال ميفودى :

« أظنك لا تدرك حقيقة هذا القسم وما يضمه من أفراد عديدين » • وقلت موافقا : « ربما ذلك • فلم يسبق لى العمل فى أى مكان آخر غير مقر الرئاسة » • فقال : « لست وحدك من يرى عــددا كبيرا من هؤلاء الضباط لاول مرة • وفى الحق أنا أرى بعضا منهم لاول مرة أيضا ، وفى كل يوم يأتينا ضباط جدد ويتناولون وجباتهم الغذائية ثم يغادرون الى غير رجعة • حقا أن القسم الثانى منظمة عجيبة » •

وبالرغم من وفرة الطعام وجودته كان ميفودى هزيلا عليلا ، وكان وجهه الشاحب يدل على أنه أصبح أكبر سنا مما كان عندما اجتمعت به لاول مرة •

وسألته : « هل تشعر بالمرض ؟ » فتردد وهو يقول :

« لا • ليس الامر كذلك • آن ما أشكو منه هــو انخفــاض روحى المعنوية • وفى ظنى أن العلاج الوحيد لهذا الشــعور هو الموت وراحة القبر » •

ولم نتبادل الحديث بعد ذلك حتى غادرنا قاعة الطعام وسرنا معا فترة دون أن نتحدث •

ثم قال ميفودى فجأة : « لم أعد مرتاح الضمير • وغالبا كنت ثالث القضاة فى محكمة عسكرية وكنت أشترك فى اصدار حكم الاعدام على المتهمين ، وأنت لا تستطيع آن تقدر مدى استيائى من مثل هذه المواقف ، حيث يتلو المدعى العام قائمة الاتهام ويطالب بالعقوبة الكبرى، وكان القضاة الثلاثة يؤيدون هــذا الحــكم • فيؤخــذ المتهم الى منصة الاعــدام رميــا بالرصاص » •

وواصل كلامه : « وفى مثل هــذه الظروف لابد أن يبدو الانســان مريضا شاحب اللون • وفى رأيى أن الانتحار أفضل وأقرب منالا » •

ثم دعاني يقول ساخرا : « لماذا لا تزورني في يوم ما • فانه يسعدني أن أدعك تجلس وكأني على منصة المحكمة العسكرية » •

فبادرني بقولي : « كن رزينا في حديثك • أنك لا تدري معنى ما تقول » •

وهنا قهقه بصوت عال وقال : « اذن أنت تود أن تظل مرتاح الضمير ناعم البال » • وبينما كنت ألقي عليه نظرة فاحصة لاحظت أن حدقتي عينيه متسعتان مما يدل على أنه لم يكن بكامل قواه العقلية ، وكان هذا شيء يدعو للاسف ولكني — في نفس الوقت — كنت أشعر بالعطف على صديقي القديم •

وفي الساعة الثالثة بعد ظهر اليوم التالي أرسلني ميجر جريشن لمساعدة جاليا في القسم الرابع • والتقيت برئيس حراس السجن حيث دلني على مكتبها • وقال « هي مشغولة باستجواب أحد البولنديين في طي من الكتمان » •

وطرقت الباب فلم يرد أحد • وعاودت الطرق • واذا بها تقول : « أدخل وكانت ترقد على أريكة صغيرة في أحد أركان الغرفة • ونهضت عندما دخلت • ثم ابتسمت وهي تفرك عينيها وقالت بينما كانت تربط أزرار قميصها العسكري :

« أين كنت مختفيا يا نيقولا ؟ » فقلت لها :

« كنت أعمل في فاديفتس » •

« هل كنت تعمل مع كابتن شابيرو ؟ » •

« نعم » •

فقالت ضاحكة : « يخيل لي أنك كنت تعمل مع من لا يكف عن مطاردة الفتيات البولنديات » •

وابتسمت بدوري وقلت : « أجل • كان هناك ما يشبه ذلك أيضا » •

« انى أعجب منكم أيها الرجال . أليس لديكم من فتيات الروس ما يكفيكم فى مقر الرئاسة ؟ وأنت تعلم أن هناك كثيرات منهن . ولكن لا . أنتم ترغبون فى فتاة بولندية أو تشسكية أو مجرية أو أى نوع من المستهترات ! » .

« أرجوك يا جاليا . أن مثل هذه اللغة لا تليق بك » .

فأجابت بصوت مرتفع يدل على شعورها بالضيق : « عجبا . كيف لا تليق بى هذه اللغة ، كنت أظن أنى مطلقة التصرف فى الحديث كيف أشاء . وفى الحق أن أمرك يبعث على السخرية ، اذ من المؤكد أنك أصبحت تدرك أنه لا يصح الخوض فى حديث طويل حول الاعمال التى تؤديها . ولن يجديك شيئا سواء استخدمت الفاظا مهذبة أو التزمت الحياء فى حديثك ، فلست سوى فرد من التشسيك . وانى أذكر كم كنت أكره التشيك من صميم فؤادى » .

وفجأة قطعت الحديث وأخذت تفكر قليلا ثم قالت : « أن هذه سخافة لا معنى لها . ماذا أقول ؟ أنك اذا تضايقت من هذا الحديث فأنت فى حل من سماعة » .

فقلت لها : « لا تهتمى بالامر الى هذه الدرجة » .

وقالت : « نحن فى وقت يا نيقولا ـ لابد لنا من العمل حتى ولو كنا لا نميل اليه . كما أنى أشعر ببرد شديد منذ فترة مضت » .

ثم نهضت جاليا وتوجهت نحو الباب حيث أمرت رئيس الحراس باحضار الشاب البولندى . وأتيحت لى فرصة لكى ألقى نظرة على محتويات الغرفه . فرأيت مكتبا بين النافذة والباب وحوله ثلاثة مقاعد . وأريكة صغيرة فى أحد الاركان . وهناك موقد . وكان سقف الغرفة مغطى بألواح الخشب . وجدرانها يغطيها التراب والقذارة . وعليها أرفف بها عدة ملفات مشحونة بالاوراق .

وكان الشاب البولندى حسن المظهر وفى حوالى الثلاثين من عمره . ويرتدى قميصا فى هيئة منتظمة . وقد بدا من صحته الجيدة ووجهه النظيف أنه اعتقل من وقت قريب ، ثم جلس على مقعد دون أن يذكر كلمة واحدة ووضع يديه على ركبتيه وأخذ يحدق النظر نحو النافذة .

فنهضت الفتاة واتجهت نحو البولندى وفى يدها خرطوم من المطاط ٠ وقالت بصوت مزعج : « اذن أنت تفحص النافذة ٠ ليس هناك ما يدعوك الى ذلك فلن تستطيع الهروب منها ٠ قم من مكانك واقترب من النافذة ! »٠

وأطاع البولندى أمر الفتاة فقالت له : « افتحها اذا شئت ٠ واهرب الى أى مكان تريد ! » وفتحت له النافذة وأطل منها الشاب حيث رأى تحتها أحد الحراس مسلحا بمدفع رشاش ويسير فى بطء جيئة وذهابا ٠

وأخذت جاليا تسخر من الشاب وتضحك قائلة : « لك أن تحاول الهرب فان مصيرك الموت على أية حال ٠ فماذا تخشى ؟ » وأصبحت تبدو كالنمرة المفترسة واختفت مظاهر الوداعة التى كانت ترتسم على محياها منذ لحظة مضت ، فلم يكن أمامى سوى امرأة قاسية القلب تستمتع بآلام الموت التى كان يترقبها ذلك الشاب القوى ٠

ثم صرخت فى وجهه تقول : « أنك لجبان لعين ٠ انى أعدك بكلمة الشرف أنك سوف تموت بطلقات النار مهما يحدث ٠ أليس هذا مما يشجعك على محاولة الهرب ؟ ثم أنك اذا بقيت هنا فلابد من موتك على أية حال ٠ فاقفز من النافذة أيها الجبان ٠ اقفز قبل فوات الوقت ! » ٠

فهز البولندى رأسه وهو يهمس : « لا ٠ لن أفعل ذلك » ٠

« ثم تدعى بأنك جاسوس ! ولماذا تدعى أيها الحقير ! اجلس هنا! كم قطعة من الفضة دفعت ثمنا لشرائك ؟ » ٠

وجلس البولندى صامتا ٠

« انى لم أضربك منذ وقت طويل ٠ أجبنى أيها الفاجر الدنىء ! كم قطعة من الفضة استلمتها ثمنا لشرفك ؟ » ٠

فأجاب الرجل بصوت غاية فى الهدوء : « لم أعرض نفسى للبيع » ٠

« أنت كاذب فيما تقول ! أيها الوضيع لقد بعت نفسك كما لو كنت امرأة منحرفة ٠ وفى الحق أن مثل تلك المستهترة تعد قديسة بمقارنتها بك ٠ فهؤلاء يتاجرون بأجسادهن ولكن أمثالك يبيعون قومهم وأوطانهم » ٠
فزمجر يقول : « هذا محض افتراء » ٠

« لا تذكر مثل هذا القول مرة أخرى وإلا ـ بحق السماء ـ سوف أنتزع الجلد من فوق جسدك : هل تسمع كلامى ؟ » ٠

ولم يرد البولندى على سؤال الفتاة التى اقتربت منه وأخذت تلوح بخرطوم المطاط أمام عينيه ثم قالت : « يكفيك حماقة أيها الغبى ٠ ألم تفهم بعد ؟ » ٠

فأخذ البولندى يتطلع حولهفى يأس ظاهر ثم قال : « لا أفهم ما تقولين » عند ذلك قمت بترجمة ما قالته الفتاة أمام الاسير ٠ وقاطعتنى قائلة : « هو كاذب ٠ هذا الحقير ٠ أنه يفهم ما قلته تماما ٠ أنه يفوق غيره من البولنديين من حيث مكره وخداعه » ٠ وصرخت فى وجهه تدعوه باقسى اللعنات وترفع خرطوم المطاط أمام عينيه ٠

فاغمض البولندى عينيه وأخذ يقرض بأسنانه وهى تضربه بخرطومها فوق وجهه وتكرر ذلك ثلاث مرات ٠

ثم أخذت تواصل الضرب وهى تتفوه بأحد الانفاظ وتقول : « سوف أضربك حتى تعترف أو تموت هنا » ٠

ولاحظت وجه الشاب وقد امتلأت بالجروح ٠ فصعد الدم الى رأسى ٠ وأخذ قلبى يخفق اشفاقا عليه ٠ واعتقدت أن البولندى كان جبانا حقا ٠ فلم تكن لديه الشجاعة الكافية لكى يمسك بذراع الفتاة أو يتقى تلك الضربات القاسية ٠

وبعد خمس دقائق شعرت الفتاة بالتعب ٠ فألقت بالخرطوم على الارض وجلست الى مكتبها ٠ وأخذت تعبث فى ملف الاسير وتقلب ما فيه من الاوراق ٠ وكانت ترتعد وتحرك شفتيها فى هيئة عصبية ٠ وكان يبدو فى عينيها ما يدل على أنها كانت أقرب ما يكون الى فقد قواها العقلية ، كما بدا على وجهها الشحوب والهزل ٠

وأصبح وجه الشاب مغطى بالجروح والاصابات ٠ وسالت الدماء على صدره وقميصه ٠ وجلس على مقعده لا حراك به ٠ وكانت عيناه توحى بأنه قد أصبح فى عداد الاموات ٠ ولم يحاول أن يتحرك أو يبكى لما حدث له ٠

واتضح لى أنه لم يكن جبانا مطلقا · وأنه من الخطأ أن ينسب اليه الجبن · فقد كان رجلا قوى الارادة ، لان الجبناء يتصرفون بصورة مختلفة تحت ضغط مثل هذا العدوان ، ومن الجائز أنه أصيب بهستيريا وأصبح لا يشعر بشىء ·

وعادت الفتاة جاليا تسأله : « أين كنت فى المدة بين أول يناير والعاشر منه ؟ » وكان صوتها قد هدأ كثيرا وخفت حدة غضبها وهياجها ·

فأجاب البولندى بكل صعوبة : « فى أوسفنتتريم » وكان الدم قد تجمع على شفتيه وعاقه عن الكلام بسهولة ·

وتبين لى أن هذا المكان كان بالقرب من أحد معسكرات الاعتقال التابعة للنازى ·

وسألته الفتاة : « ماذا كنت تعمل هناك ؟ » وكان رده :

« كنت أعمل فى أحد المصانع » · فقالت الفتاة :

« أى مصنع هذا ؟ » فقال :

« ا·ج· فارين » ·

« من كان رئيسك المباشر ؟ » ·

وقال الشاب فيما يشبه الهمس : « أحد الالمان · ولست أعرف اسمه » · فقالت الفتاة : « أنت تكذب مرة أخرى يا صديقى العزيز ـ أنت كاذب ! » وأخذت ترفع صوتها كسابق عهدها · ولم تعد قادرة على الاحتفاظ بهدوئها فبصقت فى وجهه وقالت : « انى أعلم أنك كنت فى نوفى سوتس من أول يناير لغاية العاشر منه » وكان جوابه :

« هذا لا ينطبق على الواقع » ·

وهنا تناولت جاليا خرطومها وهى تصيح : « ماذا تقول ؟ » ·

فرد السجين بصوت مرتفع : « هذا مجرد افتراء » ·

وأحمر وجه الفتاة من شدة الغضب وأخذت تحرك شفتيها فى قسوة ظاهرة ثم واجهته قائلة : « سوف أقتلك أيها الثعبان ! أيها الوقح ! » ·

وسألها الاسير متضرعا : « هل تسمحى بمنشفة أمسح بها عينى ؟ » فقالت : « لا · أنا لا أسمح بذلك » ·وكان صوتها يدل على شدة الكراهية· ثم تناولت خرطومها وأخذت تهوى به على وجه المسكين دون شفقة ·

ولم أستطع أن أتحمل الموقف أكثر من ذلك فقلت لها : « أظن أن الامر لا يحتاج لوجودى هنا لاداء مهمة الترجمة » ·

فقالت وهى تتجه الى ناحيتى : « ماذا تقول ؟ أنت ومشاعرك البورجوازية الرقيقة سوف تبقى هنا· سوف استجوب هذا الحقير التافه حتى مطلع الفجر · فاما أن يعترف وأما سوف أقتله هنا وفى الحال » · ثم تحولت الى الاسير تسبه وتلعنه بأحط الالفاظ وتطلب منه أن يعترف · وعادت تؤذى هذه الضحية التى لا حول لها ولا قوة وتصرخ فى وجهه : « والآن هل لك أن تخبرنى أين كنت فى المدة من أول يناير لغاية العاشر منه ؟ » ·

ولم يكن لديه سوى جوابه السابق : « فى أوسفنتزيم » ·

فأخذت تكيل له الضربات كما لو كان عبدا مملوكا لها · وكانت تضربه على رأسه ووجهه وعلى أكتافه وظهره ورجليه وقدميه ·

وظننت أنها سوف تسقط من شدة الاعياء ولكنى كنت مخطئا فى ظنى · اذ واصلت الضرب لمدة عشر دقائق أخرى · ثم أخذت تلهث وترامت على مقعدها وسندت رأسها على حافة المكتب ·

ولم أعد أذكر أسئلة الفتاة ولا أجوبه الاسير · وكل ما عرفته هو أنه لغاية وجبة المساء ــ لغاية الساعة العاشرة مساء ــ كانت الفتاة تتميز غيظا وتستأنف قسوتها على الرجل بمعدل كل عشر دقائق ·

وفى الساعة العاشرة مساء نادت الرقيب سوفوروف وقالت له :

« خذ هذا الى زنزانته · ولا تنس أن تعطيه بعض الماء لكى يغتسل » ·

وقاده الحارس بعد أن أصبح السجين فى حالة يرثى لها ·

والتفتت الى ناحيتى تقول : « والآن · دعنا نذهب لكى نتناول بعض العشاء » وبقيت صامتا لا أرغب فى الكلام وحتى لا أريد أن أرى وجه الفتاة ·

وأنعشني ذلك النسـيم البـارد الذى كان يهب في تلك الليلة • وساعدنى على ازاحة هذا الكابوس الذى أجبرت على مشاهدته • وأخذت الفتاة تهدىء من روعى وتقول :

« أرجو ألا تكون غاضبا منى » • وقالت ذلك ونحن فى طريقنا الى صالة الطعام •

فقلت لها : « لست غاضبا • ماذا يهمنى من أمرك » •

وقالت : « لا • أنت تشعر بالضيق • لست أفهم حقيقتك ولكن ذلك لا يهمنى • لننسى ما حدث • أخبرنى عن بعض شـئونك الغراميـة فى فاديفيتس وكان ردى فى شيء من البرود : « لسـت معتـادا مثل هـذا اللهو !! » فسألت :

« هل هذا حق ؟ » •

« انى لا أتدخل فى شئونك الخاصة يا جاليا » فقالت :

« اسمع يا نيقولا • ليس لى حياة خصة • ومنذ ستة أشـهر كنت ألهو مع الرجال فى كل وقت ، ولكنى الآن ليس لدى أوقات فراغ كما انى لا أشعر بما يدفعنى الى حياة المجون . وليس أمامى سـوى العمل ليلا ونهارا على السواء • وليس لدى متسع من الوقت كما ليس هناك مكان يصلح لمداعبة الرجال • ويسعدنى الآن أن أحظى بساعة واحدة أو اثنين حيث أخلد الى الراحة والنوم • حقا أن حياة التشيك لم تعـد سـهلة هنية » •

ثم سألتنى : « هل لديك لفافة من التبغ » • فقدمت لها سـيجارة روسية وأشعلتها لها • وشكرتنى وهى تبتلع الدخان ثم تنفثه من فمها • وقالت : « هذا كل ما أبتغيه لكى أشعر بالسعادة • فان ما فات لن يعود • ولا يستطيع الانسـان أن يهرب من القـدر له • تلك هى حيـاتى الآن نيقولا » •

وعند وصولنا الى قاعة الطعام لم تكن هناك مقاعد خالية • وأخيرا عثرنا على مقعدين حيث جلسنا متجاورين • وأمامى على الجدار كان ضباط سميرش يعلقون لافتة تقول : « **سوف نقضى على الوحش الفاشستى فى مكمنه** » •

وفى ذلك المساء لم تتناول جاليا من الطعام الا قليلا • وكان الضباط ممن يعرفونها يستقبلونها بالتحية ولكنها كانت تتغاضى عنهم وتتظاهر بأنها لا تراهم • وأخيرا عندما أوشكت أن أنتهى من الطعام سألتنى :

« هل نذهب الآن ؟ » فقلت لها :

« لا • دعينا نجلس هنا فترة للراحة والاستجمام » فقالت :

« نستطيع أن نستريح فى غرفتى » •

وتبعتها الى الخارج • ولم نذكر كلمة واحـدة ونحن فى طريقنـا الى غرفتها • وبعد أن دخلنا قالت : « ها قد وصلنا • اجلس يا نيقولا » •

ولفت نظرى بعض بقع من الدماء قد جفت على أرض الغرفة فقلت لها :

« يبدو لى أنك تعيشين فى مأساة مفجعة » •

فقالت : « ماذا تعنى بتدخلك فى شئونى الخاصه ؟ » •

« أنا لا أحاول التدخل فى شئونك » •

وقبل أن انتهى من جملتى • توجهت نحو الباب ونادت على الحارس لكى يحضر لها الشاب البولندى •

وأدركت أن الفتاة كانت تحرص على عدم ذكر أى شىء يتعلق بماضيها• فقد استولى عليها اليأس من حياتها • ولم يعد هناك ما يدعونى لمناقشتها أكثر من ذلك • وأصبحت تسير على نهج التشـيك حتى تصاب بالجنون أو تموت رميا بالرصاص على أثر اتهامها بجريمة القتل •

وحضر الحارس ومعه الشاب البولندى • حيث استأنفت أن تلحق به الاذى كما كانت تفعل قبل خروجنا لتناول العشاء •وكانت الساعة الرابعة صباحا عندما جاء الحراس لكى يحملوا جثة هذا البولندى الذى أشرف على الموت • بعد ذلك ارتمت الفتاة على الفراش وأغلقت عينيها استعدادا للنوم دون أن تخلع ملابسها •

وأخذت أترنح كرجل مخمور وأنا فى طريقى الى مسكنى حيث لجأت الى الفراش دون أن أخلع ملابسى • وفى بضع ثوان نمت نوما عميقا •

ومضت أيام قبل أن أفيق من هذا الشبح المخيف •••

١٠

التقدم أخيرا

كان ذلك فى أواسط أبريل عندما دعانى كابتن بوتابوف · ولاول مرة أخذ يناقشنى حول الموقف السياسى العام فى قطاعنا بالقرب من ألمانيا، وبدت مناقشته على غير العادة · ومما يبعث على الدهشة أن حديثه كان يدور حول الحياة فى أوروبا الغربية وفى الولايات المتحدة ، باعتبار أنها أفضل من الحياة فى الاتحاد السوفييتى · ومما قاله : « ومع ذلك فان المستقبل بأيدينا · اذ أن الشئون الاقتصادية اذا سارت على خير ما يرام فسوف يؤدى ذلك الى الاشتراكية ثم الى الشيوعية » ·

وكان الكابتن مقتنعا بذلك · ولكنه فشل فى اقناعى بعد حديث طويل · وكانت الشئون الاقتصادية لا تهمنى فى قليل أو كثير · فقد كان اهتمامى موجها نحو أولئك الاخصائيين فى المنظمات الروسية التى كانت تعمل من وراء ستار ، ولغاية الآن لم أكن قد سمعت الا عن بعض أنباء غامضة عن المجموعات السرية والتى كانت معادية للشيوعية · ولم أستطع أن أتبين من هم ضباط سميرش المسئولين عن هذه الشئون ، فحولت الحديث الى مناقشة حول مشكلة الروس المهاجرين · مما جعله يشعر بالكبرياء والفخر لسؤاله عن رأيه فى مثل هذا الموضوع الهام · وأخذ يتبادل معى وجهات نظره بمطلق الحرية ·

فقال : « فى الواقع ليس لدى معلومات كثيرة عن المهاجرين الروس أو المنظمات التى امتد نطاقها خارج الاتحاد السوفييتى · فليس ذلك من شئونى انما تدخل فى اختصاص الرائد نادفورنى ·

وكان هذا هو الاخصائى الذى كنت أبحث عنه · والرجل الذى يتولى مباحث سميرش التى تجرى التحريات عن منظمتنا السرية ·

وسألته : « هل هذا هو الضابط الذى له خطيبة فى أوزجورد ؟ » فكان رد الكابتن بالايجاب ·

وكان هذا هو كل ما أبتغيه • ولكى لا أثير أى اشتباه تركت الكابتن يتمادى فى حديثه كيف يشاء •وبدأ فى مناقشة ادارة المخابرات البريطانية• ويشير الى أن مخابرات السوفييت تفوقها من حيث المقدرة والاعداد •

ومن بين ملاحظاته قوله : « ليس لدينا تقاليد وتجارب البريطانيين • ولكن مخابراتنا تحقق نجاحا فى الدول الرأسمالية • وتنتفع الى أقصى حد بخدمات الاحزاب الشيوعية وبالحرية التامة فى هذه الدول الديمقراطية مما يتيح لنا الدخول فى معظم الاماكن الاستراتيجية دون مشقة كبيرة •

وواصل حديثه يقول : « أضف الى ذلك أن جميع الدول الرأسمالية لديها منظمات قليلة من فروع المخابرات • وكما شاهدت بنفسك فان جاسوسيتنا المضادة تعمل دون أى عقبة تقف فى سبيلها • **ثم أن اسمنا يتحدث عن نفسه : « الموت للجواسيس ! سميرش » •**

وانقطع الحديث بدخول نفر من الجنود فاضطر النقيب بوتابوف لمغادرة المكان فى الحال ، وشعرت بالارتياح للمعلومات التى حصلت عليها• ثم انى سبق أن تعرفت بالرائد نادفورنى وذلكعن طريق خطيبته التى كنت أعرفها فى أوزجورد وبدا لى أنه مطمئن من جهتى ، كما تذكرت أنه كان دائما يشتبه فى الكربات الروسية ويسأل عنها أسئلة كثيرة • والآن جاء دورى لكى أسأله • اذ لابد أن أقف على مدى معلوماته عن

وعند ظهر اليوم التالى انتظرت فى صالة الطعام أجول بنظرى بين الحاضرين حتى لمحت الميجر وهو يغادر المائدة • وعند خروجه من الباب اصطدمت به قصدا وهو فى طريقه الى الخارج •

ولم يكن الرائد فورتى متزمتا ويتسم بمظاهر الجد بنوع خاص • وكان أسمر اللون • طويل القامة • مستدير الوجه وله أنف غليظ • ولم يتغير مظهره كثيرا منذ أن رأيته فى أوزجورد لآخر مرة •

ورحبت به قائلا : « أهلا بالرفيق الميجر » ورد التحية •

وكان الرائد يدغم حرف الراء فى حديثه قليلا ، وكان له طابع فى نفسى أنه قد يكون يهوديا • ولكننى لم أكن على يقين من ذلك الآن •

فقلت له : « أود أن أتحدث معك » وقال أنه على استعداد لذلك فى أى وقت • وبدأت الحديث بقولى : « أخشى أننى لا أعرف كثيرا عن تطورات الموقف فى الكريات الروسية • ووالدى لا يكتب لى الا فيما يتعلق بمتاعبه حول شئون الزراعة • ولابد أنك تعلم أكثر منى حول الموقف هناك • كما أعرف هناك فى أوزجورد من يراسلك فى أغلب الاحيان » •

فقال : « نعم • أن لدى آخر الانبـاء • وخطيبتى تعمل فى المجلس التشريعى بمدينة راد ، تعال معى ولنبدأ فى الحديث الآن » •

وسررت لدعوة الرائد • فقد كان أملى أن أعرف شـيئا عن مـدى معلومات رجال سميرش عن المنظمة السرية • وبدأت فى اعداد الاسئلة التى ألقيها على الرائد مباشرة • مع ملاحظة أنه كانت هناك أمور كثيرة لا أستطيع الخوض فيها • وكان مسكن الرائد على مسافة بعيدة من صالة الطعام ، وتوقفنا أثناء الطريق على مقربة من باب السجن حيث قال الرائد : « انتظر هنا برهة • سأزور صديقا لى • وسوف أعود على الفور » •

فقلت له : « سوف أنتظر فى هذا المكان »

ورأيت ثلاث سيارات للنقل من نوع ستوديبيكر تتوقف عند باب السجن ويهبط منها حوالى عشرين جنديا مسلحين • فاستقبلهم حارس السجن بقوله :

« لماذا تأخرتم حتى هذا الوقت ؟ » •

فنظر اليه ضابط ضخم برتبة الملازم وكان على رأس هذه الفرقة وقال له غاضبا : « ليس هذا من شأنك أنت » •

وفى داخل السجن كنت أسمع ضوضاء وجلبة • ومن خلال النوافذ رأيت عددا من الجنود يهرولون فى الطرقات • وفى مدى خمس دقائق رأيتهم يسوقون أمامهم عشرة من الاسرى الى خارج السـجن ويأمرونهم بركوب السيارات المرابطة على الباب •

ودار بذهنى أن هؤلاء مصيرهم الى الاعدام • فقـد كانوا فى حالة أعياء شديد ويرتدون أقذر الثياب • وكان شـعر ذقونهم واضحـا على

وجوههم ٠ وفى عيونهم أمارات الخوف القاتل ٠ وكان الجنود مسلحين بالبنادق الرشاشة ويحثون الاسرى على الاسراع فى السير ويلعنونهم بأحط الالفاظ ٠

فلم أجد من أن أحول نظرى عن هذا المشهد ٠

وأصدر ضابط الفرقة أمره بالمسير ٠ فتحركت السيارات وغادرت السجن ٠

وعندما تبين لى أننى كنت على وشك أن أعرف كل شيء أسعى الى معرفته ٠ وهو ما خاطرت بحياتى من أجله ٠ شعرت باضطراب وقلق شديد ٠ ودارت بذهنى الآف الاسئلة حول احداث الماضي ـ واخبار والدى ووالدتى وأخى و N. T. S. ثم فيرا و جاليا وكوفالشوك ٠

فأشعلت لفافة من التبغ وأخذت أدخن بشراهة حتى ظهر الميجر أخيرا استأنفنا السير الى مقر اقامته ٠

وقال الرائد أثناء السير : « انى آسف لانتظارك فترة طويلة ٠ فقد كان صديقى ثرثارا كالمرأة العجوز ٠ لا يتوقف عن الكلام مطلقا » فقلت له :

« لست أشعر بالضيق ٠ انى على ما يرام ٠ أيها الرفيق الميجر » ٠

وكانت غرفة الميجر تستخدم فيما سبق مكتبة فى منزل أحد البولنديين ممن يعيشون حياة البذخ والترف ٠ فكان هناك مكتب ضخم مزين بالنقوش الجميلة ٠ ومقاعد من الجلد وأريكة ٠ وصور على الجدران ٠ وسجادة فارسيه ٠ ودولاب مملوء بالكتب القيمة ٠ وزهريات ٠ وتماثيل ٠ ثم مقاعد أخرى مزدانة بألوان الصدف ٠ وتليفون على الطراز الفرنسى ـ وكل هذه المحتويات تدل على أن الرائد قد أدخل بعض التعديلات على هذه الغرفة الانيقة بعد أن تسلمها ، ودعانى للجلوس بعد أن أدار جهاز الراديو ٠ وقال : « بعد انتهاء الحرب سوف أطلب نقلى الى أرض الكربات ٠ أنها بلاد جميلة حقا » ٠ ووافقته على وجهة نظره ٠

وواصل حديثه يقول : « وربما يتوافر فى ذلك الوقت جانب من الاستقرار والنظام ٠ وهناك رئيس فرقتنا الاحتياطية فى الكربات الروسية

ضابط أنيق فى ملابسه يدعى لفتننت كولونيل تشيردينشانكو · ويؤدى هذا الضابط مهمته فى دقة وعناية ، كما يعرف كيف يعامل الرجعيين عندكم · وفى الحق أنك لابد شاهدت عددا كبير من السياسيين المنحرفين فى ذلك القطاع مثل برودى فنتزيك ورجال الحزب الزراعى ـ وحزبى N.T.S. و U.N.A. · وكل تلك الاحزاب المجرية البغيضة » ·

فسألته : « أليس أفراد حزب U.N.A. هم أولئك الانفصاليون من أوكرانيا ؟ » ·

« نعم · هم الذين أعلنوا فى أرض الكربات جمهورية مستقلة منذ سنة ١٩٣٩ ، ويرأسهم فولوشين · واثناء وجودنا فى أوزجورد تمكنا من القبض على قليل منهم ، وللآن لا يزال فولوشين مطلق الحرية · ولكنه لابد أن يلقى جزاءه فى وقت قريب » ·

وسألته فى هدوء : « وما هو هـذا الحزب S.N.T. الذى ذكرته الآن · كنت أظن أنى أعرف جميع تلك الاحزاب السياسية ولكنى لم أسمع من قبل عن حزب باسم S.N.T. » ·

فأعاد الميجر اسم الحزب صحيحا وقال : « ليس S.N.T. وانما هو N.T.S. وأفراده من الوطنيين الروس ويعملون فى سرية تامة · وليس غريبا أنك لم تسمع عنهم من قبل · فهم يعملون فى حرص شديد· ويقيمون وسط مجتمعاتكم دائما ·

ولا شك أنهم سيظلون هناك فى أمن وسلام · وقد أتيح لنا أن نتعرف على اثنين من رجالهم · هل سبق لك أن سمعت بمن يدعى ·()·

فقلت : « لا · لم أسمع عنه » ·

« أنه مما يدعو للاسف أن ليس هناك من يعرف شيئا عن هذا الحزب· وحقا هذا أمر يؤسف له لان حزب N.T.S. هو أخطر المنظمات التى تعمل الآن مع المهاجرين » ·

وقلت له : « أنه لامر غريب حقا انى لم أسمع عن ذلك من قبل » ·

« هؤلاء الانذال يوزعون منشوراتهم فى أوسع نطاق وفى سرية تامة ، ويطبعون مذكرات ونشرات لا عداد لها وتحتوى على مبادئهم ونظرياتهم وغير ذلك • وتصل الينا من مقر القيادة المركزية فى موسكو مقادير كبيرة من هذه المنشورات وسوف نكون على يقين من حقيقة أغراضهم » •

وشعرت بالحرج بينما كنت أناقش منظمة N.T.S. مع الرائد نادفورتى وأدركت حقيقة موقفى ومدى خطورته ، وبطبيعة الحال لم يكن من المستطاع أن أتوقف الآن • فلم أنجز سوى جزء من مهمتى • وعرفت شيئا عما كانت تعمله منظمة سميرش عن حزب N.T.S. ، وأصبح أمامى النصف الآخر من مهمتى لكى أقوم بتنفيذه • كما أصبحت أشعر بالسعادة بما تمكنت من معرفته لغاية الآن • وخاصة فيما يتعلق بأنه ليس بيننا مخبرون ولا عملاء ، وذلك لانى بعد ما شاهدته فى سميرش أدركت مدى أهمية عدم وجود الجواسيس ممن يتحملون المسئولية •

واستمر الحديث بينى وبين الرائد نادفورتى حوالى ساعتين • وقبل أن أغادر غرفتى كنت أشعر بالارتياح •

وفى اليوم التالى بينما كنت أسير فى الطريق نادانى النقيب شابيرو وقال :

« هل بلغتك أنباء عن كابتن سيكالينكو • تصور أن والده كان من زعماء القرية خلال احتلال الالمان لروسيا » •

وتبين لى أن هذا يعنى شيئا واحدا • وأن هذا هو السبب فى اختفاء كابتن سيكالينكو عن نظرى مدة طويلة ، وشعرت بالقلق لمجرد هذا التفكير ، ففى يوم ما قد يعرفون حقيقة أمرى • وايقنت أنه لابد لى من مغادرة مقر القيادة بأسرع ما يمكن • وسيكون من المتعذر أن أصل الى موكاشيفو وليس معى سوى تلك المستندات التى تسلمتها من سميرش • فتركت كل شيء للمقادير والظروف •••

١١

يوم النصر فى أوروبا

النهاية ... والبداية

في ٢٥ من أبريل كنت بصحبة المقدم دوشنيك والنقيب شابيرو ومعنا مجموعة من الجنود وكنا في طريقنا الى أوبافا فى بولندة ، وكان سفرنا بسيارة نقل ماركة شفروليه ، وعلمت من شابيرو أن أوبافا كانت مقر المخابرات المضادة التابعة للجيش .

وكان الطريق محوطا بالاخطار ، وكثيرا ما أخلينا الطريق عدة مرات لوحدات الحرس ومعداتهم منقاذفات اللهب وسيارات ستوديبيكر وزيسيس وكان المشاة يسيرون فى الطرق المتسعة ، وكانت صناديق الذخيرة محملة على عربات تجرها الخيول وهى تحدث ضوضاء أثناء سيرها ، وكان الضباط يصيحون والجنود يسخطون . وكان الاضطراب يسود الجميع .

كانت أسراب من طائرات ستورمافيك تطير فوق رءوسنا وقد علا ازيزها ، ومن ناحية الغرب كنا نسمع صوت الانفجارات وأصوات الرعد المنبعثة من قاذفات اللهب وهى تؤدى مهمتها الرهيبة .

وكنا نشاهد القرى على طول الطريق وقد اندلعت منها ألسنة اللهيب، وكان الدخان المتصاعد من المنازل المحترقة وأكوام النقش يكاد يحجب السماء ، وأينما سرنا كانت تتصاعد رائحة الحرائق فى كل مكان . وكانت المدن تحترق عن آخرها دون أن يكون هناك من يهتم بشأنها . ولم تبذل أية محاولة لاخماد النيران .

وكان الاتجاه الى الامام – والى الامام دائما . فكل فرد كان لديه مهمة خاصة ، ولم يكن هناك من يهتم بممتلكات الالمان التى كانت تساوى ملايين الدولارات بينما كانت تتحول الى أنقاض وأطلال .

وبمشاهدتي هذه المذابح تبينت لى الطبيعة البشرية وهى فى أسوء حالاتها تميل للتخريب والتدمير ، وكل فرد يتلقى أمرا بالتدمير والاحراق

والتنكيل كانت تغمره نوع من السعادة العمياء ، ومن هذه النقطة الجوهرية يبدو أن الجنس البشرى أصبح يتجه نحو أثبات الحكمة القديمة التى تقول أن الانسان يميل الى التدمير أكثر من رغبته فى الابتكار والتعمير ، فقد كان الجنود يلاحظون ألسنة اللهيب وهى تندلع من المبانى • ويضحكون ساخرين وهم يرون سحب الدخان تتصاعد الى عنان السماء • ومن وقت لآخر كان بعض الجنود يعبرون الطريق ليشعلوا النار فى المنازل التى لم تلحقها الكارثة •

ووصلنا المدينة فى اليوم التالى بعد أن احتلها الجيش الاحمر ، وكانت الطرقات مملوءة بأكوام الطوب والاثاث وأكياس الرمل وعروق الخشب وغيرها من الانقاض • وكانت هناك بعض ألسنة من الدخان لا تزال تتصاعد من أقبية المنازل • وبين المساكن ــ وعلى مسافات متقاربة ــ كانت هناك لافتات : « لا توجد ألغام هنا » •

وكان جنود الجيش الاحمر يجوسون خلال الديار التى مازالت جدرانها قائمة ــ ومررنا بالمدينة الى الجهة الغربية منها قبل أن نتوقف • وكانت الطرقات خالية من الاهالى ، ولم يكن هناك سوى الحراس بوجوههم المكفهرة يقفون وراء الحواجز • ولما كان هذا الجزء من المدينة قد بقى سليما الى حد ما • فقد وقع عليه الاختيار ليكون مقرا لعمليات المخابرات المضادة •

حتى اذا توقفت السيارة نزل منها المقدم دوشيتك • وبعد أن تبادل بضع كلمات مع الحارس دخل الى فيللا أنيقة ، وسرعان ما خرج الينا ضابط أسمر اللون وأمر الحارس بأن يسمح لنا بالدخول ، وبعد دخولنا أخذنا فى تنظيف أجسادنا وملابسنا مما لحقها من أثار الرحلة •

وفى الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم رافقت النقيب شابيرو فى رحلته الى معسكر صغير يبعد عن أوبافا بضعة كيلو مترات ، ولدى وصولنا أبدى النقيب استياءه وقال : « أن هذا المعسكر أشبه شىء بمقابر الاموات ، وانى على يقين أن هذه المدينة لن توجد بها امرأة واحدة » • وشعرنا بالارهاق من وعثاء السفر فلجأ كل منا الى النوم فى المكان المعد له •

وبعد يومين استدعى شابيرو لبعض الشئون وبقيت وحدى فى المعسكر ومعى جنديان من الجيش الاحمر • وهنا تبين لى أن رجال سميرش يطمئنون من ناحيتى • وهذا ــ على الاقل ــ فأل حسن •

وكان أول مايو يوم عيد كبير يحتفل به الجيش الاحمر · فأعد الجنديان المرافقان لى خمسة لترات من الفودكا احتفالا بهذا العيد · وانتهزت هذه الفرصة الثمينة فدعوت زويا ــ كبيرة ممرضات المعسكر ــ لزيارتى وبدأنا نحتفل بهذا العيد مع من معنا من الجنود · ولم تمض فترة طويلة حتى سكرت الفتاة وفقدت اتزانها · فحملها الجنود إلى المستشفى التى تعمل بها · وكان ذلك بناء على طلبى ، وعند عودتهم علمت منهم أنهم وضعوها فى الفراش حيث استغرقت فى نوم عميق ·

ثم شاركنا فى الاحتفال ضابط ضخم برتبة النقيب وتبدو على محياه أمارات البشر والسرور ، وتناول لترين من الفودكا المعتقة وحده ولكنه ظل متيقظا مالكا لشعوره كما لو كان طفلا حديث الولادة · ولم أتمكن من معرفة اسم هذا النقيب حتى غادر المكان وتبعه الباقون ·

بعد ذلك دعانى الجنود للخروج معهم لمشاهدة ما يجرى فى أنحاء المدينة وقالوا : « هناك ألوان كثيرة من المرح واللهو وعدد كبير من الفتيات السكارى من أعضاء الفرقة الطبية ·

وكانت غرفتى فى المعسكر تحتوى على عدد من ساعات الحائط على غير ما جرت به العادة · وبدا لى أنها كانت تدق كل خمس دقائق · وأن هذه الغرفة كان يسكنها من قبل أحد هواة جمع الساعات· فقام الجنود بضبطها بحيث تدق كل منها فى مواعيد مختلفة · وفسروا ذلك بأنه أقرب الى هدوء البال ومنعا للمضايقة ·

وبالرغم من السهر فى الليلة الماضية فقد صحوت فى الصباح أشعر بالانتعاش وأمتع نظرى بجمال هذا الصباح من أيام الربيع ونسيمه العليل، وكنت أرى من النافذة الزهور وأوراق الشجر وقد بدأت فى الازدهار · وأرسلت الشمس أشعتها الذهبية تبعث على الدفء والاطمئنان ، فبدأت أرتدى ملابسى بينما أفكر فيما اذا كان هناك يوم آخر فى مجرى حياتى أشعر فيه بالسعادة والهناء ، وهل فى يوم ما أستطيع الهروب من هذه الشرور والآثام ومن هذا الوجود البعيدة عن مظاهر الانسانية الكاملة والذى لا ترضى عنه السماء ولا المخلوقات ؟ ·

وامتلأت ذهنى بذكريات تلك الايام حيث كنت أذهب الى المراعى فى بلدتى واتمدد فوق الحشائش دون أن تكون لى رغبة معينة فى أى

شيء ما . فهل أستطيع التحرر من هذا الخوف المستمر والجاثم فوق صدرى في كل وقت ، أظن لا . لن أسعد في حياتى مرة أخرى كما كنت من قبل. فقد تغير احساسى ومشاعرى .

تلك هى سميرش ! الاغتيالات والمذابح والدم . الدم فى كل مكان والآلام والرعب والخوف من القتل . « الموت للجواسيس ! » الفناء للانسانية المعادية للشيوعية . القتل للمعادين للشيوعيين .

وكان برنامج العمل فى المعسكر الصغير أسهل بكثير مما كنا نعمل في مقر القيادة . ولاول مرة منذ عدة أسابيع اغتنمت فرصة لكى أستريح وأتذوق طعم الاستجمام ، فمن كان يعلم ما يأتى به الغد . وتصادف أن عقدت صلة بالفتاة زويا واستجابت لدعوتى وصداقتى . بالرغم من أنها كانت فتاة تتسم بالغباء ولا تبعث على السرور .

وشعرت بالضيق من هذه الساعات المعلقة على الجدار . فقد كانت لا تكف عن الرنين . وقررت أن أتخلص منها فى وقت قريب .

وفى صباح يوم ٤ مايو شاهدت قائد المعسكر وهو يسرع الى مقرى وعند وصوله قال : « وصلتنى اشارة تليفونية بشأنك من مقر قيادة الجيش » .

وكان يلهث على أثر اسراعه فى المشى من مكتبه حتى وصل الى مكانى. ثم قال : « أنت مطلوب للعمل فورا مع هيئة قيادة جنرال كوفانشوك . والجنرال موجود الآن ـ هو ورجاله ـ فى أوستراڤا مورافسكا فى بوهيميا » .

فقلت محاولا اخفاء دهشتى : « أحقا هذا ؟ » .

وقال : « أرى أن تنتظر حتى صباح الغد . فهناك ثلاث مركبات تسير في هذا الاتجاه ابتداء من الساعة الثامنة ويمكنك أن تستقل احداها اذا شئت » وتركنى قائد المعسكر وقد أخذتنى الهواجس والتفكير العميق . فما الذى حدث ؟ ولماذا هذه السرعة ؟ وهل هذه هى النهاية ؟ لا أعتقد . فانهم اذا اكتشفوا أمرى فلابد من حضورهم بأنفسهم . وكان القائد على حق فى تصرفه من حيث الانتظار حتى صباح اليوم التالى. ثم أن السيارات

قد تستغرق أسبوعا وهى فى طريقها فى هذا الاتجاه • • وكنت فى أشد حالات القلق بسبب هذه السرعة فى استدعائى • وربما كان الجنرال قد اتصل بقيادة الجيش التى قامت باستدعائى من هنا • وعلى أية حال سوف تظهر النتيجة ان عاجلا أو آجلا •

ووصلت فى مدة أقل مما كنت أتوقع • فقد أزيلت الانقاض من الطرق• ولم يكن هناك سبب يدعو لتأخير سير القافلة • وكان أول شخص التقيت به ميجر جريشين رئيسى المباشر • وبادرنى بتحية ودية وقال :

« حقا أنك شاب يقظ نشيط • لقد أتممت الرحلة فى سرعة ملحوظة • هل سمعت عن قيام ثورة فى براج ؟ » •

« لم يبلغنى شيء أمس » فسألته :

« من أى مكان ؟ » •

فأوضح ميجر جريشن الامر قائلا : « من براج ذاتها • ويبـدو أن التشيك قد استدلوا على محطة الاذاعة ، ويدور القتال الآن فى الطرقات ، وفى أول الامر لم أصدق هذه الانباء • لانها لا تتناسب مع طابع التشيك• ولكن يبدو أن ما أذيع كان مطابقا للواقع • وتصور أن الموقف لا يزال على حاله » •

وفى اليوم التالى استمعت الى الاذاعة بنفسى وهى تذكر هذا النبأ • بينما كنا نصغى للاذاعة واذا بجنرال كوفالشك يرسل اشارة تليفونية ويأمر مجموعة العمليات بالتوجه فورا الى براج •

وانزعجت لهذا الامر بالتحرك الى براج • فهنـاك قوم كثيرون ممن يعرفوننى • وربما يتعرف أحدهم على شـخصيتى وتكون هنـاك الطامة الكبرى ، وعلى أية حال لم تكن أمامى فرصة للاختيار ولابد من قبول الامر الواقع ، فقررت أن أرسل مذكرة بسيطة لاحد أصدقائى فى براج • وكان الامر يتوقف على طريقة وصول هذه المذكرة • وجال بخاطرى أنى أعرف التشيك حق المعرفة وأنهم قوم على استعداد لفعل أى شيء نظير الحصول على المال •

وفي الليلة حيث وصلنا الامر بالتحرك استدعيت الى مكتب كولونيل دوستيك ولدى وصولى رأيت هناك حوالى عشرين من الضباط ومن بينهم أصدقاء لى ويجلسون حول منضدة كبيرة فى مكتب الكولونيل • وعـرفت النقيب فودوبيانوف والرائد جريشن والفتاتين ايفا وسونيان ولم أتعرف منهم النقيب ميلكر والنقيب شابيرو والنقيب بوتابوف والرائد بـوبـوف على الباقين •

فأمدنى الكولونيل قائلا : « اجلس هنا وابدأ فى الترجمة » • ثم سلمنى ملفا ضخما يحتوىعلى أسماء أعضاء فرع براج التابع لمنظمة «فالايكو» وهى مجموعة من المواطنين التشيك ، وكان كل ضابط آخر منهمكا فى العمـل فى ملفات مماثلة • وكان معظمهم لا يعرفون من اللغة التشيكية الا قليلا • ولكنهم لم يستطيعوا فهم معانى كثير من الكلمـات • وكان النقيب ميللـر بخاصة ـ يفاجئنى غالبا ويطلب مساعدتى فى ترجمة بعض المفردات •

وكان كولونيل دوستيك يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا • ومن وقت لآخر كان يصدر التعليمات قائلا : « عليك أن تترجم ما هو ضرورى فقط • فليس لدينا متسع من الوقت •

وكانت الساعة الحادية عشر تماما عندما فتح البـاب ودخـل المقـدم كوزإكيفتش • وكان رجـلا طويل القـامة عريض المنـكبين • وكان وجهه المنقبض مما يدعو كل فرد لخشية بأسه • كما كان ضابطا عليه مظاهرالشدة والقسوة • وسأل :

« كيف سير العمل أيها الرفاق الضباط » •

فأجاب دوستيك قائلا : « آمل أن ننتهى فى هذا الصباح » •وهنا تحول الرجل الى ناحيتى وقال : « أيها الرفيق ستيفيرسكى • أنهم يستطيعون العمل دون حاجة اليك • توجه الى النقيب ستيبانوف • فلديه شئون عاجلة يريد مناقشتها معك » •

فأطعت الامر وسلمت أوراقى الى كولونيل دوستيـك واستأذنت فى الانصراف • وسرت قاصدا مقر القيادة التى تحتل جزءا من المدينة يطل على فناء كبير ، ولم يكن على مقربة من السجن سوى المكتب الرابـع ومكاتب القضاة وأعضاء النيابة • وفى نهاية الفناء أوقفنى الديدبان وطلب كلمـة

المرور فى تلك الليلة ، فذكرتها له وواصلت السير . ونظرت من حولى فرأيت أضواء تسطع فى كل نافذة ، فقد كان رجال سميرش يستعدون للقيام بتطهير واسع النطاق ، وكان اهتمامهم موجها الى براج التى كانت مركزا لكثير من العناصر المعادية للشيوعية . كما كانت مقر رئاسة المهاجرين الروس . وأولئك الانفصاليين من أوكرانيا ومن جميع الاصناف والالوان ابتداء من جنرال جايدا الى اليساريين المتطرفين من أنصار الديمقراطية الاشتراكية ، فكان كل فرد يقف عقبة فى طريق الشيوعية لابد من القضاء عليه ، وكان هذا ما يفسران عمل تلك الليلة كان لا حدود له فى مقر قيادة سميرش . وكانت خلية النمل هذه تقضى ليلة أخرى دائبة على العمل ، وكانت الشبكات تؤدى مهمتها على أوسع نطاق . وبدأت آلات كتابة الشفرات تبعث رسالاتها « السرية » و « السرية للغاية » وكانت البرقيات تنهال على القيادة المركزية فى موسكو ، وتعود منها الى مقر قيادتنا . وكان هذا يتم فى سرعة بينما هناك ألوف من البشر أصبحوا نزلاء السجون وينامون فى هدوء وراء الاسوار .

وبعد أن لقيت بعض المشقة فى العثور على ستيبانوف وجدته أخيرا فى غرفته بعد أن ذهبت الى مكتبه ولم يكن هناك . وكان يستجوب رجلا وجيها متوسط العمر وعليه مظاهر النشاط والقوة . واستمر الاستجواب ست ساعات حيث تبين لى أن الرجل كان عضوا بارزا فى منظمة فلايكو كما كان صديقا شخصيا لكل من بيران و موزافيز وغيرهما من الزعماء السياسيين فى تشكوسلوفاكيا . وكان ستيبانوف يدون الاجوبة بالكتابة المعتادة فلم يستطع مجاراة الترجمة وأخذ يسألنى عدة مرات أن أبطىء قليلا فى نقل أجوبة الرجل لكى يستطع تسجيل جميع المعلومات التى تتعلق بالمنظمة ، فكان هذا وعدة أمور أخرى سببا فى ارتباكى فى هذه الايام ، اذ أصبح عملاء سميرش يبدون اهتماما ملحوظا بالتشيك والعناصر المعادية للشيوعية فى دائرة المهاجرين الروس أكثر من اهتمامهم بالالمان .

حتى اذا انتهى الاستجواب كان لدينا سجل واف لاعضاء المنظمة وما كانوا يفعلون فى تشكوسلوفاكيا . وبعد ذلك نادى ستيبانوف أحد الحراس لمرافقة هذا الرجل الى الخارج . وتوجهنا للاستراحة والنوم بضع ساعات .

وفى ٩ مايو سمعنا لأول مرة تلك الانباء المثيرة التى كانت تشير الى انتهاء الحرب فى أوروبا ، وكان من الواضح أنها أخبار حقيقية . فبدأت

الاحتفالات فى الساعة الحادية عشر فى تلك الليلة عندما أذاع راديو موسكو نبأ تسليم ألمانيا بعد توقيع التسليم من الجنرال كيتل ، وملئت الطرقات بطلقات النار والصيحات والرقصات ومظاهر الفرح والابتهاج ، وسالت الفودكا كالانهار . وواصل القوم اطلاق النـار . وأخـذ الجنـود وبعض المدنيين العائدين الى أوطانهم يحتضنون بعضهم بعضا فى هناء وسرور .

وكان الاحتفال سببا فى ازعاج معظم سكان مورافسكا اوسترافا وهم داخل منازلهم . فسألنى أحدهم يقول : « ماذا جرى ؟ هل عاد الألمـان ؟ ما السبب فى هذه الطلقات النارية ؟ » .

فقلت له : « القوم يحتفلون بانتهاء الحرب » .

وأرسلت القيادة رجال الحرس الى جميع المدينة لمنع اطلاق النار ولكن دون جدوى ، فقد بدأ الحراس أنفسهم يطلقون بنادقهم فى الهواء ويشتركون فى الاحتفالات طبقا لعادات الروس . واستمر ذلك طول الليل .

وفى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى أمر المقدم دوستيك بعقد اجتماع لجميع أفراد القسم الثانى ، وكان يقوم بمهمة المقدم شبالين رئيس القسم ، وكان هذا قد رحل الى براج فى الليلة السابقة على رأس مجموعة خاصة بالعمليات ، كما تلقى أمرا من موسكو بالسفر الى عاصمة التشيك لالقاء القبض على فلاسوف وكان فى فناء الفيللا الكبيرة ما يزيد على مائة من الضباط والمترجمين حيث أمر كولونيـل دوستيك بالتزام الهـدوء والنظام . وكان الجمع يشتمل على أولئك التابعين لهيئة القيادة أو الملحقين بها . أو من أمثالى ممن جاءوا الى مورافسكا أوسترافا فى مهمات خاصة . وكان الكولونيل يجلس فى مقعد كبير وعندما وقف سكت الجميع فى الحال حيث بدأ الكولونيل يقول بصوت مرتفع :

« أيها الرفاق . أهنئكم بالنصر »

ورد القوم بصيحات الفرح والتهليل .

وكان الكولونيل عابس الوجه بلرغم من مناسبه الاحتفال · وواصل حديثه : « فى سنة ١٩٤٢ قال الرفيق ستالين عندما كان العدو على أبواب موسكو · « سوف يأتى اليوم حيث نرقص ونغنى فى شوارعنا » · ولقد صحت تنبؤاته · فنحن نحتفل بالنصر · وبطبيعة الحال · بالنسبة لنا ـ نحن رجال فرع المخابرات المضادة ـ يجب أن نكون على يقين من أن الاعداء يحيطون بنا من كل جانب ! » ·

ثم سكت لحظة وواصل خطابه : « ان العالم الرأسمالى يحيط بدولتنا الاشتراكية · ولن أكون مخطئا اذا قلت أن الحرب لم تنته بعد بالنسبة لنا ، وأمامنا مهمات جسيمة قد تكون أشد صعوبة وتستدعى مسئولية أكبر مما أخذنا على عاتقنا لغاية الآن ، فنحن الاعمدة التى يقوم عليها الوطن الاشتراكى ومن واجبنا أن نفخر بذلك· والعدو ليس بغافل يغط فى نومه· فلندعه يكتب فى صحفه مقالات عن الاتفاقات والمحبة والصداقة وما الى ذلك · فهذا لا يهمنا فى شىء · اذ أن الرأسماليين كانوا وسوف يبقون دائما خصومنا الالداء · وعلى هذا الوضع كانوا يعملون · وهم يعملون اليوم · وسوف يواصلون العمل ضد مصالحنا ·

وتذكروا أيها الرفاق أن أى تهاون من جانبنا سوف يكلفنا الثمن غاليا بالنسبة لبلادنا وقضيتنا ، وقد عهد الينا الحزب والحكومة بمهمة ومسئولية بالغة الاهمية · ولا بد لنا أن نبرر هذه الثقة ·

أن روح الحرب الخفية تدور فى كل ركن من أركان العالم . وهناك الجواسيس والمنحرفون والمنقسمون وأعضاء المنظمات السرية والاعداء من كل نوع يتسللون بين صفوفنا بكل وسيلة ممكنة · والموت لهم جميعا ! ·

ثم رفع يده ممسكا بقدح الفودكا وقال : « باسم المبادىء المثالية التى وضعها كل من ستالين ولينين · وباسم انتصار هذه المبادىء فى جميع أنحاء العالم · دعونا نشرب نخب انتصارنا على المانيا ، وتمجيد لزعيمنا الحكيم ـ الرفيق ستالين · وللابناء المخلصين للوطن الاشتراكى . ولرجال المخابرات المضادة فى منظمة سميرش ! » ·

وكان الكولونيل يلتفت نحو الضباط الواقفين بجانبه ويبادلهم التحية بأقداح الخمر ٠

وكانت كلمات الكولونيل فى نظرى لا تعنى شيئا جديدا ، فمنذ عهد طويل كنت أعلم أن الاتحاد السوفييتى لا يعترف بأى شىء صادق فى العالم سوى مبادئه التى يسير بمقتضاها ، ودكتاتورية الحكم المطلق للعالم أجمع لم تكن كلمات جوفاء بالنسبة للاتحاد السوفييتى ٠ ولا عجب اذن ــ الا قليلا ــ لكثرة هذه الاغتيالات والضرورة التى تدفع الى ارتكابها ٠ ولا عجب أن يطلب منا تقديم الضحايا الى مذابح الموت ليلا ونهارا ٠ كذلك لا عجب أن ترد فى كل لحظة القوائم مشــحونة بالاسماء ٠ وأن منظمة ســميرش كانت تضم هذا العدد الكبير من الرجال والعملاء ٠٠٠

١٢
مغامرات مع الموت

في مطلع فجر اليوم التالي غادرنا المكان قاصدين الى براج ، وبدأت مركباتنا السير في الساعة السادسة تماما . ووضعت مجموعتنا للعمليات في سيارات النقل من نوع ستوديبيكر . وكانت تشمل نحو مائة من الضباط بالاضافة الى رجال ومخبرين من التشيك . وكان العقيد كوزاشفيك في مقدمة القافلة يستقل سيارة جيب أمريكية . وكانت مركبتنا وراءه مباشرة ، وكان كل من الرائد جريشن و الرائد نادفورني يجلسان بجوارى على المقعد الخشبي في مؤخرة السيارة ، كما ازدحمت المركبة بكل من النقيب شابيرو والنقيب ستيبانوف والرائد بوبوف والنقيب ميللر . وكابتن شيبايلو وغيرهم من الضباط ممن لا أعرفهم . وكنا جميعا مسلحين بالمسدسات والبنادق الرشاشة .

وسارت المركبات تعبر تلك الطرقات الوعرة دون أن تتوقف حتى في فترات تناول الطعام . وعندما جاء المساء شعرنا بشيء من الهدوء بالرغم من الظروف التي تحيط بنا . حتى اذا طلع النهار لفحتنا نسمات رقاق من نسمات الربيع . ولاحظنا . لأول مرة . أن الاشجار بدأت تورق والازهار تتفتح . وتخضر حشائش الارض . فهز هذا الجمال مشاعرى بروعته .

وقال الرائد جريشن يحدث الرائد نادفورني : « هناك مهمات كثيرة في انتظارك في براج يا كوستيا » .

ورد نادفورني قائلا : « لقد بدأ القدر يبتسم لى أخيرا . واعتقد أن هناك مجموعة كبيرة من رجال N.T.S. في براج » .

فقاطعه بوبوف قائلا : « لدى عدد كبير من العناوين . ولكنى أخشى شيئا واحدا ـ وهو أن مخابرات كونيف المضادة قد سبقتنا الى هناك » .

وصدق نادفورنى على ذلك قائلا : « نعم هذا هو الواقع • فسوف يصلون الى براج قبل وصولنا » •

وكان النقيب ميللر يتحدث عن جمال المدينة وكان قد زارها عدة مرات قبل الحرب • ومن ذكرياته : « أن براج مدينة تضم جميع أنواع الطراز المعمارى • من الطراز الجوتى الى ناطحات السحاب » •

وكان النقيب شيبايلوف يتحدث عن وزجته ويقول : « أن لها مقدرة خاصة لكى تتصور حقيقة مقاصدى !

ثم توقفنا فى ستارنبرج لقضاء الليل • حيث أعد العقيد كوزاكيفتش أمكنة للنوم وتوجه كل منا الى فراشه مباشرة فقد كان الامر يقتضى أن نغادر فى فجر اليوم التالى دون تأخير •

وفى الساعة الخامسة صباحا تحركت القافلة من ستيرنبرج • وكانت حركة المرور فى ذلك اليوم على أشدها ، وكانت تعوقنا عن السير صفوفا من المركبات ما بين سيارات ركوب وسيارات نقل وحتى عربات حربية تجرها الخيل وكانت كلها تمتد على طول الطريق •

وكنا نشاهد فرق المشاة والمدفعية والذخيرة ومختلف القوات وهى تشق طريقها فى سرعة ملحوظة • وكانت جميعها تقصد براج • وكثيرا ما كنا نمر بصفوف من أسرى الحرب من الالمان •

وصاح النقيب شابيرو يخاطبهم : « الى أين انتم ذاهبون ؟ » •

وكان جواب الاسرى جميعا : « لا ندرى Wir Wissennich » •

ووجه الرائد بوبوف اليهم الفاظا جارحة وقال : « سوف ترون موسكو الآن أيها الحيوانات الحقيرة ؟ •

حتى اذا ما اجتزنا أولتز بدأت الصيحات تترامى الى أسماعنا • وكان العقيد كوزاكفيتش فى أغلب الاحيان يتجاوز حدود الطريق ويعبر حقول القمح والحبوب ويدور بالقافلة حول عقبات الطريق ، وكان التشيك يغادرون منازلهم ويتجمعون فى الطرقات • وكان كل جماعة من الفلاحين التشيك يرددون هتافات واحدة Nazdar! Nazdar! مرحبا • مرحبا ••

وعلمنا أن الفرقة الالمانية وعلى رأسها لفتننت جنرال بيـكر كانت السبب فى تأخير سيرنا نحو براج ، اذ لم نستطيع الاسراع بين خط من السيارات المدرعة التى كان من بينها سيارتان أو ثلاثة تعترض الطريق وكلها قاصدة الى براج • وكان الالمان وهم بكامل أسلحتهم ينظرون الينا شذرا ولكن لا يجرأون على استخدام أسلحتهم ضد قافلتنا •

فلما سألنا كثيرا منهم الى أين كانوا يقصدون كان ردهم جميعا : « الى الامريكيين » •

وبدأ التذمر فى وجوه رجال شميرش • وكانوا فى شدة الغيـظ • ولكن كان لا بد لهم من الصبر على أهانات النازيين ، فقـد كانت نسبـة الالمان الينا كنسبة مائة الى واحد • وكانت أية محاولة لايقاف صفـوف الالمان وهم فى طريقهم الى أوروبا الغربية معناها كارثة لنا دون شك •

ومن وقت لآخر كنا نسمع طلقات النار يتردد صداها فى الغابات التى كانت تمتد على جوانب الطريق ، وكثيرا ما رأينا جنودا مسلحين يبرزون من الغابات ويطلقون بنادقهم ويصبون اللعنات علينا ويتوعدوننا بقبضات أيديهم ثم يعودون الى صفوفهم ويواصلون السير الى خطوط الامريكيين ، وعلى جوانب الطريق كانوا يثيرون الغبار لمسافة كيلو مترات حيث أصاب وجوهنا وأعيننا • حتى اذا حان وقت الظهر كان معطفى وقبعتى وملابسى تعلوها طبقة سميكة من الاتربة وقذارة الطريق •

وكانت الحركة تزداد صعوبة كلما اقتربنا من القرى والمدن الصغيرة • ففى كل مكان كان التشيك يستقبلوننا بمظاهر الترحيب ، وكانت آيات السرور والحماس لاحدود لها وكانت تحياتهم لنا باعتبـارنا محرروهـم ومنقذوهم وأصدقاءهم الذين كانوا فى انتظارهم مدة طويلة ، ومع ذلك لم يكن لهم نصيب من الحرية على أيدينا • فقد كنا رجال سميرش ورسـل الموت ولا شيء غير ذلك ، وماذا كان يهمنا من كل هذه المظاهر ـ مظاهر الفرح والابتهاج • ومن أولئك الشبان والفتيات بملابسهم الزاهية • وعلى وجوههم تلك الابتسامات العريضة ، فقد كان كل همنا أن تصل الى براج بكل سرعة ممكنة ، وذلك لأن هناك الآلاف من القوم لابد من اعتقالهم • ولم يكن هناك سوى القاء القبض والتعذيب والاستجواب وأخيرا اطلاق النار والاعدام ، وكان شعارنا : « الموت للجواسيس » • « الموت للمتحالفين مع الالمان » الموت لجميع من لا يقبلون الشيوعية حتى ولـو كانـوا ممن يعارضون الالمان « الموت للجميع » •

وكانت تساورنى تلك الاحلام ـ أحلام اليقظة ـ عندما فاجأنى ميجر شيبايلوف بسؤاله : « هل تعرف فولوشين » ٠

فقلت : « لا ٠ لا أعرفه ؟ وكان رده :

« حسنا ٠ سوف تتاح لك فرصة لمقابلته » ٠

وأخذت أحاول جاهدا أن أطرد من ذهنى تلك الافكار التى بدأت تثير مشاعرى ٠ ولم تسبق لى معرفة بهذا الرجل فولوشين ٠ ولكننى كنت أعرف شيئا عنه ٠ فقد كان فى سنة ١٩٣٩ رئيسا لأوكرانيا الكرباتية لمدة ثمانية عشرساعة ، وتوالت على ذاكرتى تلك الصور ـ واحدة بعدالاخرى ـ فى فترة احتلال أوكرانيا فى سنة ١٩٣٩ ٠ حيث كان مقر قيادة « عبر الكربات » فى مدرسة بفكوف ٠ وكان المجلس التشريعى Seim فى هوست ٠ وكانت هناك جريدة Nova Scena وكان اللاجئون يتدفقون من غاليسيا ٠ كما تذكرت موقعة هوست ووصول المجريين والاعتقالات واطلاق النار فى الطرقات ، والآن كانت المأساة تبعد كثيرا عن نهايتها ، ففى هذه الليلة أو فى الغد سوف يعتقل فولوشين وعددا كبيرا غيره من الانفصاليين فى أوكرانيا ، وكان الرائد نادفورنى قلقا بشأن N.T.S وهو يجلس بجوارى ٠

واتجه تفكيرى نحو أصدقائى فى براج ٠ وكان خطابى المرسل اليهم فى جيب سترتى من الداخل ٠ وكان الامر يقتضى أن أبعث به مهما كانت الظروف ٠ ويا ليت الرائد نادفورنى يعرف شيئا عن تلك الحياة الشاقة والمعقدة والتى كان يعيشها القوم من وراء ستار ، وكانت حقيبة الميدان التى يحملها تحتوى على معلومات عنهم كما كان لديه مستندات جديدة ضد .N.T.S وكان فى جيبى خطاب يحذر القوم من الرائد ومقاصده ، اذن أينا كان أسرع من الآخر ؟ وأينا كان أقرب لتحقيق الهدف ؟ هل كان الميجر أم .N.T.S أم أنا ؟ ٠

وتعب ذهنى من التفكير والتخمين ٠ حول الطريقة التى أستطيع بها أن أحذر أصدقائى فى براج من الاخطار والخطط التى أعدها لهم الرائد ، ومن المحتمل أنه كان يدبر عشرات الخطط التى تمكنه من اعتقالهم ، وهنا فى خلف سيارة النقل كان بينى وبين الموت خطوة قصيرة ٠ وجال بذهنى أن أفعل ذلك ٠ كما شعرت بالميل الى هذه المغامرة ـ المغامرة بالموت ٠

ونظرت الى أرض السيارة فوجدت حقيبة الميجرملاصقة لحقيبتي • فقلت له : « أيها الرفيق الرائد من الافضل أن تغطي وجهك صيانة له من الغبار المتطاير » •

فقال الميجر : « أنت على حق يا نيقولا • فأن هذا الغبار يكاد يغطي الدنيا بأكملها • ولا بد أن معدتي أصبحت تحتوى على قدر كبير منه » • وفعل الرائد كما فعلت وغطى وجهه بمنديله •

ولدى وصولنا الى تاسلاف اتخذ موظفو المدينة اجراءاتهم للترحيب بنا • فكانت الاوركسترا تعزف الحانا شعبية من قاعدتها في الميدان ، واجتمع الالوف من التشسيك يصيحون بهتافات الترحيب ، وكانت الفتيات الجميلات في ملابسهن الوطنية الزاهية ويلوحن لنا بالزهور في أيديهن . ولكن طابورنا لم يتوقف • وحتى لم نرد لهن التحية • فقد كانت في انتظارنا أعمال خطيرة في براج • ولكل ساعة بل ولكل دقيقة قيمتها •

وبعد مرورنا خلال تاسلاف لقيت قافلتنا بعض عقبات أشد صعوبة ، ففي مقدمة الطريق تصدت بعض المجموعات لصفوف الالمان وأجبرتهم على التحول والسير في اتجاهاتنا •

فارتفعت أصوات الجلبة والضوضاء والصيحات وزمجرة السيارات واطلاق النار وعلا الغبار حتى سد الاقطار •

وكانت الصيحات : الى الامام • الى الامام ــ نازدر ــ نازدر •

وصاح صوت يقول : « عليكم اللعنة وعلى نازدر ومن يصيحون بها • أفسحوا لنا الطريق والا دهسناكم كالحيوانات الضالة » •

« يا للجحيم » •

« أفسحوا الطريق » •

« اختصروا الطريق عبر الحقول » •

« نازدر ! » •

« اللعنة على الشيوعيين ! Verflucht · Kommunisten

« انظروا ! هناك بعض من رجال فلاسوف بين الاسرى » ٠

« هؤلاء الاوغاد ! الخونة الغادرون ! لماذا يقتلوهم فى الحال ؟ ما هى الفائدة من اضاعة الوقت معهم ؟ » ٠

وصدر الامر بالتوقف

فوقفت سياراتنا فجأة مما أدى الى اصطدام كل منا بالآخر ٠ ثم قفز منها ميجر نادفورنى واصدر لنا أمرا بمغادرة السيارة ، بينما أمر ركاب سيارة المانية بمغادرتها وكانت من نوع B.M.W. وهى صناعة المانية ٠

ثم أمر السائق بالبقاء أمام عجلة القيادة ٠

وهنا صاح بعض منا يعجبون بفكرة الميجر ٠

وفى مدى نصف ساعة كان كل فريق منا يستقل سيارة خاصة ٠ وركبت مع النقيب شابيرو فى سيارة « تاترا » من صنع تشكوسلوفاكيا ، وترك المقدم كوزاكفتش سيارة الجيب واستولى على سيارة المانية صالون ماركة أوبل ـ أدميرال ٠ ثم صاح قائلا : « أيها الرفاق ٠ سيروا صفا واحدا » ٠

وفى كل دقيقة كنا نلتقى بعقبات جديدة وصعوبات جديدة ٠

وأخيرا وصلنا براج فى الساعة الثامنة مساء ، وكانت جثث القتلى تملأ شوارع المدينة ٠ وكان المارة والجنود والضباط يهرولون فى الطرقات بينما تعالت الصيحات : نازدر ؟ نازدر ؟ ٠

وجئنا الى فندق آلكرون فجال بخاطرى أنه لا عجب أن هذا المبنى الكبير كان مقرا لقيادة الانصار ، ودخلت الفندق مع الرائد بوبوف والرائد جريشن وتركنا رجال سميرش ينتظرون فى الخارج ، ورأينا فى الداخل خليطا من قادة التشيك الى الخدم بملابسهم التقليدية ، وكانت الارض مغطاة بأفخر أنواع السجاجيد ٠ بينما تتدلى من السقف الثريات على اختلافها ٠

وتقدم ميجر جريشن الى حارس الباب يسأله عن مقر القيادة · وقال له أننا فى حاجة الى أمكنة تكفى مائة من الضباط ·

فسأله ضابط تشيكى جالس الى مكتبه وقال : « أنتم من أى الوحدات ؟ »

« هذا ليس من شأنك » ·

فتجهم وجه الضابط · ودون أن ينطق بكلمة ـ أمر الكاتب باعداد طلب للاقامة فى فندق سنترال ·

وكانت هناك فتاة تشيكية تنظر الينا نظرة ازدراء · ولا عجب فى ذلك فقد كانت هيئتنا تدعو لذلك · وكانت وجوهنا تعلوها طبقه من الغبار والعرق وكذلك كان شعر رءوسنا وجميع ملابسنا ·

وهنا سمعنا صيحات تقول : « أيها الرأسماليون ! » ·

« أنظر الى هؤلاء الامريكيين المتعجرفين ! » ·

واستغرقت سيرتنا عشر دقائق تشق طريقها خلال الشوارع المزدحمة حتى وصلنا الى فندق سنترال وكان بالقرب من مبنى براشنا برانا · وكان رئيس الخدم رجلا متقدما فى السن أصلع الرأس ، ولما بدأ فى كتابة أسمائنا زمجر فى وجهه الرائد بوبوف فعدل الرجل عن تأدية مهمته ·

وسألت النقيب شيبايلوف : « من هذا ؟ » وأشرت الى رجل متقدم فى السن وكان يجلس فى صالة الفندق ·

« هذا هو بارون بوجشتين » ·

فقلت له : « عجبا · يبدو لى أنى أعرفه من قبل » ·

وابتسم النقيب وقال : « من المحتمل أنك تعرفه فهو ـ فى الحقيقة ـ فورون من الانفصاليين من أوكرانيا · وأحضرناه معنا ليعمل مخبرا » ·

فدار بخلدى أن هذا الرجل خائن لا محالة ، وتذكرت أنه لعب دورا هاما خلال تلك الفترة القصيرة من عهد فولوشين فى جمهورية الكربات ٠ وأنه أصبح الآن بارون بورجشتين ٠ وباشتراكه مع عملاء سميرش سوف يعمل على مطاردة أخوته الاوكرانيين ٠

وسوف ينظر فى وجه فولوشين ويقول : « أنت فولوشين رئيس أوكرانيا الكرباتية ٠ أنى أعرفك ٠ وأنت ٠٠٠ »

وبعد أن تفقدت غرفتى هبطت درجات السلم الى صالة الطعام وكانت خالية ٠ وهناك اقترب منى أحد الخدم ٠ وكانت تبدو على وجهه امارات البشروالذكاء ٠

فسألنى : « هل أنت تشيكى يا سيدى ؟ » وكان ذلك بعد أن تحدثت اليه بلغة التشيك وأبديت امتعاضى من الموقف ٠ فأجبته :

« لا ٠ أنى من الروس ٠ ولدى شىء أطلبه منك » وكان رده :

« أنا فى خدمتك ٠ يا سيدى » ٠

وبدأت أتحدث اليه وأتخيرمن الكلمات ما يؤيد ما أطلبه منه وقلت له :

« هذا هو مظروف ــ وسوف تجد رجلا يقيم فى هذا العنوان » ٠ وأشرت الى ما هو مكتوب على الغلاف وبدأ الخادم يصغى الى حديثى فى اهتمام واضح ٠ وقلت : « وسوف تسلم هذا الخطاب اليه وليس لشخص آخر بدلا منه ٠ واذا لم تجده فى منزله فاسأل جيرانه عن المكان حيث اعتاد التوجه اليه ، ولا تذكر كلمة واحدة لأى شخص بشأن هذا الخطاب أو بشأن مهمتك ، وتذكر جيدا أن أى كلمة تفوه بها ستكون سببا فى موتك ، حتى اذا لم تتمكن من العثور على الرجل ٠ فعليك أن تعود الى مباشرة ٠ وسوف أكون فى انتظارك ، ثم هناك شىء آخر ٠ فاذا وجدت المسكن يحتله رجال عسكريون ٠ فأياك أن تقع فى أيديهم لأنك وحدك ستكون مسئولا عن فشلك ، هذا هو الخطاب ، وتذكر أنى فى انتظارك هنا ٠ وليكن نصب عينيك أن أى خطأ سوف يؤدى بك الى الموت »٠

وتسلم الخادم الخطاب مع مكافأة مالية · ووعدني في صوت متهدج بأنه سيؤدى المهمة بكل تفصيلاتها ·

وبقيت ساعة انتظره في شيء من القلق ·

وكان لا بد أن يعود قبل ذلك فلم يكن المكان على مسافة بعيدة ، وجال بخاطرى ماذا يحدث ـ بحق السماء ـ لو كانت الشقة قد احتلها التشيك · واذا حدث أن اعتقل الخادم ؟ ·

ومضت عشر دقائق ثم خمس دقائق ، وسخطت على الظروف اذ لم يكن في استطاعتى مغادرة مسكنى كما لم استطع البقاء مدة طويلة والا أثيرت الشكوك من حولى · ثم قفزت من مكانى عندما سمعت فتح الباب وتنهدت حيث شعرت بالارتياح · فقد وصل الخادم ·

وقال : « لقد غادر السيد المدينة منذ أربعة أيام » ·

« وكيف عرفت ذلك ؟ » ·

« من الجيران » ·

« حسنا · انصرف الآن · ولا تذكر كلمة واحدة لأى فرد · والا كان مصيرك أن تتلقى رصاصة في جبهتك » ·

وتسلمت الخطاب من الخادم الذى بادر بمغادرة الغرفة ·

١٣

حلم مخيف

كان الفندق الذى خصص لاقامتنا مريحا ، وأقمت فى غرفة فاخرة ملحق بها حمام حيث تجرى المياه الساخنة ، وبعد الاستحمام لجأت الى فراشى مباشرة اذا انهكتنى تلك الرحلة الطويلة · وفى لحظات كنت أغط فى نومى ·

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى أيقظنى الحراس ويستعجلوننى اذ كان ميجر بوبوف على استعداد للمسير ، فأسرعت بارتداء ملابسى ·

وأثناء طعام الافطار قال لى الخادم المسئول عن المائدة فى لهجة ودية : « حقا كان خلاص مدينة براج على أيدى رجال فلاسوف · ولولا هؤلاء لكان جنود العصف الالمان قد دمروا كل شىء » ·

وأخذ رجال سميرش الجالسون حول المائدة يصغون الى كلمات انتشيكى ولكن لم يفهموا معناها · فسألنى الميجر أن أترجم له ما قاله الخادم · وفعلت · وعند ذلك بدت على الميجر مظاهر الاستياء · فقال :

« أنظر كيف كانت النتيجة · قل له يسكت عن هذا الهزل · قل لهؤلاء الاوغاد أن هذا كله كذب وافتراء · فان خلاص المدينة كان على أيدى رجال الدبابات السوفييتية فرقة بيبالكو » ·

فترجمت كلمات الى اللغة التشيكية · ووافق الخادم على ذلك قائلا :

« فليكن الامر كذلك » ·

وحقا كنت دائما أحب القائمين بالخدمة فى براج · فهم وأن كانوا يمتازون فى الغالب باللؤم والنذالة الا أنهم كانوا يؤدون واجباتهم على أحسن وجه وبتدبير وحكمة ·

« هيا بنا الى العمل » ٠

واصطحب ميجر بوبوف معه أربعـة من الجنود واسـتقل السـيارة ستودبيكر فى طريقه الى حى مودزهنى فى مدينة براج ٠ وهنـاك كانت المدرسـة الاوكرانية العليـا التى اسـتخدمت مركزا للانفصاليين من أوكرانيا ٠

وبدأت الاعتقـالات حتى وقت الظهر ٠ ثم عـدنا الى الفندق بينما تحركت مجموعة العمليات الى شـارع ديوستزلتسكا فى براج ٠ وكان الشارع مغلقا من كل ناحية ، ولم يسمح بالمرور الا لرجال سميرش من خلال الحواجز الممتدة على طول الطريق ٠ كما كانت المنطقة تحتوى على فيللات جميلة وعلمنا أن الجستابو كانوا يستخدمونها مساكن لهم أيام الاحتلال الالمانى ٠

وقام الرائد بتسـليم الاسرى الى الحراس ٠ وفى نفس الوقت وصل النقيب شابيرو ومعه مجموعة أخرى من المعتقلين ، وساد الارتباك فى كل ناحية فقد وصل ما يقرب من أربعين من سيارات الركوب ومثلهـا من سيارات النقل من أنواع مختلفة ٠ ومن صناعة أمريكا والروسـيا مع سيارة كبيرة مولوتوف M المسـماه باسـم عضـو المكتب السـياسى السوفييتى ٠ وبلغ أسماعنا الضجيج المستمر ٠

وطلب منى الرائد جريشن أن أسرع بتناول شىء من الطعام لان أمامنا أعمالا كثيرة لابد من انجازها ٠

وفى المنزل رقم ١١ كان عملاء سميرش قد جمعوا كل ما هناك من الآلات الكاتبة ٠ وكان عددها ثمانين آلة ٠

فقال النقيب شبيالوف : « هذا شىء رائع ٠ لقد كان الجستابو منظمة تسير على أدق نظام على العموم » ٠

« وليس فى ذلك شك ٠ ولكنهم للاسف ــ أتلفوا جميع الاشرطة » ٠
وعندما ذهبت لتناول شىء من الطعام ٠ أرسل ورائى الرائد من يحثنى على الاسراع فقد كان علينا أن نذهب الى مقر الجستابو فى بونيتز فى حى آخر من أحياء المدينة ٠

وسرت مع الرائد جريشن والنقيب شابيدو والنقيب نوموف الى مقر الجستابو وكان أشبه شيء بقلعة مشيدة ٠

وفاجأنا أحد الحراس بقوله : « لا يسمح لاى شخص بالدخول » فسأله الرائد جريشين بصوت أجش : « ماذا تقول ؟ » وأعاد الحارس قوله ٠ ونظر اليه الرائد بغضب قائلا : « نحن ضباط سميرش » ٠

فخرج الينا ضابط يبدو أنه رئيس الحرس ٠ وعندما سمع ما قاله الرائد اعتذر لنا من فوره ٠ وسأله الرائد :

« هل سبقنا أحد الى هذا المكان ؟ » ٠

« لا » ٠

« هل تصرفتم فى أى شيء ؟ » ٠

« لا » ٠

وفى داخل المبنى بدأنا نبحث عن المستندات ٠ ففتحنا أبواب الخزائن وأدراج المكاتب ٠ وبدا لنا أن الالمان كانوا يشفقون علينا اذ تركوا كل شيء مفتوحا أمامنا ولكن الخزائن والادراج كانت قاعا صفصفا ٠

فأخذ الرائد جريشن يسخط قائلا : « لعنة الله على الالمان ٠ هل من الممكن أنهم أحرقوا كل ما لديهم من الاوراق ؟ » وأجاب شبيالوف ٠

« ربما أحرقوها أو أخذوها معهم » ٠

ولم نعثر على أثر لتلك المستندات التى كنا نبحث عنها سواء فى الخزائن أو فى الاقبية أو تحت بلاط الغرف التى قلبناها رأسا على عقب ٠ وفى احدى الغرف عثر النقيب نوموف على عشرين زجاجة من مشروب الفودكا ٠

وهنا سأل الرائد جريشن كمن يتوقع شرا : « أليست هذه الزجاجات مسمومة ؟ وكان الرجل مغرما بمشروب الفودكا الى حد كبير ولكنه — فى نفس الوقت — كان يرتاب كثيرا فى وجود السم فى هذه الزجاجات بنوع خاص ٠

وضحك نوموف وقال له : « لا تحزن أيها الرفيق فلن تمت حتى ولو كانت مسمومة » • وبطبيعة الحال لم يقتنع الرائد جريشن بمثل هذه المداعبة • وبالرغم من شدة ميله لهذه المشروبات فقد أصر على ألا يتذوق شيئا منها •

وسأل الرائد جريشن يقول : « هذا لا بأس به • ولكن أين تلك المستندات التى كان الالمان يحتفظون بها ؟ » •

فلم يستطع أحد منا أن يجيب على سؤاله • ونظرت الى هذه الارفف الخالية بينما تتنازعنى مشاعر مختلفة • ودار بذهنى كم حملت هذه الارفف من مستندات الآسى والاحزان وكم سببت للانسانية من آلام يكاد هذا المبنى يتداعى تحت ثقلها ويتحول الى أنقاض •

وأخذ النقيب شابيرو يقول متذمرا : « لقد كانوا أمناء فى تصرفاتهم• ويا لسوء الحظ ، سوف يفلت منا الآن عدد كبير من الجواسيس • وفى أى مكان قد توجد هذه المستندات اللعينة ؟ » •

وطال بنا البحث ولكن دون جدوى حتى تولانا اليأس فعدنا الى المنزل رقم ١١ فى الساعة الحادية عشر •

وفى اليوم التالى نادانى القومندان بينما كنت فى طريقى الى المطعم وقال : « عليك ـ أيها الرفيق ـ أن تتوجه الى النقيب ستينابوف فى أقرب فرصة » •

وصدعت بالامر •

وكان النقيب يقيم فى الطابق الاعلى من المبنى • فصعدت اليه وطرقت بابه حيث استقبلنى بالتحية وقال : « سوف يأتى الى هنا قوم على جانب من الاهمية » •

وكنت أعلم أن النقيب يطلبنى للعمل معه أثناء الاستجواب• وسرعان ما فتح الباب أحد الحراس وأدخل أحد المواطنين وكان رجلا عليه مظاهر القوة والنشاط • وسبق لى أن رأيت كثيرين على شاكلته فى براج ، وهم أولئك الذين يغشون النوادى الليلية • ثم جلس الرجل على مقعد فى وسط الغرفة وسأله الكابتن •

« ما اسمك ؟ » ٠

« .... » ٠

« وظيفتك ؟ » ٠

فقال الرجل بعد هنية : « محام » ٠

« نحن لا نستطيع أن نضيع وقتا طويلا معك ٠ فعليك أن ترد بسرعة » ٠

وأسرعت بترجمة أسئلة النقيب ٠

« كم أمضيت فى الخدمة فى منظمة الابويهر ؟ » فقال :

« منذ سنة ١٩٤٢ » ٠

« ما هى أول مهمة قمت بها ؟ » ٠

« رحلة الى القسطنطينية » ٠

« وما هى أغراضها ؟ » ٠

« لتقدير مدى نفوذ البريطانيين فى تركيا » فقال الكابتن :

« تعسا لك ٠ أذكر لنا تفصيلات أكثر » ٠

« كان على أن أعقد صلة مع أحد الانجليز هناك » ٠

« ما اسمه ؟ » ٠

« .... » ٠

« ومهمتك التالية ؟ » ٠

« رحلة الى أنقره » ٠

« حسنا ٠ اذن لدينا أخصائى فى شئون تركيا » ٠

فأجاب الرجل بصوت هادىء : « لا ٠ لست كذلك » ٠

« وما هى ثالث مهمة قمت بها ؟ » ٠

« رحلة الى ستوكهولم » ٠

« ولماذا ؟ » ٠ فلم يرد الرجل جوابا ٠

« هل كانت فلاستا ٠ب زوجتك ؟ » ٠

« لم تكن زوجتى ولكن خطيبتى » ٠

وسأله ستيبانوف بخبث : « بل قل أنها كانت محظيتك ؟ » ٠

« نعم » ٠

« وهل رافقتك فى رحلاتك ؟ » ٠

« لا » ٠

« أنت تكذب أيها الحقير ! لقد سافرت معك الى ستوكهولم ٠ أليس كذلك ؟ » ٠

« لا ٠ لم يحدث » ٠

فصاح النقيب على الفور : « ماذا تقول ؟ » وطلب من الحارس أن يحضر له فلاستا ٠ ورفع الحارس يده بالتحية العسكرية وغادر الغرفة ٠ وما لبث أن جاء بفتاة فى أوائل العشرين من عمرها ودفعها الى الغرفه فى عنف ظاهر ، ومن النادر أني شاهدت مثل هذه الفتاة الجميلة منذ أن تركت وطنى ، فقد كانت ذات شعر كستنائى وعيون تشع بهاء وجمالا ، وقوام رشيق ٠

وهنا أشار الكابتن الى الاسير وقال لها : « هل كنت معه أثناء سفره الى ستوكهولم ؟ » ٠

فقالت الفتاة فى صوت منخفض : « نعم » ٠

وهنا قال له شيبانوف : « هل سمعت هذا ؟ » واتجه نحو المحامى وضربه فى وجهه بقبضة يده ٠ فتناثر زجاج نظارته على الارض ٠ وبدأ الدم يسيل من أنفه ٠

وأخذ المحامى يحدق النظر بالفتاة ٠ ودلت عيناه على مدى ما يشعر به من الذعر ٠ وبدأ يؤكد للنقيب أن الفتاة لم تكن لها أية علاقة بأوجه نشاطه ٠ وأنها لا تعلم شيئا عن مهمته مع الالمان ، ثم أخذ يتوسل الى النقيب أن يكون رحيما بها ٠

وكان جسد الفتاة ينتفض خوفا وهلعا ٠

فنادى الكابتن الحارس ليأخذ الرجل الى خارج الغرفة ٠ ثم استدار نحو فلاستا وبدأ فى استجوابها ٠

« ما سبب سفرك الى ستوكهولم ؟ » ٠

فردت الفتاة فى هدوء قائلة : « كنت أرغب فى الرحلات » .

« ماذا تقولين ؟ » .

« كان صديقى يرغب دائما فى ادخال السرور الى قلبى . وكان هذا هو السبب الوحيد الذى دعاه لاصطحابى » .

« أنت تكذبين يا فلاستا » .

« بشرفى هذا هو الحق » .

« أنت تكذبين » وبدت على وجه الكابتن مظاهر الغضب الشديد » .

وسالت الدموع من عينى الفتاة . وتعجبت هل كانت هذه أول مرة تسمع فيها الفتاة مثل هذه الالفاظ الجارحة .

« ما سبب سفرك الى ستوكهولم مع المحامى ؟ » .

وأخذت الفتاة تهمهم بألفاظ غامضة . وجلست صامتة لا تبدى حراكا . فسار الكابتن نحوها وأخذ يعبث بشعرها ويقول : « تكلمى أيتها العاهرة ! » ثم يسخر منها ويقول : « لا تبكين يا عزيزتى . فكل شىء له نهاية . كنت تجوبين الاقطار بصحبة هذا الوغد وتسافرين الى الخارج بينما كان هناك الالوف يموتونوأنت تتمتعين بملاذ الحياة ، والآن وقد تحول ميزان القدر ، فسوف تموتين اما أولئك الذين قاسوا مرارة انعيش فسوف يحيون وينعمون بحياتهم » .

وأخذت الفتاة تبكى صامتة .

فواصل النقيب كلامه يقول : « أصغى الى . أنت على قدر كبير من الرشاقة والجمال . ولكنك اذا لم تردى على أسئلتى فسوف أطيح بأسنانك من فمك اللعين . هل تفهمين ؟ » وأخذ يضع أصبعه على شفتيها ويقول لها : « ولن تحتفظى بعد الآن بهذه الاسنان البيضاء الجميلة . ولآخر مرة أحذرك وأسألك عن سبب سفرك الى ستوكهولم » .

ومرة أخرى عادت الفتاة فلزمت الصمت ولم ترد على سؤاله .

فما كان من النقيب الا أن نهض من مكانه ولطم الفتاة على وجهها لطمة شديدة ارتجت لها أسنانها • فترنحت ولكنها لم تسقط على الارض ، وتلاها بضربة أخرى سقطت على أثرها ، وأخذ يضربها بقسوة ظاهرة أمام عيني ، ويركلها بأحذيته الثقيلة فى وجهها • وأصابها بجروج • وبدأت الدماء تسيل منها • ثم أخذ يدوس على صدرها بأحذيته بحالة هستيرية • وسالت الدماء من وجهها وتناثرت على ملابسها • كما انبثقت الدماء من فمها وأنفها •

« أيتها المستهترة ! الوضيعة ! أنك لن تؤثرى على بعينيك الخادعتين ! أن شأنك كشأنهم جميعا : من الممكن شراؤكم بالمال » •

ودقت الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى قبل أن ينتهى كابتن سيتبانوف من استجواب الفتاة • وبينما كنت أرقب هذا المشهد الجنونى شعرت بأنى سوف أصاب بالذهول فأسرعت بمغادرة الغرفة •

وشعرت بألم شديد فى المعدة ورغبة فى الغثيان • وفجأة أثناء صعودى درجات السلم استولى على شعور بالرعب وخيل الى أن هناك من يتحفز لمهاجمتى • فشددت قبضتى على حاجز السلم واغمضت عينى حتى لا أرى ذلك الخيال المخيف وبدأت أصعد فى حذر ورهبة •

وهنا سمعت صوت كابتن نوموف يقول : « هذا أنت • كنت أبحث عنك » • وأنقذتنى كلماته من غفلتى فسألته محاولا أن أعود الى صوابى :

« ماذا جرى ؟ » فقال :

« لدى أمر عاجل • فهناك بعض مستندات الجستابو لابد من ترجمتها فى الحال » • وقلت له : « الى الجحيم كل مستندات الجستابو • انى منهوك القوى • وفى حاجة شديدة الى النوم » •

فقال النقيب : « وأنا متعب كذلك • ولكن أعمالنا لابد من انجازها قبل كل شىء » • وأخذ بذراعى يقودنى الى غرفته بالقرب من مسكنى • وترنحت حيث وصلت الى النافذة لاستنشق بعض الهواء النقى • فسمعت جلبة فى الطريق وصوت سيارات تحمل بعض الاسرى الجدد •

ولم أستطع أن أدرك السبب الذى من أجله يأتون بهؤلاء التعساء بالمئات فقد امتلات الغرف والدهاليز والاقبية وضاقت بمن فيها • ولم يكن هناك مكان لآخرين مستجدين بينما كان السجناء يتدفقون علينا • ثم تذكرت أن لدينا متسع للجميع • مكان يكفيهم جميعا وزيادة • مما يفسر لشعار : « **الموت للجواسيس** » • **الموت للجنس البشرى !** •

وكنت أدرك أنى على وشك الانهيار العصبى وأنا أسمع صوت الحارس فى الطريق يصيح قائلا : « هيا أيها الكلاب الحقيرة • أى شىء تبحثون عنه حولكم ؟ » •

واذا بصوت آخر يقول : « أدفع هذا الوغد الى الامام • أدفعه بفوهة بندقيتك » •

وهنا أغلقت النافذة فى الحال •

وكان نوموف قد أحضر شيخا ألمانيا أصلع الرأس • وقال لى : « كان هذا الرجل يعمل فى هذا الفندق » • وقال نوموف مخاطبا الرجل بلهجة ودية : « والآن يا فريتز • هل لك أن تخبرنا ــ وبسرعة ــ أين الذهب الذى اغتصبوه من اليهود » •

فأجاب الرجل : « لا أدرى »

وتقدم الكابتن نحوه يسخر منه ويقول : « دائما لا أدرى• لا أدرى »•

وفى الساعة الرابعة غادرت الغرفة وتوجهت قاصدا الى غرفتى • وفى مسكن النقيب شابيرو بالقرب منى سمعت أصواتا صاخبة يطلقها قوم سكارى فلم يكن الجدار الفاصل بيننا سميكا بحيث يمنع تردد الصوت •

كما سمعت صوت شابيرو وقد انتشى بفعل مشروب الفودكا : « اشربى يافانيا • الى الجحيم هذا ال فولوشن أو مهما كان اسمه » •

« سوف أشرب نخب النصر · نخب موت فولوشين » ألسنا جميعا مواطنين · أنت تشيكى · وأنا من التشيك × ·

ولما رقدت فى الفراش أخذت هذه الضجة تقل شيئا فشيئا كما بدأت أستسلم للنوم ·

وفى غسق الليل وبين شعورى بالانهاك وفقدان الوعى أخذت تساورنى أضعاف أحلام بتلك الاصوات وكأنها تقول :

« خذ مسدسا وأطلقه على نفسك · نعم تلك هى المأساة مرة أخرى · أنركونى بمفردى · الى الجحيم أولئك التشيك · الى الجحيم يا فلاستا · يا الهى ! حتى ولو كانت فلاستا مذنبة · ولكن لا · لا أستطيع المقاومة أكثر من ذلك ·

توقف عن اطلاق النار ! ·

« لا تكن جبانا ! التقط هذا المسدس · ان الامر لن يستدعى لحظة واحدة وسوف ينتهى كل شىء · واحد · اثنين · ثلاثة · أربعة ··· » ·

وتقلبت على الفراش ومررت بيدى فوق جبهتى محاولا ابعاد هذه الاحلام المزعجة · ولكنى عدت اسمعها تقول :

« هل تخاف من المسدس ؟ ، لماذا لم تتناول سيانيد البوتاسيوم ؟ أنها فى جيبك أيها الجبان ! أنت جبان تستحق الشفقة ! ضعيف الارادة ! اذا أردت الموت عبثا · اذهب الى الكولونيل واقتله · فهذه تعد بطولة على الاقل ··· ! » ·

وصرخت فى جوف الليل أقول : « دعنى وشأنى · أرجوك أن تدعنى وشأنى · دعنى أنام » ·

× *Tchekistsx* ويطلقها كثيرون من شعوب وسط أوروبا على الروس الذين لا تقف أى معنويات دون تدمير كل شىء وتحطيم كل فرد من اجل سيطرة الحكومة والحزب ·

ولكن الاصوات أصرت على ازعاجي تقول :

« تذكر يا نيكولا • تذكر كيف كان يرقص وهي بين أحضانه ؟ تلك الرقصة الشيطانية ـ رقصة سميرش • تذكر خيوط الدم وهي تسيل من شدقيها • لماذا لا تقضي على حياتك بيدك ؟ » •

وغادرت الفراش فجأة • فقد تبين لي أني سوف أصاب بالجنون أن لم أتملك أعصابي • وقررت أن أبعد من ذاكرتي هذا الكابوس المزعج • وأدركت أن قوة الارادة وحدها هي التي تتيح لي ألا أتحول الى مجنون بقية حياتي •

وأخذت أردد مرتين وثلاث وأربع : سيدى المسيح ! سامحني • وأغفر لي خطيئتي • لانك الآله ••• •

وهنا أخذت الاصوات من داخلي تسخر من أفكاري وتقول :

والآن أنت تحاول تلاوة الصلوات • لا تحاول تغيير ضميرك • فلست بأفضل من التشيك • أنت على حق مثلهم • ولست بخير منهم • لقد شاهدت الدماء تسيل من وجهها • لماذا لم تدافع عنها • قد كنت تشعر بالخوف ! » •

وحان الفجر • وتسللت أشعة الضوء الى كبد السماء الملبدة بالسحب • وسوف تشرق الشمس في مدى نصف ساعة •• الشمس •• أين كانت هذه بحق السماء ؟ لم أستطع أن أصدق ذلك • في مدى نصف ساعة ؟ وماذا يهمني من هذه الشمس اللعينة ؟ ولماذا هناك تشرق على أية حال ؟ وما هي تلك الشمس حتى يمكن مقارنتها بتلك القطرات من الدم تسيل من فم الفتاة ؟ لا شيء •

وهنا ترامى الى سمعي ذلك الصوت الاجش خلال الجدران وكان صاحبه لا يزال مخمورا : « هيا يا فانيا • لقد جاء الصباح • هيا الى الفراش • أنت لا تستطيعي اعتقال أحد وأنت مخمورة بهذه الصورة » •

« حسنا • اليوم • فأنا رجل عظيم • وفي الغد • ولكن لا • اليوم • سوف ألقى القبض على جنرال من ادارة المخابرات • جنرال يزين صدره بالاوسمة • جنرال صارم الوجه قاسي القلب » • وصور لي خيالي أن هذا هو الجنرال ••• ولكن لا • ليس هنا • ومن يكون اذن ؟ •

وجاء الخادم فى الساعة الثامنة ليوقظنى ويقول مبتهجا : « حان الوقت لكى تستيقظ أيها الرفيق الملازم » • ففتحت عينى ورأيت الغرفة قد ملاتها أشعة الشمس ، وشعرت بالانتعاش عند مغادرة الفراش • وأدركت أنه لا يصح أن أعود مرة أخرى الى التفكير فى تلك الامور التى أزعجتنى فى الليلة الماضية ، وذهبت الى دورة المياه حيث سكبت فوق رأسى قدرا من الماء البارد •

ونادى صوت من الخارج : « الصالة معدة لطعام الافطار » •

وكان مقر صالة الطعام فى فيللا تطل على الميدان الذى يفصل بيننا وبينها • وفي مدخل الباب التقيت بالعقيد قائد المجموعة • وكانت على وجهه ابتسامة توحى بالاعتداد بالنفس •

فبادرته بالتحية ورد تحيتى وقال : « هل استمتعت بالراحة والنوم هانئا ؟ » وكذبت فى قولى له « على أحسن حال » •

وهنا أصدر أمره يقول :« أسرع بتناول افطارك فأمامنا مهام كثيرة »•

وفى صالة الطعام رأيت الفتاة ايفا • وقد أصبح منظرها حقا لا يسر الناظرين • وكانت ترتدى ملابس مدنية بدلا من كسوتها العسكرية • وكان من الواضح أن ملابسها لم تكن مناسبة لها ولكنها لم تهتم بذلك فقد كانت توجه عنايتها الى ارتداء الملابس الحريرية مهما كان تفصيلها • وقالت ترحب بى : « هالو • نيكولا » •

فأومأت لها برأسى وجلست فى مقعد خال فى ركن الصالة بعيدا عنها بقدر الامكان •ثم جاء النقيب شابيرو واتخذ له مقعد بجوارى وهو يقول : « يا للتعاسة ! لم أذق طعم النوم مطلقا » •

وسألته : « هل أكثرت من تناول الخمر ؟ » فقال « نعم » •••

١٤

العواصف تتلاقى

بعد أن تناولنا طعام الافطار ركبنا سيارتنا « تاترا » التشيكية ، وعندئذ سأل سائق السارة عن المكان الذى نقصده • وكان شابا من سمميوف •

فقال له شابيرو : « الى ملعب ستراجوفسكى وكنت أشعر بالعطف على هذا السائق الذى كان فى خدمتنا طبقا لاوامر حكومة تشكوسلوفاكيا المؤقتة • وكانت أوامر شابيرو تقتضى أنه لا يغادر السيارة مطلقا حتى اذا غلبه النوم فأنه لا يفارقها •

وكانت المسافة من ستزيفيتشنز الى ستراجوف لا تستغرق أكثر من بضع دقائق • واستقبلنا نقيب تشيكى ـ وكان رئيسا للحرس ـ بقوله :

« لدى أوامر تقضى بعدم دخول أى شخص الى المعسكر » •

وهنا أخرج شابيرو بطاقته الشخصية وعليها اشارة NKVD فلم يجد رئيس الحرس ما يقوله سوى « نعم • نعم • تفضلوا » •

وكان مما يشق على النفس أن يدرك الانسان حقيقة ما يجرى داخل هذا الملعب الكبير الذى كان فيما مضى ميدانا للمرح والسرور والالعاب الرياضية • وأصبح الآن يضم المئات والالوف من الالمان الذين أخرجوا من ديارهم ، وشاهدنا بينهم امرأة تحمل طفلها بين ذراعيها وهى قذرة الملابس عارية الاقدام •

وكان الجنود فى وسط الملعب •

وسأل شابيرو يقول : « من هو قائد المعسكر ؟ » فأجاب ضابط متقدم فى السن وبرتبة العقيد : « ها أنذا » •

وطلب منه شابيرو أن يتبعنا وسرنا الى نهاية الملعب حيث جلس شابيرو على أحد المقاعد • ثم سأل الكولونيل :

« من أنت ؟ أو بالاحرى ماذا كنت فى الجيش الالمانى ؟ » فقال الرجل :

« كنت برتبة العقيد فى جندرمة الميدان » •

« حسنا • ومن هم هؤلاء المقيمون معك فى المعسكر ؟ » •

« من جميع الانواع والطبقات » •

« عليك أن تستدعى جميع الضباط من رتبة الرائد فما فوق على أن يجتمعوا هنا » واستغرق فحص هيئة كبار الضباط ثلاث ساعات • وأخيرا قال شابيرو :

« لقد حان وقت الرحيل • وسوف نأخذ معنا عقيد جندرمه الميدان ورائد قوة الصف فليس لدينا وقت لكى نضيعه مع صغار الضباط » •

وعند مدخل مقر القيادة التقى بنا الرائد جريشن وسألنا :

« هل سمعتم الانباء ؟ » •

فسألناه : « ما هى هذه الانباء ؟ » وأخذ يروى لنا :

« أنها قصة مثيرة • ففى هذا الصباح التقيت مصادفة بأحد زملائى القدامى ممن يعملون فى الهيئة المضادة مع جنرال كوبنيف • وهل تتصورون أنه قال لى أن فرقة عمليات كوبنيف هى أول فرقة اكتشفت جثة جوبلز •

وبطبيعة الحال كان هذا اكتشافا له قيمته ، واقتضى الامر كتابة الكثير من التقارير فى شىء من التفصيل ، كما احتاج الامر وجود الاخصائيين • وقرر عملاء كوبنيف ابلاغ القصة فى الحال الى كبار فرقتهم ، وللمحافظة على الامن وعلى اكتشافهم وضعوا على الباب حراسة مشددة •

وفي مدى نصف ساعة رجعوا ومعهم القومندان • وكذلك المصورون والاطباء والاخصائيون • ولكنهم عندما فتحوا الباب كانت الغرفة خالية • واختفت الجثة !

وأخيرا تم الاتفاق على أحد أمرين : اما أن جوبلز لم يكن فاقد الحياة تماما وعاد الى صوابه ثم لجأ الى الهرب ، أو أن أولئك الذين عثروا على جثته لم يكونوا بكامل قواهم العقلية وساورهم نوع من السراب الخادع •

وتفرق الجميع عندما وصلوا الى هذا القرار • ولم يأت المساء حتى كانت القصة قد انتشرت في جميع انحاء المنطقة •

يا للجحيم ! لقد جمعوا كل الحراس واستجوبوهم ، وقال الحارس المسئول أنه لا يعرف شيئا عما حدث ، وأصر على قوله أن الغرفة لم يدخل اليها أى فرد أو يغادرها أحد ـ على الاقل من ناحية الباب حيث كان يقوم بالحراسة • ثم أخذ الخبراء يذرعون أرض الغرفة الخالية ويفحصون كل مكان فيها فلم يعثروا على الجثة • وكان عملاء زوكوف يمتازون بمهارة ملحوظة • فلما سمعوا باكتشاف جثة جوبلز تمكنوا من الدخول عن طريق نافذة الغرفة وحملوها الى المنطقة التى يعملون فيها وأبلغوا اكتشافهم فى الحال الى مقر الرئاسة فى موسكو •

وهنا صاح شابيرو مبتهجا : « عمل مجيد قام به رجال أبطال • حقا أن هذه منافسة اشتراكية ! » •

وفي رأيى أن شابيرو كان على حق • اذ أن هذه المنافسة الاشتراكية كانت ذات أهمية كبرى بين رجال سميرش •

ولجأنا الى الراحة بعد تناول طعام الغذاء ، وكانت هذه الفترة القصيرة بعد الظهر هى الوقت الوحيد حيث يتخلى كل فرد عن العمل • كما كانت مقدسة حتى فى تلك الظروف القاسية فى براج • وقررت أن أستريح بعد ما لقيته من المشقة فى الليلة الماضية •

وما لبثت فى الفراش أكثر من عشر دقائق حتى سمعت جلبة فى فناء الدار • فهبطت درجات السلم حيث اشتركت مع مجموعة صغيرة من الضباط كانوا مجتمعين فى الفناء • وفجأة لاحظت جثة ملقاة فى أحد الاركان •

يا للهول ... ! هذا هو رافالسكى ! حقا هو دون شك ! فقد رأيته مرات عديدة فى كنيســة القديس نيقولا للاورثودكس فى براج . وقلت ذلك فى نفسى .

وكنت دائما أعجب بهيئته المحترمة ـ شعره الابيض ـ ولحيته البيضاء ووجهه المعبر والذى يدل على الذكاء .

وقال الرائد نادفورنى وهو فى طريقه للاشتراك مع المجمـوعة التى احاطت بحثه الرجل : « أنه يجود بأنفاسه الاخيرة » .

وأبدى الرائد بوبوف ملاحظة يقول : « ليذهب الى الشيطان .

ونظرت الى وجه الرجل وقد غطته الدماء المختلطة بالاتربة . ولسبب لا أدركه جال بذهنى شىء يتعلق بمبنى لوبيانكا وهو مقر رئاسة MKVD فى موسكو ، وتساءلت هل من الضرورى أن نرى شيئـا يختـفى بمبنى بوبيانكو هنا ؟ فنحن نعلم أن القوم فى موسكو كانوا يلقون بأنفسهم من النوافذ ويرتكبون جرائم الانتحار . والآن يفعلون نفس الشىء هنا . فقد كانت فى براج لوبيانكا أخرى فى المنزل رقم ١١ ـ مقر رئاسة سميرش .

كان الكهل المسكين يرقد قريبا من أقدامنا وهو يعانى سكرات الموت . لقد خدعه الزمن ـ الزمن الغادر . وكان الرجل قد اعتنق البولشفيــة . وها هو الآن . لقد عثرت لوبيانكا على رجل عجوز محترم فى براج .

ما أشد ما يتحمله الروس من وخز الضمير . هل هم أشد اجراما أمام الله من غيرهم فى أى دولة أخرى ؟ ولماذا يتحتم على الروس أن يقاسوا أكثر من غيرهم من أمم العالم أجمع ؟ اليست هناك أمم أخرى يرتكبون الآثام مثلهم وربما أكثر منها أمام الله ـ ومع ذلك يلاقون جزاء أخف وطأة ؟ حقا ان لله فى خلقه شئون لا يدركها عقل الانسان .

ها هى جثة ملقاة على الارض الصلبة وقد اختلطت الدماء بالاتربة . لماذا ؟ ربما لان هذا الرجل من أصل كريم . وأكثر احتمالا لانه كان يعشق الحرية . وباسم هذه الحرية اختار أن يعيش خارج أسوار الاتحاد السوفييتى وفى قرارة نفسى كنت أعتقد أنه ألقى بنفسه من نافذة الطابق الثانى لكى يتخلص من حياته .

ان اسم سميرش كان يقترن دائما بالدماء ولا شيء غير الدماء . وكنت أعجب هل هناك بقعة أخرى على سطح هذه الارض تعتبر خالية من الدماء التي كانت تملأ الاقبية والغرف وفناء الدار . نحن هنا التشيكيون . لا نستطيع الحياة دون أسالة الدماء التي كانت عناصر البقاء بالنسبة لسميرش .

ويفسر لنا تاريخ روسيا كيف تمكن ايفان المرعب من القضاء على مؤامرة أثيرت ضده . ولكي يتسنى له ذلك كان في حاجة الى ابريتشنيكا Opritchnike **وهي الفرقة الشهيرة التي كانت مكلفة بحراسة القيصر** ، ولكن ما قيمة هؤلاء بمقارنتهم بالتشيك ؟ ليسوا سوى اتباع أبرياء ولا شيء أكثر من ذلك ، ولم نكن في حاجة الى أن نفعل مثلهم بأن نلبس جلود الاغنام على أجساد الذئاب . فقد كانت مدافعنا الرشاشة تفي بالغرض . ولم يكن ايفان المرعب يتولى قيادتنا بل كان على رأسنا الرجل العاقل الأب ستالين .

ثم قام الجنود بلف جثة رافلسكي وحملوها الى الخارج .

وهنا قال شابيرو : « هيا بنا يا نيقولا » . فسألته :

« الى أين ؟ » .

وكان رده : « الى معسكر سميهوف » .

« ولاى داع ؟ » .

« ماذا تقصد بقولك لأى داع ؟ ان المكان يفيض بالجواسيس ! »

فقلت : « حسبنا . الى هناك يا كابتن » .

وكان معسكر أسرى الحرب يقع في مبنى احدى المدارس بالقرب من مصنع الجعة في سميهوف . وبمجرد وصولنا بدأنا في العمل الذى أصبح مألوفا لدى ــ فحص المستندات والاستجواب وتجنيد المخبرين . وعدنا في الساعة السادسة ومعنا جنرال من المخابرات كنا قد اعتقلناه . حتى اذا غادرنا السيارة استلمه جنديان وذهبنا به الى داخل المعتقل .

وأثناء صعودى السلم شاهدت سيارة أخرى تقف لدى الباب ٠ ورأيت النقيب شيبالوف يغادرها وعلى وجهه ابتسامة عريضة ٠ وكان وجهه المشرق يدل على أنه قانع بما صنعت يداه ٠ ثم أشار الى رجل كان معه وسأل : « هل تعرفونه ؟ »

ورأيت رجلا ضخم الجسم يغادر السيارة وقلت فولوشين فضحك وقال : « حقا هذا هو رئيسكم السابق » ٠

ونظر فولوشين الى وجهى نظرة زائغة ٠ اتضح منها أنه لم يتأكد من شخصيتى وكانت عيناه تدوران فى الفضاء كأنه لا يرى شيئا أمامه ٠ وهنا وقف أمامى ذلك الرجل الذى لم يكن سوى اداة فى أيدى رجال أذكياء أقوياء ٠ كما كان تحت نفوذ أولئك الذين هربوا من شبكة التشيك وقدموا فولوشين فدية لهم ٠

وأخذ شيبالوف يوجه اليه عبارات اللوم ويقول : « الى أى ناحية توجه نظرك أيها الرجل ٠ أتنظر الى السماء ؟ لقد فات الوقت ٠ كان أولى بك أن تصلى لربك بدلا من أن تعبث بالسياسة كما كنت تفعل من قبل »٠

وكان فولوشين يتفرس فى وجه شيبالوف على غير هدى ٠

فأمره النقيب بالسير وراء الجندى لوضعه فى السجن ٠

وسار الرجل وراء الحارس وفى عينيه ما يدل على أنه لم يصدق حقا أنه أصبح أسيرا فى أيدينا ٠

وهنا قال الكابتن : « هيا بنا يا نيقولا لنرى مقر هذا الجنرال من رجال المخابرات ؟ وتوجهنا الى السيارة حيث سألنا السائق : « الى أين ؟ » ٠ فأجاب الكابتن :

« الى جرادشنى ٠ ذلك القصر القديم الذى يقع فى أطراف المدينة » ٠ ولما بدأت السيارة تتحرك نظرت الى الخلف فرأيت الجندى يدفع فولوشين الى الامام بفوهة بندقيته ٠

وكان جنرال المخابرات يعيش عيشة راضية فى بذخ واسراف ٠ وكان مسكنه يحتوى على أثاث فاخر ٠ والارض مغطاة بالطنافس ٠ والجدران مزدانة بالنقوش البديعة ٠ فأخذنا فى فحص محتويات الشقة ولكننا لم

نعثر على مستند واحد له قيمة حقيقية ، ولم يكن هناك شيء يستحق أن نأخذه معنا سوى زجاجة من العطر وضعها الكابتن فى جيبه وقال : « قد تكون نافعة . والآن هيا بنا لنغادر المكان » .

ولما عدنا الى السيارة سألنا السائق : « الى أين ؟ » وتبين لنا أن السائق لا يعرف اللغة الروسية سوى هذه الكلمات « وأرشده الكابتن وقال له :

« الى شارع يندوفا » .

وتذكرت أن هذا الشارع كان يقيم فيه أحد صلاتنا من N.T.S. ولم يحدث أن التقيت بهذا الرجل من قبل . ثم اتضح أن شيبالوف كان يقصد أن يمر بمسكن أحدى صديقاته من براج . ولما رأى النوافذ مظلمة عدنا الى شارع دبلوستزلزكا رقم ١١ حيث تناولنا وجبة سريعة وشرعنا فى العمل فى الحال .

وعند عودتى الى غرفتى طلب منى أحد الحراس أن أتوجه الى الرائد دفورنى فأخذت أصعد السلم بخطوات بطيئة فى طريقى الى مكتب الرائد. وجال بخاطرى أن هذه هى النهاية . فلربما أعتقل الرائد بعض أصدقائي . ولأى سبب آخر يدعونى اذن ؟ وأنى على يقين من أنه فى غير حاجة الى مساعدة .

ولما طرقت الباب سمح لى الرائد بالدخول وطلب منى الجلوس بجانبه .

فلما رأيت وجهه هدأت ثائرتى وزال ما أشعر به من القلق . وكان يتحدث بلهجة ودية وقال : « أريد منك أن تصغى الى التقرير عن حادث انتحار رافالسكى ثم توقع عليه باعتبارك شاهدا » .

ولم يكن فى حاجة الى قراءة أكثر من بضع كلمات فكلنا نعرف ماحدث للرجل بالضبط . وكان العقيد كازاكافيتش قد أمر الرائد نادفورنى باستجواب رافالسكى وأثناء الاستجواب خرج الرائد الى الردهة ليطلب أبريقا من الماء . فانتهز رافلسكى هذه الفرصة وقفز من النافذة حيث سقط على الارض الصلبة . وشرخت جمجمته وكسر ذراعه الايمن . وفاضت روحه بعد عشر دقائق .

ووقعت بامضائى على التقرير .

وجلس الرائد نادفورنى الى مكتبه وقال : « شكرا ٠ سوف أراك فيما بعد » ٠ ثم بدأ كابتن شابيرو فى استجواب جنرال المخابرات ٠ وبعد ذلك توجهت الى غرفتى لترجمة أوراق الجنرال الخاصة ٠

وما لبث أن جاء أحد الحراس وطلب منى التوجه الى النقيب شيبالوف فقلت له : « قل لنقيب شيبالوف أنى مشغول » ٠

فرفع الحارس يده تحية لى وأعاد ما قلته له ليكون على يقين من كلامى ٠

وفى الخارج كنت أسمع حركة مستمرة للسيارات وضوضاء آلاتها ٠ فلم استطع العمل فى مثل هذه الجلبة المزعجة والتى كادت تفقد التفكير السليم ٠ فألقيت بأوراق الجنرال على المكتب وبدأت أذرع الغرفة فى عصبية ظاهرة ٠ كما بدأت أفكر فى طريقة للهروب من هذا الجحيم ٠ وكنت أعرف أنى لا أستطع ذلك ٠ ولكن كان لابد لى من الذهاب الى موكاشيفو ٠ لأخذ ما يلزمنى من المستندات اللازمة ٠

وبعد فترة قصيرة دخل النقيب شيبالوف الى غرفتى وهو يقول : هل أستطيع أن أشغلك دقيقة واحدة ٠ لقد ألقيت القبض على أحد التشيك ٠ وهو شخصية موضع اشتباه الى حد كبير ٠ ويقول أنه انفصل عن وزجته ٠ ولا بد لنا من معرفة مكان هذه المرأة » ٠

وتبعت الكابتن الى الدور الارضى حيث كان التشيكى معتقلا ٠

ونادى الكابتن على أحد الحراس لاستدعاء شريفنكا ٠

وحصلنا على المعلومات اللازمة فى بضع دقائق عدت بعدها الى غرفتى وتوجه النقيب لاعتقال زوجة التشيكى ، وأخذت أواصل العمل حتى الساعة الثالثة من صباح اليوم التالى حيث شعرت بأنى لا أستطيع العمل أكثر من ذلك ٠ فاستلقيت على الفراش بكامل ملابسى ٠ ولم أهتم بخلعها اذ كنت فى حاجة شديدة الى النوم ، واختفى صوت الضوضاء فى فناء المبنى ، وأثناء رقادى على الفراش فى هذا السكون من الصباح الباكر لم أستطع أن أخلى ذاكرتى من هؤلاء السجناء وقد انحشروا فى تلك الغرف الرطبة الضيقة ٠ فلم يكن هناك مكان يسمح لأحدهم بالجلوس مستريحا ٠ وأخذت الافكار تساورنى بينما لجأت الى الاسترخاء على الفراش ٠

وتصورت رافالسكى • وهو ميت يرقد فى بركة من الدماء والاتربة والقاذورات • وشابيرو وهو لا يزال يلقى بأسئلته وشتائمه فى وجه جنرال المخابرات • ويقول له : « أيها الجنرال • تخلى عن الكذب أيها الحقير » • وخيل لى أنى أسمع صراخه • لقد كان هذا ضربا من الجنون • ومن هو الملوم ؟ هل أنا ؟ ولماذا ؟ لان مولدى هنا ؟ لا • لست مذنبا •

لابد لى من النوم • فان مجرد التفكير فى سميرش يؤدى الى الهذيان •

وفجأة اتضح لى أنى لم أكن أتخيل أنى أسمع صوت شابيرو وهو يصرخ فى وجه الجنرال • بل كان الامر حقيقة واقعة • فقد سمعت صوته بعد أن أحضر الجنرال الى غرفته وأخذ فى استجوابه • وربما فعل ذلك لكى تتاح له فرصة التعاطى بعض مشروب الفودكا التى كان يحتفظ بها فى درج مكتبه ، وكان شابيرو يعلم أنى منهوك القوى • ولكنه • بدلا من أن يلتزم الهدوء فى عمله • أخذ يصيح كالمجنون • وظننت أنه مجنون حقا ، فقد فقدنا عقولنا جميعا • وأصبح كل فرد منا لا يستطيع أن يبتسم أو يبدو منشرح الصدر ، ثم تحولت أفكارى الى رافالسكى مرة أخرى • وشعرت بأنى ظلمت نفسى بتوقيعى على هذا البيان المزيف عن حادثة انتحاره •

وسمعت من الغرفة المجاورة صوتا أجشا يقول : « أنت أيها الوغد Du bist Kin general ! أنت لست جنرالا • بل أنت سافل دنىء ! » •

وأصبح شابيرو كالحيوان الكاسر • فلم يهمه أمرى • أو يلقى بالا لاولئك الذين يحاولون النوم فى غرفهم المجاورة ، وكاد الليل ينصرم وهو لا يزال يصيح ويسب ويلعن •

وفى مكان ما كان فولوشين فى موقف مماثل ويقاسى العذاب ألوانا • وكان يتلو الصلوات ولكن بعد فوات الاوان •

ثم نمت نوما متقطعا لم يستغرق أكثر من ساعتين واستيقظت فرأيت أشعة الشمس تتسلل من النافذة • وكانت قوية دافئة بحيث لم أستطع أن أتبين محتويات الغرفة بضع لحظات ، ثم ذهبت النسمات اللطيفة فى أيام منتصف شهر مايو ففتحت النافذة على مصراعيها وأخذت أحرك عضلاتى المتعبة واستنشق نسمات الربيع •

وتناولت طعام الافطار مع النقيب شابيرو • وكان مثلى منتعشا بجو الربيع فاقترح أن نتخلى عن العمل بقية اليوم ونتجول خلال الديار بقصد النهب والسلب •

وقال : « حقا ان الامر سهل الى أقصى حد . فكل هذه الابواب مفتوحة أمامنا وليس هناك من يجرؤ على ذكر كلمة واحدة فى وجه رجال سميرش . وهم يعرفون ذلك حقا ويخشوننا أكثر من خوفهم من رجال الجستابو فيما مضى » .

وأخذنا نجوس خلال الطرقات فى براج . وكانت وجوه القوم عابسة وينظرون الينا شذرا وفى شيء من البرود . ما أشد ما تغير القوم . فلم ينطق أحد بصيحات الترحيب كما كانوا يفعلون . ولم نسمع كلمة « نازدر » أى يا مرحبا .

وفى وقت متأخر بعد الظهر عدنا الى مساكننا حيث تبين لنا أننا لم نكن وحدنا من بين رجال سميرش ممن تخلوا عن العمل فى هذا اليوم وأخذوا يلهون ويمرحون . فقد ملا لفتننت كولونيل شابالين حقائبه العشر بالغنائم . وتفوق كابتن ميللر على الجميع اذ تمكن أن يملا تسع حقائب مما خف حمله وغلا ثمنه ،وأما شابيرو فكان يزهو فخرا بآلته الموسيقية، وكان جزاء شيبايلوف آلتى تصوير لايكا . وركز جريشن اهتمامه على جمع ساعات اليد . وكان بوبوف كغيره . يواصل أعمال النهب والسلب ولكنه كان حازما أكثر من رفاقه وأحسن الاختيار ، وكشأنه دائما كان حريصا هادئا ،فقد انفجر رجال سميرش ضاحكين عند رؤيتهم كوزاليفتش وهو يدخل الغرفة مرتديا بذلة أنيقة أخذها من أحد سكرتيرى الوزارة السابقين .

واثناء لحظات البهجة والسرور جاء أحد الخدم وأخبر شيبالوف بأنه مطلوب فى مقر الرئاسة فى الحال . وكان هذا يعنى أنه سوف يلقى عبارات التأنيب هناك كما سبق أن أخبرنا شابيرو بذلك . وقال لنا :

« لقد فشل الرجل فى اعتقال فلاسوف . وبالرغم من سفره الى بيلش فى ألمانيا فلم ينجح فى مهمته . ويساورنى الشك فى أن الامريكان يعملون على اخفاء فلاسوف فى مكان ما » .

وفى اليوم التالى كنت مع شابيرو فى سيارة تعبر بنا ميدان براخ . وطلب شابيرو من السائق أن يتوقف أمام أحد مخازن المجوهرات ، وهنا قال شابيرو : « سوف أدخل هذا المحل لاقضى لحظة هناك » . وبمجرد مغادرته السيارة شعرت بيد تلمس كتفى واذا بها يد ليزا .

يا ألهى ! لقد أصابنى الذعر • فقد يعود شابيرو فى أية لحظة • وهو يعلم أنى لم يسبق لى زيارة براج • وعند كتابة تاريخ حيـاتى قلت أنه فضلا عن المدن والقرى فى الكربات الروسية فان زياراتى لم تتجاوز بودابست •

فرحبت بالفتاة وقلت لها : « أرجو المعذرة فانى لا أستطيع أن أتحدث اليك ورجائى أن تذهبى الآن • وفى يوم ما قد أستطيع أن أوضح لك كل شىء » •

وظهرت على وجه الفتاة ملامح الضيق الشديد والخجل من الموقف فأسرعت الى حال سبيلها • ولم تبعد بضع خطوات حتى عاد شابيرو وهو يقول : « كان هذا الحانوت المنكود مغلقا • دعنا نواصل سيرنا » •

واتجهت السيارة فى طريقها • واتضح لى أنى تعلمت كيف أخفى مشاعرى لان شابيرو لم يلاحظ على وجهى شـيئا يدل على ما كان يجول بخاطرى ، ولكن ذهنى كان مشحونا بالافكار • اذ أن مجرد لقائى بفتاة كانت من زملائى فى المدرسة قد يكون سببا فى كشف الغطاء عن حقيقة أمرى • كما سوف يكشـف عن سابق حيـاتى فى براج • وعن صلتى السابقة بالمهاجرين الروس وعن أنى شاب كاذب مخادع وموضع ارتياب• وانى من المعادين للثورة ومن الجواسيس ومن الخونة ، واعتقدت أنه لن تمضى خمس دقائق قبل أن يكون بينى وبين القبر خطوة واحدة • وأخذت أعجب الى أين المصير • ولماذا قدرت لى النجاة من الخطر فى تلك اللحظة الحاسمة حيث كان الخطر قريب الوقوع •

على أية حال لم يكن الوقت قد حان لكى أشـــعر بشىء من الراحة والاطمئنان • وكان بجانب مجموعاتنا الخاصة بالعمليات مجموعات أخرى من رجال كونيف وماليفوفيسكى يعملون فى براج •

وكان عددهم يزيد عن عدد مجموعاتنا بكثير ، كما كان من المرجح أنهم تمكنوا من اعتقال بعض أصدقائى ، وربما كان اسمى مدرجا ضمن أسماء منظمة N.K.V.D. • فقد علمت من ميجر جريشن أن مجيئنا الى براج لم تكن له صبغة قانونية ، ومعنى هذا أن براج كانت تقع فعلا فى منطقة تابعة لقوات الاحتلال تحت رئاسة كل من "كونيف ماليفوفيسكى • كذلك لم يستطيع جنرال كوفالشوك أن يقاوم استغلال الفرصة السانحة ولذلك

بادر بارسالنا الى براج حيث أثبتنا أن ثقته فى مقدرتنا كان لها ما يبررها. فقد اعتقلنا مئات من الاسرى ، ولو تسنى لنا البقاء فى عاصمة التشسيك بضعة أيام أخرى لازداد عدد الاسرى من المئات وأصبح من الآلاف ، ولتمكن كافولشوك من اضافة نجمة أخرى فوق كتفيه وربما نال وساما جديدا .

وبينما كنا نعمل فى مدرسة سيموف فى وقت متأخر بعد الظهر واذا بأحد الالمان من أسرى الحرب يدخل مكتبنا . وكان كغيره من آلاف الاسرى أشعث أغبر رث الثياب غير حليق الذقن .

وقال لنا . « هل أستطيع أن أتحدث اليكما ؟ » فسأله شابيرو :

« ماذا جرى ؟ » فسعل الرجل وبدأ يقص قصته :

« كنت من عملاء المخابرات البريطانية . وكنت من عمال الارصفة فى هامبورج .مما أتاح لى توريد معلومات ذات قيمة كبيرة للبريطانيين ».

وهنا سأله شابيرو : « هذه أمور على جانب كبير من الاهمية . ولكن ماذا تريده منا ؟ » فقال الرجل فى جرأة ظاهرة :

« بطبيعة الحال أريد منكم أن تطلقوا سراحى » . فظهرت على وجه شابيرو ابتسامة ماكرة وقال له :

« حسنا . تعال معنا » .

وغادرنا المكتب بعد أن سلم الاسير لاحد الحراس . وفى أثناء عودتنا الى مقر الرئاسة أخذ شابيرو يناقش الحادث مناقشة عادلة دون تحيز . فقال :

« من الواضح تماما أن المخابرات البريطانية أصبحت لا تهتم بتدريب العملاء . وفى الحق انى متحير فى أمر البريطانيين » .

ولما سألته عن السبب قال :

« انهم يدربون العملاء بطريقة خاطئة . فان أى عميل ـ بصرف النظر عن الحكومة التى يعمل لصالحها ـ من واجبه دائما طول حياته أن يضع نصب عينيه ـ فى كل زمان ومكان ـ أنه لا يجدر به مطلقا أن يصرح بأنه من العملاء » .

« فى هذه الحالة المعينة أظن أنى أفهم حقيقة الرجل والبواعث التى دفعته · وربما أصبح يعتقد الآن أن الحرب قد انتهت · وبوصفه من أعداء هتلر من وراء ستار فانه جدير باستعادة حريته · وهذا نوع من خداع النفس وله ما يبرره فى هذه الظروف · أليس كذلك ؟ ·

فقال شابيرو : « كان يجدر بالبريطانيين أن يرشدوه الى احتمال وقوعه أسيرا فى أيدى منظمة N.K.V.D. » · وسألته :

« وما هو مصيره الآن ؟ » فقال :

« نحن لدينا حالات كثيرة من هذا النوع · والاجابة واضحة وهى الموت للجواسيس · والآن علينا أن نواصل السير ، ولا يزال أمامنا أن نتوجه الى شارع بندوفا حيث نقوم بتفتيش أحد المساكن كما علينا أن نستجوب هذا العميل البريطانى » ·

وكانت الساعة الثانية صباحا عندما عدت الى مسكنى فى النهاية وكنت مصمما على النوم بالرغم من رهبة الموت المنبثة فى كل مكان من حولى · كما كنت أسمع ضوضاء سيارات النقل تغدو وتروح كل بضع دقائق وهى محملة بالاسرى · وكذلك كنت أسمع جلبة الاستجوابات المستمرة والصيحات والتأوهات فى الغرف المجاورة ، وحاولت أن أسمح لهذه الموسيقى الحزينة أن تغرينى على النوم ، ولولا ما كنت أشعر به من التعب وشدة الارهاق لما استطعت أن أغلق عينى وأستسلم للاغفاء · ولكنى كنت قد جاوزت حدود الطاقة البشرية ·

وفى اليوم التالى خرج سكان براج عن آخرهم وأخذوا يتدفقون فى الطرقات للترحيب بالرئيس بنيش وكان منهم الشباب والاطفال والفتيات والمتقدمون فى السـن من الرجال والنسـاء والجميع بملابسهم الزاهية

يتجمعون فى أركان الطريق ويهتفون ويلوحون بأعلامهم ، وكان المواطنون فى براج يهتمون دائما بمثل هذه الاحتفالات · ومن عاداتهم المفضلة رفع الاعلام على المنازل والمبانى والحوانيت وفى كل مرة أثناء مرور الرئيس يهرعون لمشاهدته وتحيته ، وكما كان يحدث دائمـا من قبل كان من المتعذر المرور وسط هذا الزحام حتى ولو كان بالسيارات ، وهذا ما حدث اليوم مما دعا النقيب شابيرو للشعور بالضيق والتذمر · فقد أصبح من العسير أن نصل الى شارع بندوفا من مقر عملنا فى سيموف ·

وأخذ شابيرو يعبر عن سخطه ويقول : « اللعنة على هذه الظروف • فنحن لا نستطيع مواصلة السير • وسـوف يفوت الوقت ونتأخر عن مهمتنا » •

وبينما كانت السيارة تشق طريقها فى بطء شـديد كنت أراقب القوم وهم يضحكون مستبشرين وكنت أحسدهم على هذا السرور والمرح• فقد كان هؤلاء القوم سعداء الحظ • ولم يقاسوا من ويلات الحرب الا قليلا• كما أصبحوا الآن مغتبطين بعودة رئيسهم العظيم • وأما نحن فقد أصابتنا اللعنة ولم يكن أمامنا سوى الاسراع فى العمل على طول الخط •

ولماذا ؟ وما هو الغرض المقصود ؟ ربما كان ذلك بقصد اعتقال أكثر ما نستطيع من أعداء دولة السوفييت • كما كان الاتجاه أن تصبح أوروبا كلهـا قارة شـيوعية • ولكن هـذا لا يمكن أن يتم على أيدى الاحزاب الشيوعية أو عن طريق الصحف التى تصدر فى موسكو ومحطات الاذاعة، واذا كان الغرض أن تصبح أوروبا شيوعية لابد أن تكون تحت سلطان أشد الناس اخلاصا لحكومة السوفييت •

وفى ليلة ٢٠ مايو جاءتنا الاوامر بمغادرة براج والسير نحو ناردويتز وأصبحت قاعدة سـميرش أشـبه شىء بخلية النحل ، وأرسلت آخر مجموعة من الاسرى الى مقر القيادة ، ثم عبئت الحقائب بغنـائم النهب والسلب • ووضعت فى سيارات النقل التى أخذت تشق طريقها نحو البلدة المقصودة •

ولم أستطع أن أصدق أن الخطر الشديد الذى يحدق بى قد انتهى فى براج • أو حتى تأجل الى ميقـات معلوم • فقـد كان يلازمنى أينمـا توجهت •

ثم حدث أنمجموعات سميرشللعمليات لم تعتقل أحدا من أصدقائى• وفشلوا فى العثور عليهم ، كما فشلت مجموعة العقيد شابالين فى مهمتها لاعتقال فلاسوف • ولم يحصل عملاء سميرش التابعون لكونيف على الجائزة التى وعدوا بها • ولو كان فلاسوف قد وقع فى أيدى مجموعات سميرش لعلمنا ذلك من مدة طويلة ، ولكن مما لا شك فيه الآن أنه أصبح آمنا مطمئنا فى أيدى الأمريكيين •••

* * *

١٥

الشكر لله .. كنت بمفردى

وصلنا الى باردوبيتز واستقرت وحداتنا فى أماكنهـا فى مدى ثلاثة أيام ، وبدا لنا أن المدينة تتكون من مجموعات وعمارات شاهقة تطل على ميدان به جنـات وعيون ، ولكن أقيمت هنـاك الحواجز ووقف الحراس يسدون منافذ الطرق ٠

وكانت مهمتى تقتضى مراجعة سجلات المهـاجرين الروس فى مركز التسجيل الذى كان الجستابو يحتفظون به فى براج ، وأحضرنا معنـا هذه السجلات من عاصمة التشيك بعد أن وقعت هذه الملفات فى أيدينا ٠

وبينما كنت أنظر فى هذه الملفات وأقلب صفحاتها أقسمت أن رئيس هذا المركز ـ بيفر موف ـ والمعين من قبل النازى لو حضر أمامى الآن لما ترددت فى لطمه على وجهه ٠ اذ يبدو أنه من المستحيل أنه غادر قبل أن يتلف هذه البطاقات والصور الفوتوغرافية وكل هذه السجلات الهـامة الحيوية ٠ فاذا كان هذا الاحمق يريد حقا أن يخدم هتلر فقد كان عـلى الاقل يعمل على تخفيف ذنوبه بألا يترك كل هـذه الادلة لتقع فى أيدى منظمـة NKVD ، وقد أصبحت هذه الآن الطريق الوحيـد الموصل الى الذل والعبودية ٠

وفى أحد الأكوام بدأت فى فحص ملفـات ذلك القسـم الذى كان يشتمل على جميع من كانت لهم علاقة بالحركات المعـادية للشيوعية من بين المهاجرين ٠

يا الهى ! لقد عثرت على نيقولا سينفرسكى سنة ١٩٤٢ !

يا الهى الرحمة ! لقد تجمدت مفاصلى ٠

ففي سنة ١٩٤٢ أرغمت على تسجيل اسمي مع ييفيرموف . وكانت صورتي الفوتوغرافية التي أخذت في ذلك الوقت ملصقة على البطاقة التي أمسكها الآن بيد مرتجفة . صورة طبق الاصل . بملابسي العسكرية الكاملة وعلى قبعتي شارة الروس .

وبسرعة أطبقت يدي على البطاقة . وسال العرق البارد من جميع أجزاء جسمي بينما كنت ألتفت في كل ناحية . الشكر لله . فقد كنت بمفردي . ومزقت البطاقة والصورة وكل ما يدل على شخصيتي ووضعتها في جيبي الداخلي قطعا متناثرة ، ثم أسرعت بفحص الملفات واستخرجت منها ـ على قدر ما أستطيع ـ جميع البطاقات التي تتعلق بأشخاص كانوا يعملون معا في N.T.S. وطوحت بها في نار المدفأة . وأشعلت عودا من الثقاب وأحرقتها كلها حتى لا يبقى لها أثر ، ثم دست بحذائي على الرماد زيادة في حرصي على القضاء عليها ، ودار بذهني أن الرفيق جنرال كوفالشيك لن يشعر بالقلق . فان محفوظاته ومستنداته كانت في أيد أمينة .

وفي اليوم التالي عهد الى بالعمل مع الملازم كذياكنتين . واقتضى الامر أن أعمل في الملفات مرة أخرى .

وأمسك الملازم بورقة في يده وقال : « انظر يا نيقولا الى ما هو مكتوب في هذه الورقة . هو تصريح لأحد مهاجري الروس ويقول : كنت دائما أعتبر أني من الروس ، وحتى في سنوات الازمة الاقتصادية عندما حرم على الروس الحق في العمل لم أعتبر أني من التشيك ، ثم علق كيزياكين على ذلك بقوله :

لابد أن هذا رجل صالح .

وكان هذا الضابط يعمل في منظمة سميرش منذ أن كان في الثانية والعشرين من عمره ،وبالرغم من كل ماشاهده لم يستطع أن يفهم حقيقة تلك السياسات المعقدة التي كان يتبعها الاتحاد السوفييتي سواء الداخلية منها أو الخارجية ، وكان يعجب حقا بهذا المهاجر الروسي الذي عاش سنوات في الخارج وهو يعاني شظف العيش ولكنه رفض أن يتخلى عن شخصيته باعتباره من مواطني الروس .

وفى منتصف الليـل استدعيت فجـأة للتوجه الى مكتب الجنـرال كوفالشيك وكان النقيب شيرنى ـ مساعد الجنرال ـ يجلس الى مكتب خارج غرفة الجنرال وعند دخولى ابتسم فى وجهى وأشار الى باب كبـير وقال : « أدخل مسرعا فهو فى انتظارك » ٠

وكان الجنرال يجلس فى مقعد كبير من الجلد أمام منضدة مستديرة سطحها لامع ٠ وكان ضوء المصباح على مكتبه يعكس ابتسامته ونظراته الودية ٠ والى يمينه كان يجلس العقيد جوريشيف رئيس هيئة الموظفين التابعين للجنرال ٠ وقال كوفالشيك وهو يرد تحيتى له : « اجلس هنا أيها الرفيق المترجم ٠ فأنى فى حاجة اليك ٠ وأرجو أن تترجم لى ما جاء بهذه المقالة فى هذه الصحيفة » ٠

وأعطانى صحيفة تشيكية ثم أشار الى مقالة تحت صورة هتلر وهى محاطة بخطوط سوداء ٠

وقبل أن أشرع فى الترجمة سألنى العقيد جوريشيف قائلا :

أى شهر هذا ؟

شهر ابريل ٠

« حسنا ٠ اذن »

وبدأت فى ترجمة المقالة التى كانت تصف بطولة هتلر أثناء موته خلال الموقعة من أجل برلين ٠ وكانت المقالة محررة بأسلوب عاطفى الى أنصى حد ٠ وبينما كنت أقرأها كان الجنرال يستمع اليها بأذن صاغية ٠

حتى اذا انتهيت من الترجمة قال الجنرال : « حقا انه سر غامض فى نظرى ان كان هتلر قد مات أو لا يزال على قيد الحياة ، فاذا كان قد مات فعلا فانى على يقين من أن ذلك لم يكن فى برلين ، ألم يرغمك على العمل حتى آخر حدود الارهاق ؟ وبدا لى أنه قال ذلك وفى خاطره شىء آخر ٠

فقلت له مبتسما : « لا ٠ ان العمل ذاته هو الذى أضـنانى » ورد قائلا :

« سوف تعتاد عليه مع مرور الوقت . فقد كنت لا أميل مطلقا الى قضاء ليال فى استجواب الأسرى . ولكن العادة تتغلب على طبيعة الانسان » .

وبعد أن سكتنا لحظة استأذنته للخروج . فسمح لى بعد أن أعرب عن شكره وتقديره لجهودى .

وغادرت الغرفة . ثم تبين لى اذ ذاك أن جاسوسية السوفييت المضادة لا تعرف شيئا عن هتلر ومصيره ، وكان رجالها ـ ومثلهم كمثلنا ـ يفرضون أمرين . أولهما أن هتلر لقى حتفه ولكن ذلك لم يكن فى موقعة برلين . والأمر الثانى أنه لا يزال حيا ـ فى مكان ما . وفى كلتا الحالتين لم يقع فى أيدى السوفييت .

ومما كان يثير الضباط السوفييت الى أقصى حد هو أن معظم كبار ضباط هتلر فضلوا التسليم اما للبريطانيين أو للأمريكان .

وبعد بضعة أيام عهد الى بالسفر فى رحلة تستغرق ثلاثة أيام مع الرئيس المباشر للمخابرات التابعة لجبهة أوكرانيا الرابعة ، وأخذنا ننتقل بالسيارة من معسكر الى آخر حيث كان الاسرى الالمان يقيمون . وقال رئيس المخابرات يوضح الموقف : « نحن فى حاجة الى أعلام ألمانية والى بعض الغنائم لاقامة استعراض كبير فى موسكو » .

وعند عودتنا لعرض النتيجة على رئيس الهيئة العقيد زوكوف كان لابد لنا أن نقول أن الالمان لم يحضروا معهم أعلامهم وشاراتهم ، وكل ما عرفناه أن الشارات والاعلام كانت تحفظ فى مقر رئاسة الوحدات الاحتياطية التى تبعد كثيرا عن مؤخرة الخطوط الامامية ، وهذا يفسر السبب فى أن أسرى الحرب لا يعلمون شيئا عن الاحتفالات بالنصر .

وأخذ العقيد زوكوف يسخط على الدوائر العليا فى الجيش السوفييتى ويقول : « هؤلاء دائما يخترعون أمورا ويفكرون فى مهمات علينا أن نقوم بها ! وبعد ذلك نصبح مسئولين عن تنفيذها ! يا لهم من أوغاد ! ثم أضاف :

ولكنى أشكرك على أية حال .

وعندما دخلت غرفة النقيب شابيرو وجدت رجال سميرش يجلسون حول منضدة ويتعاطون الخمر بينمـا امتلأت الغرفة بسحب الدخـان المتصاعد من لفافات التبغ •

ورفع شيرنوسوف كأسه وصاح قائلا : « فى صحتكم أيها الرفاق »

وهنا سأل كوزياكين : « نخب من نحن نشرب الآن ؟ »

ليس لنا غرض معين ونحن لا نشرب نخب أحد •

ونظر الرائد جريشين الى تشيرنوزوف نظرة استفهام •

وهنا اعتذر تشيرنوزوف قائلا : « أرجو ألا تغضب أيهـا الرائد • فقد كنت ظمآنا • لقد ضقت ذرعا بأوروبا اللعينة •

وبدا أن تشيرنوزوف يستطيع أن يتخلص بسـهولة من أى موقف حرج ، كما كان يقوم بتنظيم حفلات لتعاطى المشروبات • وذلك احتفالا بترقيته من ملازم ثان الى ملازم أول •

بعد ذلك بادره الرائد جريشين بقوله : ان أوروبا ـ أيهـا الرفيق تشيرنوزوف ـ لم تصل بعد الى هذه الدرجة من السوء ، كما أننا سـوف نعمل على تنقيتها من الشوائب فى الوقت المناسب ، وبعبـارة أوضـح سوف نقضى على الاتجاهات البورجوازية وحينئذ تصبح أوروبا مرتعـا خصبا تصلح الاقامة فيه فى لذة وهناء •

وقاطعه شابيرو قائلا : « أنا كذلك أحب أوروبا • كلما ازداد عدد الآنية المليئة (كلما ازداد عدد الاثرياء) كلما كان ذلك خيرا لنا ، وكلما أتيح لنا القضاء على الكثيرين » •

وهنا جاء أحد الحراس ليبلغنا أن كولونيل دوشـفيك يطلبنى لـكى أذهب معه فى جولة بين مراكز التجميع لاتخاذ اجراءات ترحيل المواطنين الروس ، ولم أكن أشعر برغبة فى مغادرة المكان حيث كنت أتوقع الحصول على بعض معلومات هامة من رجال سـميرش وخاصة بعد أن تلعب الخمر

بعقولهم ، فقد كانت الفودكا سببا فى اطلاق ألسنتهم ، ولـكن الاوامر كانت هى الاوامر وخاصة اذا صدرت من العقيد دوسنيك . واذا عصيتها مرة واحدة فلن تتاح لى فرصة أخرى .

وأمرنى العقيد بأن أتحدث الى ضابط برتبة النقيب وكان رئيسـا لاول معسكر قمنـا بزيارته ، وهناك دعانى النقيب للجلوس فى مكتبه وقال : «اجلس هنا أيها الرفيق المترجم . أريد ترجمة عدة أوراق عاجلة»

وكان يجلس أمام الكابتن رجل عابس الوجه يضرب لونه الى السمرة فألقيت على هيئته نظرة سريعة حيث تبين لى أن أمامى ضـحية أخرى من ضحايا الارهاب الاحمر وبدأت فى ترجمة المستندات التى دلت على أن الرجل كان يدعى أندرى .. ت .

وسأله النقيب بصوت أجش : كيف حدث أيهـا الحقير الملعون أنك انفصلت من الجيش الاحمر أثناء تقهقره ومكثت هنا ؟ ألم تـكن صـالحا للتجنيد ؟

وظل الرجل صامتا لا يحرك سـاكنا . وكانت ملامح وجهه الحزين تعكس ما يشعر به من مأساة عميقة الجذور . وكان يحول نظره نحوى مرة . ثم ينظر الى النقيب ثم الى النافذة ، وخفض النقيب صوته وهو يوجه اليه السؤال التالى وقال :

لماذا لم ترد على سؤالى ؟

فهز الرجل رأسه وعض على شفته فى عصبيـة ظاهرة . وكان من الواضح أن الرجل لا يبالى بأسئلة النقيب . فقد كان غارقا فى أفكاره . وربما كان يدبر أمرا هاما عقد العزم على تنفيذه . وهو اما أن يهـاجم الكابتن ثم يهاجمنى ويقفز من النافذة . أو يتجه نحو النافذة مباشرة . فقد كانت الليلة حالكة الظلام ومن السهل أن يختفى عن أعين الحراس

وأخـذ النقيب يصيح فى وجهه : « تكلم أيهـا الكلب الحقير . والا أرغمتك على الكلام بهذا السوط » .

وهنا اعتدل أندرى فى مقعده وكأنه عاد الى صوابه · ثم استعرض فى مكانه مرة أخرى · وعند ذلك استخرج النقيب من درج مكتبه غدارته وصوب فوهتها نحو الاسير ·

فنهض أندرى من مقعده وصاح قائلا : « هل تعتزم قتلى آيها النـذل مصاص الدماء ؟ لماذا لا تبادر باطلاق النار ؟ لماذا تتردد ؟ اطلق مسدسك وكشف الرجل عن صدره عاريا أمام النقيب وقال يتحداه : « اطلق النار أيها الحقير ! »

وكان صوت الرجل يهتز مما يوحى بشعوره باليأس المرير · فأخفض النقيب يده وغدارته على غير رغبة منه · وساد الغرفة جو من الصمت والشعور بالضيق الشديد · فقد كان انفجار الاسير مفاجأة له لم يكن يتوقعها · وبقى لحظة شارد الذهن ثم نادى الحارس الذى اندفع الى الغرفة قائلا :

نعم أيها الرفيق النقيب ؟

ونظر الرجل نحو الحارس نظرة حقد وكراهية ثم قال للكابتن :

هل ناديت حقيرا آخر لمعاونتك ؟

وهنا لوح الحارس بقبضة يده فى وجه الرجل الذى بادر بأن أمسك بذراع الحارس ولوى معصمه ثم زمجر قائلا : اياك أن تلمسنى ! ولكن الحارس لطمه على وجهه واشتبك الرجلان يتصارعان · وكان الرجل يلهث ويصيح قائلا : أيها السفاحون · مصاصو الدماء · أيها السفلة !

وفى بضع ثوان اندفع الى الغرفة جنديان آخران · وكان تردد الاسير لحظة سببا فى تقرير مصيره · فلو كان حاضر البديهة سريع الحركة لتمكن من الهرب وانتهز فرصة الاضطراب الذى ساد الغرفة · ولكن خانتـه شجاعته واستسلم للجنود الذين أوثقوه وسحبوه الى خارج الغرفة ·

وأخذ النقيب يذرع أرض الغرفة فى عصبية ظاهرة وهـو يحـاول تهدئة مشاعره ويقول : هذا درس لك · انتظر قليلا وسوف ترى أيهـا الخائن الحقير !

ولم أستطع الترجمة أكثر ن ذلك • فقد شاهدت أحد الروس الشجعان يوقع وثيقة موته • شاهدت رجلا لا يخشى بأس التشيك • وحتى لو أتيحت له النجاة من اطلاق النار عليه فهو لن ينجو من قضاء عشرين سنة أشغال شاقة في أحد معسكرات الاعتقال ـ وهى مدة توازى عشرين موتة يموتها • وكان هذا أحد الرجال الذين قال عنهم راديو موسكو انهم قاسوا شظف العيش ومرارة العبودية لدىالالمان . ويستحقون أعظم احترام وتقدير • ولكن هده لم تكن سوى اذاعة من راديو موسكو اذاعة لا تتفق مع الحقيقة والواقع •

فمن قبل كان الالمان هم الذين بصقوا في وجهه واحتقروه لانه قادم من روسيا •• واليوم يحكم عليه مواطنوه الروس بأنه خائن • وكان هؤلاء المواطنون أشد قسوة وتعذيبا له •

وجال بخاطرى أنهم قد يعمدون الى قتلى أيضا • فقد أصبحت أضيق ذرعا بالموقف • ولم أعد أشعر بشىء من قوة الارادة لولا واجبى ولولا مهمتى التى أقوم بها • ولكن ما هى الفائدة التى تعود على من مجرد التفكير في هذه الناحية • فلابد من أن أحتفظ بما بقى لدى من المقدرة والشجاعة وقوة الارادة • اذ أن مهمتى تقتضى السير فى تأديتها حتى النهاية •

وأخذت أعجب هل هناك مكان آخر على سطح الارض حيث لا يموت الالاف من الروس بين آونة وأخرى • فقد ماتوا فى جبهات القتال دفاعا عن أوطانهم • وفى الوقت ذاته نجوا من الهلاك ليقعوا تحت كاهل الشيوعية • ثم كانت نهاية حياتهم فى معسكرات الاعتقال التابعة للألمان وفى سجون النازيين • واليوم يموتون فى مجاهل سيبيريا وفى السجون المظلمة التابعة لبوليس أمن الدولة • ولكن بالرغم من هذا كله كنت أشعر في قرارة نفسى بأنه ليس هناك من يستطيع التغلب على الشعب الروسى أو كسر شوكته • حتى ولو كانت منظمة أمن الدولة • فقد عاش الشعب الروسى وتخلص من كاهل التتار ـ تلك الايام العصيبة فى أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر • وسوف يتخلصون من عبء الشيوعية •

* * *

١٦

العبيـــد

كان الرائد جريشين صريحا ثرثارا فى حديثه عن الكربات الروسية واتضح أن الشيوعيين من الكربات لم تكن تصرفاتهم على غير هدى كما كنت أظن • فقـد كان ايفان ايفانوفتش يتلقى تعليماته من كل من جنرال كوفالشوك ومن مهليس رئيس المجلس العسكرى السوفييتى، وكنت سـاذجا الى أبعد حـد فيما يتعلق بمعلوماتى عن الحزب الشـيوعى فى الكربات • اذ كان يتلقى أوامره من موسكو مباشرة • وشـأنه كشأن الاحزاب الشيوعية فى جميع أنحاء العالم • ثم تبين أن الرائد جريشين لا يهتم كثيرا بهذا الموضوع فقد بدأ يتحدث عن المارشال زوكوف •

وقال الرائد جريشين يحدثنى : « كثيرا ما سـمعت آراء تحط من شأن المارشال زوكوف •وحتى بلغنى أن المارشال قال أثناء مأدبة كبيرة : « من أنقذ روسيا ؟ أنا الذى فعلت ذلك ؟ لقد أصبح الرجال مغرورا الى حد ما » •

وفى جبهة قيادتنـا علمت أن جنرال كوفالشـوك كان يشرف على تصرفات جنرال أفريمانكو اشرافا محكما • وكان هذا قائدا للجيش • وفى جبهة زوكوف اتخذت الاجراءات ذاتها • فقد كان عليه أن يدرك تماما أن أحد رجال مارشال ستالين ممن يعتمد عليهم الى حد كبير ــ وهو رئيس مخابرات سميرش المضادة ــ كان أيضا رئيس المجلس العسكرى فى قطاع قيادة زوكوف • ومن الواضح ــ بطبيعة الحال ــ أن زوكوف كان يعتمد كثيرا على سلطته وشهرته فى الجيش • كما كان من الواضح أيضا أن مثل هذه الامور لم تكن تكفى مطلقا لمعـارضة الاوامر الصـادرة من الكرملين •

وفى ١٣ من يونيه ــ حيث دلت الشواهد كلها على أنه يوم مشئوم ــ توجهت مع شابيرو وشرنوزوف وتوزباتن الى باردوبيتز للعمل فى معسكر الالمان من أسرى الحرب ، وكانت المكاتب التى تعمل بها تقع فى مبنى فى منتصف ذلك الصف الطويل من الثكنـات الحربية ، وكان علينا ــ أن

نفحص بخاصة هيئة كبار ضباط المعسكر. فبدأنا بلفتننت جنرال بيكر. ومن بعده القادة الآخرون ثم الضباط من رتبة العقيد والمقدم وهكذا . وفى هذا اليوم كنت مساعدا لكابتن شابيرو بينما كان الملازم توزياتين يساعد شرنوزوف .

وحوالى الساعة العاشرة صباحا دخل الغرفة ضابط بدين برتبة المقدم . وكانت هيئة تختلف كثيرا عن الهيئة العادية للضباط الالمان . فقد كان له وجه مستدير متورد الوجنتين . أصلع الرأس . وتشع من عينيه نظرات حادة .

وأمره الكابتن بالجلوس . ثم سأله عن اسمه .

وذكر الرجل اسمه كما لو كان على غير رغبة منه . فلاحظت فى الحال أن نهاية اسمه تدل على أنه سلافى الجنس .

« أين كان مولدك ؟ » وكان رده :

« فى فينا » فقال الكابتن :

« حسنا . هذا مما يدعو للعجب » .

ولم أستطع أن أفهم كيف يكون مولد الرجل فى فينا أمرا يدعو للعجب .

ولكن شابيرو بدأ يقول : « أن مستقبل النمساويين أفضل بكثير من بقية الالمان . وقد انتهت الحرب . وسوف تقضى مدة شهرين فى الاسر وبعد ذلك يسمح لك بالعودة الى وطنك » .

وأخذ العقيد يدخن بشراهة ويجذب أنفاسا متلاحقة من السيجارة التى قدمتها له ، وبدت على وجهه مظاهر الرضا وهو يواصل تدخين سيجارته . كما دلت عيناه على هدوء البال وراحة الضمير ، ثم أخذ النقيب شابيرو فى الحديث حول أمور غير ذات موضوع . ويوجه للعقيد أسئلة معظمها تتعلق بمعلومات أولية ـ مثلا ـ كيف كان الجيش الالمانى يحصل على الامدادات فى آخر مراحل الحرب ؟ كم مركا يتقاضاها الملازم فى الجيش الالمانى فى الشهر ؟ كم كان مرتب الضابط برتبة المقدم ؟ وكان العقيد يجيب على كل سؤال عن طيب خاطر .

كذلك سأله شابيرو : « انى أراك رجلا متزنا · فهل لك أن تخبرنى حقا وصدقا · هل كان الالمان على ثقة من احراز النصر النهائى ؟ » ·

وكان رد الالمانى بالايجاب · وعاد شابيرو يقول :

« حسنا · وعلى أى أساس كانت تلك الثقة ؟ » فأجاب الرجل :

« انى لا أقول حقائق ثابتة · ولكننى أشعر بأن هذه الثقة كانت بناء على الشائعات حول وجود أسلحة جديدة سرية اتخذها جوبلز دعاية لرفع الروح المعنوية بين المواطنين وبين أفراد الجيش · وفى رأيى أن هذه الدعاية لم تكن وحدها بل كانت وراء هذه الشائعات أمور أخرى أقرب الى الحقيقة والواقع » ·

واستنتج شابيرو من عدة أسئلة أخرى ألقاها على العقيد · أن الرجل لم تكن لديه معلومات دقيقة حول الاسـلحة السرية الجديدة · وبحذق ولباقة حول مجرى الحديث الى المخابرات الالمانية · وقال أنه يظن أنها على أدق نظام بالرغم مما يعتورها من بعض نقائص خطيرة وبخاصة فيما يتعلق بمعلومتها عن مخابرات الاتحاد السوفييتى ·

وقال الكولونيل : « أنت على حق · فان مخابراتنا كانت دائما ترتكب أخطاء جسيمة · وانى أعرف كثيرا من تلك الاخطاء » · فسأله شابيرو ·

« وهل معلوماتك هذه موثوق بها ؟ » ·

« نعم · فقد كانت لى عدة اتصالات بمخابراتنا » × ·

وهنا شعر العقيد بأنه لم يكن حريصا فى حديثه وأنه جاوز الحـد ولكنه أحس بهذا بعـد فوات الاوان ، ولما أدرك حقيقـة الامر نظر الى شابيرو وواصل حديثه :

« والآن · وقد انتهت الحرب · نستطيع أن نتناول هذه الامور على أنها قصص تاريخية » ·

× نموذج من الخطأ فى الاجابة أثناء الاستجواب فما كانت صلته بالمخابرات معروفة لأحد ·

فأسرع شابيرو بالرد عليه وقال : « طبعا · هذا شيء بديهى · ولكن كيف كانت صلتك بادارة المخابرات ؟ » ·

ولاذ الكولونيل بالصمت حيث بدا عليه أنه أخذ يرتاب فى الامر ·

ثم سأله شابيرو دون أن ينتظرمنه ردا على سؤاله السابق : « ألا تظن أنك ـ بمعلوماتك هذه ـ تقدم لى خدمة جليلة ؟ فالحرب قد انتهت الآن · ومثل هذه المعلومات تعد على درجة من الاهمية من الناحية التاريخية فقط » ·

فقال الكولونيل : « الموضوع هو أنى كنت ـ لفترة معينة ـ ضابط الاتصال بين مخابراتنا وبين مخابرات رومانيا · فقد كنت أتقن اللغة الرومانية » ·

وقال شابيرو وهو يقدم له سيجارة أخرى : « فى رأيى أن مخابرات رومانيا لم تكن تستحق تسميتها منظمة مخابرات على الاطلاق »

فاحتج الكولونيل على ذلك وقال : « انى لا أتفق معك » ووضح أثناء حديث الرجلين أن العقيد الالمانى كان رجلا له مكانته · وبدأ يدلى بمعلومات وافية عن مخابرات رومانيا · وفى أغلب الاحيان كان يذكر أسماء كبار الضباط وكذلك تفصيلات عن عملياتهم · وبالتدريج أخذ يبوح بأسماء بعض أصدقاء له ممن يتقلدون مناصب عالية · وفعلا تضمن حديثه جميع الدوائر العليا فى المخابرات الرومانية ، كما اتضحت حقيقة هامة أخرى · وهى أنه فى الاسابيع الاخيرة من الحرب كان العقيد هو المدير المساعد لادارة الافراد فى رئاسة المخابرات ببرلين ·

وبدا على شابيرو أنه يشعر بنشوة الانتصار · فكثيرا ما كان يحلم بالتوفيق للعثور على رجل فى مثل هذه المكانة · وقد ساعده الحظ دون شك · فان هذا العقيد كان هو الرجل المطلوب وربما كان أهم من ذلك · ثم أخذ يواصل حديثه معنا حول تلك « المعلومات التاريخية » التى تتعلق بالمخابرات الالمانية · وأخيرا أخذ يتحدث عن كناريس ثم عن كالفتيروتر · وعن الابتكارات الحديثة منذ سنة ١٩٤٢ · ثم قال أن هذه الابتكارات كانت السبب فى عرقلة المخابرات الالمانية وتعثرها فى مباشرة مهماتها ·

وكان العقيد يمتاز بذهن حاضر وذاكرة حادة · وكان يذكر أسماء الكثيرين من رؤساء المخابرات وأعضاء أجهزة المخابرات الالمانية فى الخارج · وطبقا لقصته اتضح أن أهم عمل قامت به المخابرات الالمانية فى

الاتحاد السوفييتي كان يتم عن طريق تركيا وفنلندة · وأخيرا عن طريق السويد ، وبعد مضى ثلاث ساعات قضيناها فى الحديث مع هذا الرجل دخل علينا كل من شرنوزوف وكوزباكن ·

وسأل شرنوزوف : « من هذا الصيد الذى وقع فى أيديكم ؟ » ·

ورد عليه كابتن شابيرو فى هدوء : « أنه شخصية هامة للغاية · وهو لا يقل عن المدير المساعد لادارة الافراد فى المخابرات فى برلين · وله صلة شخصية بهتلر · وبعشرات من كبار الموظفين الالمان » ·

فتساءل شرنوزوف قائلا : « هل هذا حقيقى ؟ ولماذا ــ بحق الجحيم ــ تضيعون وقتكم معه فى هذا المكان ؟ لتأخذه معنا الى مقر القيادة · وهناك يقص علينا جميع ما لديه من المعلومات » ·

ثم قال شابيرو وهو يوجه كلامه للكولونيل : « هل لديك أمتعة خاصة فى المعسكر ؟ » وهنا تغيرت كثيرا نبرات صوته · فلم يعد يتحدث بتلك اللهجة الودية وهو يتابع قصته « المعلومات التاريخية » · بل كان ذلك الصوت الحاد الذى تميز به رجال سميرش ·

وقد أدهشني كثيرا أمر هذا العقيد الذى وقع في حبائلهم بمثل هذا الغباء · وفي غفلة منه · كما أن هذا من الجائز لو كان الرجل مجرد عضو في منظمة المخابرات · ولكن مما لا يكاد يدخل نطاق العقل أن مثل هذه الشخصية البارزة فى المخابرات الالمانية يمكن خداعه بمثل هذه السهولة ·

وأدرك الرجل من سؤال شابيرو الاخير أنه ارتكب خطأ فاحشا · وكان وجهه يدل على النية الحسنة والاخلاص فى القول · وسأل قائلا :

« وماذا سوف تفعلون بى ؟ » فأجابه شابيرو فى برود :

« هذا أمر لا يعنيك بأية حال » ·

ثم قال شرنوزوف بتفتيش ملابسه واذا به يقول : « أنظروا · لقد عثرت على زجاجة بها سيانيد البوتاسيوم وكان يخفيها فى أحد جيوبه » · وبعد فحصها بعناية أعطاها لى · فقلت له :

« أن هذه الكمية تكفي لقتل ستة رجال » ·

« ولكن من يدرى ؟ فالرجل يبدو قويا ويمتاز بصحة جيدة » ٠

وسـألـه شرنوزوف بحـدة قائلا : « لاى غرض تحمل هـذا السم معك ؟ » ٠

فقال : « فى حالة ٠٠٠٠ وعلى أية حال أنت نفسك تعرف السبب » ٠

وكانت كلمات الكولونيل توحى بأنه فقد كل آماله ٠ فقـد كانت زجاجة السم التى وضعهـا شـابيرو فى جيب قميصه هى آخر أمل له للتخلص من التعذيب الذى لا مناص منه ٠ ولم يكن لديه أدنى شك فى هذا المصير ٠

هذا ٠ وكانت جميع فروع المخابرات تسير على هذا النمط ٠

وكان الغرض الوحيد هو الحصـول من العـدو على أكبر قدر من المعلومات ٠ ولم يكن هناك اختلاف الا فى وسائل الاستجواب ، وكان السوفييت يلجأون الى سوء معاملة الاسرى الى أقصى حد ٠ ولكى يحققوا أغراضهم كانوا يتجاهلون كل ما يتعلق بالانسـانية ٠ وكانت هذه هى نفس الاجراءات التى يتبعها الالمان والمجريون ، ولكن ٠ مع ذلك ـ لم تكن وسائلهم بمثل تلك القسوة البدائية ٠

كذلك كان هناك فرق كبير بين أنواع العقوبات ٠ ففى فترة الحرب كان السوفييت يحكمون على كل متهم بالاعـدام ٠ ثم خفض هذا الحكم الآن فى كثير من الحالات فأصبح عشرين سنة أشغال شاقة ، ولكن ـ فى رأيى ـ أن عشرين سنة فى أحد معسكرات الاعتقال لدى السوفييت لاشد هولا من اطلاق النار والموت مباشرة ٠

وكان المجريون ينفذون حكم الاعدام فى النـادر ٠ بعكس النازيين الذين كانوا دائما يصدرون هذه الاحكام ٠

ثم بالرغم من كل هذه المعلومات التى أدلى بها العقيد الالمانى فقـد وقع فى شباك منظمة سميرش دون أن يدرى ٠ وما ذكره كان يعادل البقاء على حياة عشرات بل مئات من الناس، وكان هو أحد أولئك الكثيرين الذين يلقون حتفهم فى النهاية بسبب الشك أو هفوة بسيطة يرتكبونهـا ، فشكرت الله على أنى أدرك حقيقة رجال سميرش ومقاصدهم وأصبحت على

حذر من أن أرتكب مثل هذا الخطأ ، اذ أن الاعتراف أو الندم أمام هؤلاء القوم لن يجدى نفعا • والحكم هو الحكم بالاعدام على أية حال سواء أثناء الاستجواب أو تنفيذا لقرار القضاة السوفييت الثلاثة •

وقام شابيرو بعرض قضيته على كولونيل شابالين لان رئيسنا المباشر الرائد جريشين كان فى مهمة بعيدا عن مقر الرئاسة ، فقد كان غياب كبار ضباطنا على فترات متقاربة دائما اذ أن وحدتنا كانت مختصة بالعمل مع الالوف من مجموعات اضافية من الاسرى الالمان ، وفى الواقع أصبحت المنظمة لا تستطيع النهوض بأعبائها على الوجه الاكمل •

ولما كان الامر يقتضى الاسراع فى العمل • أصدرت موسكو أمرا بتحويل أسرى الحرب الى منظمة سميرش ورضى جنرال كوفالشوك بالامر الواقع ، وعلى ذلك بادر كولونيل شابالين بارسال التقرير عن الكولونيل الالمانى الى جنرال كوفالشوك فأرسل الجنرال برقية الى موسكو يطلب تعليمات من الجنرال ابالوموف • وفى صباح اليوم التالى وردت الاوامر بمواصلة استجواب الكولونيل الالمانى فى الحال ، واقتضى الامر أن نحصل منه على قدر ما نستطيع من المعلومات ثم نرسله بالطائرة الى موسكو ، وبدأنا فى العمل بأقصى سرعة • وكان على كاهلى عبء ثقيل اذ لابد أن أعمل مترجما مع كل باحث يستجوب الكولونيل • واستمر هذا العمل المضنى مدة يومين متتاليين •

وفى ١٥ من يونيه بلغتنا شائعات تقول أن الجبهة الأوكرانية الرابعة بأكملها سوف تنقل الى الشرق الاقصى لقتال اليابانيين ، وجال بخاطرى أن هذا نوع من سخرية القدر • وأن هذا هو كل ما ابتغيه • ولكن • لا • فى استطاعة زملائى أن يتصرفوا كما يحلو لهم • ولكننى لن أذهب لمحاربة اليابانيين •

وبعد أربعة أيام نقلت مجموعتنا الى أوسفنتزيم أوشوبيتز حيث كان موقع معسكر الاعتقال المشهور ، وكان بقرية تلك المدينة الصغيرة التى اشتهرت فى جميع أنحاء العالم بسفك الدماء • فقد كانت هناك مصانع الموت التى أقيمت بأيدى هتلر وأعوانه •

وكانت اقامتى مع جان ليباخ فى مسكن من بين مجموعة سكنية صغيرة بين المدينة وبين معسكر المشيد من الحجر حيث كانت الافران وعلمت من جان أن النازيين فى أوشويتز قاموا بأبادة ما يزيد عن خمسة ملايين من

البشر من جميع الجنسيات ، وسمعت قصصا وقف لها شعر رأسى . ولم أستطع أن أتصور هذه الضحايا من الملايين الخمسة . فقد كان هذا العدد يزيد عن سكان أمة صغيرة .

وكانت لا تزال هناك فى هذا المبنى الحجرى غرفة الغازات السامة التى أقيمت طبقا لاوامر هملر الشخصية ، وكان ذلك بقصد تجربتها . وما لبثت هذه التجارب أن أدت الغرض المطلوب ، وعلى ذلك تم بناء أربعة غرف أخرى فى معسكر أنشىء من الخشب على مسافة قريبة .

ورأيت صورة لجان كان قد رسمها سجين لم تعرف شخصيته . وبالرغم من جهلى بهذا الفن فقد تركت الصورة فى نفسى أثرا يبعث على الرعب ، وكان الرسم بالاقلام الرصاص المعتادة . ويشير الى مجموعة من الاسرى الموسيقيين ــ أقرب الى الهياكل البشرية منهم الى الاحياء ، وهم يعزفون مقطوعات موسيقية بقصد تسلية قوات المخابرات ، كما كانت الصورة توضح الروح الحقيقية التى كانت تسود معسكرات النازى فى ذلك العهد وكانت جلية واضحة أكثر مما شاهدته بنفسى هناك . ثم حاولت أن أشترى منه الصورة ولكنه كان حريصا بحيث طلب ثمنا لا يستطيع دفعه سوى أمريكى من أصحاب الملايين .

وأما اليوم فقد أصبح « معسكر الطوب » مقر اقامة الالمان من أسرى الحرب . كما كان « المعسكر الخشبى » مأوى المهاجرين الروس الذين كان عددهم حوالى العشرين ألفا من الافراد . وكانت هناك حراسة مشددة من الجنود ليلا ونهارا ولا يغفلون لحظة عن أداء واجباتهم ، كذلك كان هناك رجال سميرش وعلى رأسهم حوالى خمسين من الضباط ويشتركون مع الحراس فى نفس المهمة . وكان اتجاه رجال سميرش الذى يمثل حقيقة اتجاه حكومة السوفييت نحو هؤلاء الاسرى ، يزداد سوءا يوما بعد يوم ، وكان مئات الالوف من العمال الروس ممن كانوا يعملون فى ألمانيا ، يرفضون العودة الى أوطانهم . فأخذ عملاء سميرش يعتقلونهم أينما يعثرون عليهم ، ويلقون بهم وراء حواجز من الاسلاك الشائكة ، وكان لكل قيادة سوفييتية ولكل وحدة من وحدات الحكومة العسكرية فرقة خاصة من قوات سميرش . فكانوا ــ مثلا ــ يأمرون السلطات البولندية بجمع كل عمال السخرة من الروس وتسليمهم فى الحال الى السلطات السوفييتية ، وكان مصير هؤلاء المواطنين الروس التعساء أن يقضوا سنوات فى معسكرات الاعتقال .

ثم عهد الى بالعمل مع مجموعة العمليات تحت اشراف شـابيرو • وكانت تتكون من سـتة ضباط وثمـانية جنـود ومثلهم من المخبرين ، وكانت منطقة العمل فى معسكر الطوب ، وكان معظم أسرى الحرب معتقلين هناك بقصد الاستجواب • وأما الالمان الذين وقعوا فى أيدى الروس ، والذين يصل عددهم الى عشرين ألفا آخرين ـ فقد كانوا فى معزل عن الروس من عمال السخرة ، وكان المخبرون الثمانية الذين كانوا يعملون معنا جميعـا من الالمان ، واقتضت مهمتهم أن يرتدوا الملابس الرسمية للجنود الروس ، وأن يعهد بكل منهم الى أحد الجنود الروس • ثم أخذ الرجال الستة عشر يجوسون خلال المعسكر ليلا ونهارا • فكانت النتيجة هى العثور على صيد جديد فى كل يوم •

واشتركت معنا فى المعسكر مجموعة أخرى للعمليات وعلى رأسهـا الرائد كرافيتز وكان معه ستة ضباط وعشرة من المخبرين ، ومن حديثى مع الرائد تبين لى أنه من مواطنى أودسـا ، وأنه قد عاد لتوه من مهمة لانجاز بعض الاعمال فى أوزجرود حيث كان يعمل تحت مباشرة العقيد شريد نيشنكو • ثم سمعنا منه آخر الانبـاء حول أن المنطقـة تحتـاج اجراءات مشددة للتطهير وأنه يجب توقع بدء هذا فى القريب العاجل •

وكم كنت أنزعج لمجرد التفكير فى أن التطهير سوف يلحق بمواطنى فى الكربات الروسية • اذ معناه أن السوفييت قد قرروا القضاء على قومى باعتبارهم وحدة جنسية قائمة بذاتها ، وكان حديث الرائد كرافيتز عن الكربات الروسية كما لو كانت منطقة لا قيمة لها مطلقا ، وكما لو كانت لا تستحق أن يتحدث عنها اطلاقا •

وكان الرائد كرافيتز مثله كمثل معظم رجال سـميرش ، فلم يكن شجاعا قويا فى حد ذاته بل كان يميل الى الادعاء الكاذب ، وكان هـذا هو الطابع الغريب لرجال سميرش • فحتى فى نظرهم كانت بولندة لا تعد دولة لها قيمتها ، وأنها قد يكون لها صوت مسموع من حين لآخر ولكن هذا أمر لا يستدعى الاهتمام بنوع خاص ، وأن تشكوسلوفاكيا تكاد لا تستحق التقـدير • وأن بلاد المجر ـ وهى نفس المجر التى كافحناها نحن ـ الروس الكرباتيين لآلاف السنين ـ لا تزيد فى أهميتها لدى رجال سميرش ـ عن تشكوسلوفاكيا • كذلك كان رجال سميرش يتحدثون عن الحكومات الملكية كما لو كانت تلك الحكومات من الافراد • وكانت وجهة نظرهم : « اذا أردت فسوف أصفعه على وجهه « أو » اذا أردت فسوف أعفو عنه » •

وفى آخر يونيه انتقلت قيادتنا الى هندنبرج· وكان الملازم كوسياكين قد وصل لتوه من هناك وقال أنه علم بأنه لن يمضى وقت طويل قبل أن تتحرك الجبهة بأكملها ، وكذلك أسمع بأن الاوامر قد صدرت بتحويل المنطقة كلهـا التى نحتلهـا الى جبهة المارشـال كونيف ، وأما مجموعة عملياتنا فقد تلقت الاوامر بالعمل مم المهاجرين الروس ·

وكانت الفكرة السائدة هى أن الاسرى من الالمان لابد لهم من العمل مع الاتحاد السوفييتى على أية حال ، فلم يكن من المعقول ضياع الوقت معهم ، وكان المفروض أن العمل فى مراكز المهاجرين يعد على جانب كبير من الاهمية ، وفى الحق كان العمل فى المعسكر الخشبى بين المهـاجرين الروس يختلف قليلا عما أعتدنا عليه منذ شهور ، ثم اقتضى الامر أن نقضى يوما أو يومين قبل أن نستقر فى مساكننا الجديدة فى المعسـكر الخشبى الذى تحيط به الاسلاك الشائكة ·

وفى ذات مسـاء خرجت لاستنشق بعض الهواء الطلق · فلاحظت لاول مرة أن ثكناتنا كانت عليها حراسة مشـددة ويقوم بهـا حراس مسلحون ، وكانت الاضواء المنبعثة من المنازل تنعكس على أسلحتهم ، وكانت الاسلاك الشائكة تمتد على يسارى على مدى النظر · وتضاء بأنوار كهربائية كل بضع ياردات · فكان المنظر أشـبه شىء بخيوط عنكبوت هائل تمتد انتظارا لفريستها ·

وكان الحراس يمشون بخطوات ثابتة على الجانب الآخر من الاسلاك الشائكة وهم يضعون أسلحتهم متوازية فوق أكتافهم اليمنى ، ولم يكن من ورائهم غير ظلام دامس ، وبدا لى أن الليل ينظر الى المعسـكر نظرة عجب وأسى · كما كان منظرا غريبا حقا ، ألم تكن هناك فرصة من قبل تكفى لالتقاط صورة لهذا المعسكر ـ معسكر الموت ؟ ·

ولاحظت عن يمينى ثكنات خشبية تفصل بين كل منها مسـافات منتظمة · وحتى المبانى البعيدة كانت لها ظلال فى الضوء الخافت لهذه اللمبات الكهربائية الصغيرة ، وكانت بعض الثكنـات تسبح فى ظلام دامس مما يدل على أن الروس كانوا مستغرقين فى نومهم ـ أو ربما كانوا مسـتيقظين وأعصـابهم متوترة يفكرون فى مصيرهم ـ أو يفكرون فى مستقبلهم الغامض وهل يعودون الى زملائهم المواطنين ·

وكان بجانب المعسكر معتقل خاص تحيط به الاسلاك الشائكة . وكان هذا المعتقل يضم الرجال الذين خدموا فلاسوف ، ويقوم بحراستهم عدد اضافى من الحراس ، ومن الغريب أن منظمة سميرش لم تكن لها علاقة بهم . ولم يكن هناك ما يدعو لاستجوابهم فقد تقرر مصيرهم بمعرفة الكرملين ، وكان القرار ينص على موتهم فى معسكرات الاعتقال فى سيبريا .

وكان يسود الليل سكون أقرب ما يكون لصمت القبور ، ولا يعكره سوى الحراس بخطواتهم المتزنة ، والذين كان وجودهم يعيد الى الذاكرة انتقام حكومة السوفييت وعنايتها الابوية بالمواطنين .

وأما ثكنات سميرش فكانت مضيئة أكثر من غيرها . فقد كنت أعلم أن هناك أعمالا كثيرة لابد من انجازها . وكانت النوافذ مغطاة بالستائر ولكن أضواءها كانت تشع خيوطا قليلة فى جنح الظلام .

فقلت فى نفسى : « ليس من الحكمة التطلع الى ما وراء الاسلاك الشائكة . وأسرعت الى غرفتى حيث استلقيت على الفراش .

وكانت على مكتبى مستندات متنوعة وخطابات تتعلق بالمهاجرين وكان لابد من تقسيمها ومراجعتها فى الحال ، فقررت أن أبدأ فى العمل ولا أحاول النوم . وشعرت بالخجل وأنا أطلع على محتويات هذه الرسائل . فهؤلاء قوم لم يسبق أن رأيتهم فى حياتى يظهرون فجأة أمام عينى . وها هو خطاب من أم تكتب الى ابنها فى برلين وتقول : « عزيزى فانيسكا ... نشكر الله على أننا لا نزال أحياء » . وفى نهاية الخطاب : « أدعو الله أن يحفظك يا ولدى . لك قبلاتى مرات عديدة » .

وكان قد جاءنى من والدتى خطاب بهذا المعنى ، فوضعت الخطاب فى مظروفه وألقيته على جانب مع بقية المستندات . اذ لم يكن فى هذه الرسائل ما يدعو للاشتباه .

فى تلك اللحظة سمعت طرقة على الباب وصوتا يقول :

« أيها الرفيق الملازم . توجه الى الرائد هلاديونوف » .

وكانت غرفة الرائد تقع فى نهاية الثكنات بالقرب من مسكنى ، وجال بخاطرى أنه قد يكون فى حاجة الى ترجمة رسالة عاجلة .

ولما وصلت استقبلنى أحد الحراس مشيرا الى باب غرفة الرائد .

وعند دخولى رأيت جلازيونوف واقفا أمام النافذة ، فلما تحول الى ناحيتى ليستقبلنى شعرت بشيء من القلق · اذ كان ينظر الى وجهى مذهولا ، وكان وجهه يدل على أنه كان يفكر فى عالم آخر · وكان ممتقع اللون بارز الفكين ويضم شفتيه · وشعره على غير نظام · ومن نظراته الحائرة وطلعته المخيفة كان يبدو كمن فقد عقله ، وكان يقف ويداه النحيفتان الى جانبه · ويحرك أصابعه فى عصبية ظاهرة · وبدا كأنه يقصد مهاجمتى أو مهاجمة شخص آخر · وقال وهو لا يزال فى هذه الحالة : « ترجم هذه المستندات » ·

ونظرت الى مكتبه فوجدته قد تناثرت فوقه الملفات والمستندات · وكانت أرض الغرفة مملوءة بأعقاب السجائر ورمادها · والى جانب المكتب رأيت كيس نقود قديم مما تستعمله النساء ، وبجانبه عدة صور فتوغرافية وخطابات وأوراق متنوعة ·

وكان جو الغرفة مشحونا بدخان السجائر ، وكنت قد ذهلت لهيئة الرائد لدرجة أنى لم الاحظ ـ لاول وهلة ـ أن هناك فتاة فى شدة الضعف والهزال وتجلس على حافة مقعد فى أحد جوانب الغرفة · وكانت تبدو فى حوالى الثانية والعشرين من عمرها · وينسدل شعرها الاسود على جانب وجهها · ويبدو من عينيها ذعر شديد وكانت يداها ترتجفان · ولا يمكن الاستدلال على حقيقة أمرها بسبب ما هى فيه من الهلع والاضطراب · كما كانت شاحبة اللون كما لو كان وجهها لا يحتوى على قطرة من الدم ، وكانت شفتاها جافتين بصورة ملحوظة ، وكانت تحاول أن تفتح فمها لكى تلتقط أنفاسها بصعوبة واضحة ، وكان ثدياها يتدليان تحت سترتها ، ثم أخذت المستندات وشرعت فى مغادرة الغرفة لعمل الترجمة اللازمة ·

ولكن الرائد صاح فى وجهى قائلا : « الى أين أنت ذاهب ؟ أكمل مهمتك هنا · انى أريد هذه الاوراق فى الحال ! » ·

وتبين لى من المستندات أن الفتاة كانت تدعى زويا · فدار بخلدى أن هذا الاسم ينطبق عليها تمام الانطباق · وكنت أتصور دائما أن اسم زويا يطلق على كل فتاة نحيفة ضعيفة عليلة ·

ونظرت الفتاة الى وجهى فى شبه ذهول ثم أغمضت عينيها ···

* * *

١٧
كلب يموت مقابل كلب آخر

أخذت أفكر فى قرارة نفسى · لماذا أنت هنا أيتها الفتاة المسكينة زويا ؟ وكم كان بودى أن أسألك · لابد أنك جئت هنا نتيجة خطأ ما · وأى نوع · الجواسيس يمكن أن تكونى أنت ؟ أو أى نوع من الخونة ؟ انك لا تستطيعين الوقوف على قدميك أمام نسمات من الريح · ولابد أنك تعانين مرض السل اذ تلتقطين أنفاسك بكل صعوبة ·

وبدا الامر كأن الفتاة استطاعت أن تقرأ أفكارى اذ انفرجت شفتاها الجافتان عن ابتسامة باهتة ·

ثم أخذ الرائد جلازيونوف يقترب من الفتاة فى بطء بهيئته الجافة الموحشة · وبدت نظراته اليها كمن يريد أن يدرك حقيقة ما يدور بذهنها، أو كمن يحاول أن يفقدها التفكير كما يفعل المنوم المغناطيسى · كما كان مثله كمثل أدعياء الطب من سكان الغابات فى العصور المظلمة ·

وبدأت الفتاة ترتعد فى يأس شديد · وخيل لى أنها قد تموت فى أية لحظة خوفا وهلعا ، وكانت على وشك أن تصاب بحالة هستيريا من شدة الفزع واتسعت حدقات عينيها كلما وجه اليها الميجر نظراته المخيفة ·

وأخذ يسير حول مقعدها وينظر اليها من كل ناحية وهو يفكر تفكيرا عميقا ، واذا بى أشعر بذعر شديد · فقد كانت كل هذه التصرفات لا لزوم لها بل كانت قاسية جنونية ولا يستسيغها عقل الانسان البدائى ·

وهنا صاح الرائد فى وجه الفتاة يقول : « وما النتيجة اذن ؟ » فاهتز جسم الفتاة وأغلقت عينيها كمن تتوقع لطمة على وجهها ·

ثم نهض الرائد وقال بصوت مزعج : « انى لا أستطيع أن أفهم لماذا تصرين على الكذب بمثل هذه الوقاحة • ألا تعرفين أنى أعلم كل شىء ؟ » •

وعاد الرائد الى الوراء ثلاث خطوات وهو يحاول أن يرغم الفتاة على أن تعترف • وجال بخاطرى أن الفتاة قد تموت جزعا ، وكنت أخشى لو بدأ الرائد يعتدى عليها بالضرب فانها لن تستطيع أن تتحمله وسوف تموت من هول الموقف أمام عينى ، ولم أرغب فى مشاهدة هذه المأساة مهما كانت الظروف ، ثم مهما كان شأنها فهى ترغب فى الحياة مثلى ومثل كل انسان ، والخالق وحده هو واهب الحياة • ولو كان مكانها رجل قوى لما خالجنى الشعور بمثل هذا العذاب ولكنها لم تكن سوى شبح لفتاة ضعيفة لا تقدر على شىء •

وكان منظرا يوحى بالحزن والاسى • اذ كان أمامى رجل قوى له أيدى القرود المتوحشة • وله أعين يتطاير منها الشرر وهيئة تدل على الجنون • ويقف أمام فتاة هزيلة تعيسة الحظ ، ثم اقترب من الفتاة مرة أخرى وهو يصيح قائلا : « اصغى الى يا عزيزتى • أنت تحاولين أن تقولى أن الجندى الالمانى الذى كان فى زيارتك كان يحمل اليك هدية من والديك • ولكنى أعلم أن ذلك ليس سوى محض اختلاق •• فلم يحضر الجندى الا بقصد الحصول على معلومات منك حول سلوك واتجاهات آخرين ممن يعملون معك فى المعسكر ، وسوف أثبت لك ذلك » •

وهنا تبين لى أن الفتاة متهمة بالجاسوسية •

حقا أن هذا أمر لا يدخل نطاق العقل ! فهذه فتاة لا تستطيع أن تعمل فى الجاسوسية فلا يتوافر لها ما يمهد لها هذا السبيل ، وأى معلومات استطاعت أن تنقلها الى الجندى الالمانى ؟ هل كانت معلومات عن الحياة القاسية التى تعيشها فتاة روسية بين أيدى الالمان ؟ ان الالمان يعرفون ذلك جيدا دون مساعدة زويا ،وربما تكون احدى صديقاتها ــ بتحريض من رجال سميرش ــ أبلغت أن زويا كانت جاسوسة •وذلك لكى تمهد لاستخدامها هى كعميلة تؤدى واجبها ، ثم أن زيارة الجندى الالمانى يمكن تفسيرها بطرق مختلفة ومتعددة اذ أردنا ذلك ، ولكن ما هى الاسباب التى تدعو لكل هذا القلق والاضطراب ؟ ولماذا تزرع الكراهية فى قلوب البشر ؟

تلك الكراهية وعدم الثقة . والاشتباه في كل شيء . وماذا يدفع الناس لقتل بعضهم بعضا ؟ وفي الحق لم تكن هذه الوشاية سوى دليل على مدى نفوذ رجال سميرش . وفي الغد سوف يحدث نفس الشيء لمن غدر بالفتاة .

ولم يكن المستند الذى قمت بترجمته يحتوى شيئا يستحق الذكر . فقد كان خطابا من زويا مكتوبا بلغة ألمانية ركيكة الى من يدعى مستر ميللر وتسأله أن يتكرم بتوصيل سلة من الطعام الى والديها فى شيرينجوف بروسيا .

ثم طلب منى الرائد أن أراجع بقية الاوراق والمستندات التى تتعلق بالفتاة . وهنا أصبح جو الغرفة معبأ بسحب الدخان ويبعث على الضيق. ولاحظت أن الفتاة تحرك شفتيها الجافتين وهى تنظر الى قدر من الماء على منضدة فى نهاية الغرفة . وكان من الواضح أنها تشعر بالظمأ ولكنها لا تستطيع أن تطلب من الميجر شربة ماء . ثم توجه الميجر نحو الباب ونادى الحارس وقال له : « لهذه الاسيرة أخ . أحضره هنا » .

ولم تفهم الفتاة ما قاله الميجر وبدا عليها الارتباك . وفى بضع دقائق بدت متوترة الاعصاب بشكل ملحوظ . وهنا تجاهلت كل شيء وبدأت أرقبها عن كثب . فرأيت حدقات عينيها أخذت تتسع شيئا فشيئا . كما لاحظت أن يديها ترتجفان باستمرار . وأنها تكاد لا تستطيع أن تلتقط أنفاسها .

وفى عشر دقائق جاء الحارس بشاب فى حوالى السادسة والعشرين من عمره وكان يشبه الفتاة الى حد كبير ، وعلى وجهه أمارات الخوف الشديد ، ثم أحنى رأسه وأخذ يسترق النظر الى أخته ، ولم يكن يدرى ما سوف يحدث له ، وبدا عليه أنه يكاد يموت من شدة الجزع والرهبة .

وكل من وقعوا فى أيدى رجال سميرش كانوا يتحولون عادة الى أشباح آدمية من هول الموقف ، ولغاية الآن لم الاحظ سوى اثنين أو ثلاثة احتفظوا بشجاعتهم الى النهاية ، أما الباقون فقد كانوا يرتعدون خوفا وهلعا .

وصرخ الرائد فى وجهه قائلا : « كم مرة قام الجندى الالمانى بزيارة أختك ؟ » فهمس الشاب يقول : « لست أدرى » .

« أنت كاذب فيما تقول ! » ٠

« لا ٠ لست أكذب » ٠

فنهض الرائد واقترب من الشاب ولطمه على رأسه لطمة قوية بقبضة يده ٠ وترنح الاسير وقال : « لست أدرى ٠ فقد كنت أقيم فى معسكر آخر » ٠

وهنا عاد الميجر الى ضربة على مؤخرة عنقه دون رحمة ولا شفقة ٠

وفى كل مرة كانت الفتاة تسمع صرخات أخيها كانت تغمض عينيها وتخفض رأسها شيئا فشيئا ٠وتغيرتملامحها لدرجة أننى لم أعد أتعرف عليها ٠ وازداد اصفرار وجهها عما كان عليه من قبل ٠

ثم أخذ الرائد يذرع أرض الغرفة جيئة وذهابا وهو يلعن ويلوح بذراعيه ٠ ومع ذلك ظل ثابتا لا يتزعزع ولا يفكر فيما يصنع ٠ وأخيرا نادى الحارس وأمره بأخذ الشاب معه ٠

ولاحظت أن الفتاة تنهدت فى شىء من الارتياح عندما سمعت باخراج أخيها من الغرفة ٠ ثم جاء الحارس وسحبه الى الخارج ٠

بعد ذلك أخــذ الرائد يتمشى كما كان يفعل ثم توقف فجــأة وقال للفتاة : « أصغى الى ٠ انى سوف أقتلك اذا لم تخبرينى بالحقيقة » ٠

وصدمت الفتاة بكلمات الرجل ــ واحدة بعد الاخرى ــ كما لو كانت طلقات نارية وكانت تعرف جيدا ــ كما كنت على يقين ــ أن تهــديدات الرائد لم تكن ســدى بل كانت طبقا لتصميم رجل به مس من الجنون ، وشعرت بقشعريرة فى بدنى وأنا أستمع لصوته المزعج ٠ وسقط القلم من بين أصابعى ونهضت واقفا ولكن بعد فوات الاوان ٠ فقد أسرع الميجر نحو الفتاة وصفعها على وجهها صفعة شديدة ٠ وكان وقعها على الفتاة كما لو كانت سكينا حادة طعنت بها ٠

ووقعت الفتـاة فى أرض الغرفة لا حراك بها · وانتثر شـعرها على وجهها فغطاه · فتجمـد الدم فى عروقى حيث كنت واقفـا · وفى تلك اللحظة حيث كنت لا أستطيع الحركة رأيت بقية سيجارة ملقاة على الارض بالقرب من رأس الفتاة ·

وكان الرائد ينظر الى جسد الفتاة الملقى على الارض دون اكتراث · ودلت عيناه على أنه لا يدرك حقيقة ما فعله ·

ثم أسرعت نحو الفتاة وناديت الحارس بصوت عال فجاء مسرعا ·

وبدا لى أنى أتحـدث بصـوت غريب مما أعاد الرائد الى صوابه · فانتحى جانبا ثم توجه نحو النافذة وأخرج سيجارة وأشعلها وأخذ يدخن فى هدوء وكأن شيئا لم يحدث ، ثم سمعت خطوات مسرعة فى الصالة · كما سمعت بعض كلمات لم أتبين معناها ·

وانحنيت فوق الفتاة لارى ان كانت لا تزال على قيد الحياة · وقد كانت · ولكن الحياة كانت تفارقها لحظة بعد أخرى ، وازحت الشعر عن وجهها ونظرت فى عينيها · واذا بها تختلج وتلفظ أنفاسها الاخيرة ، وبدا لى أن عينيها قد تجمدت وخضعت روحها لرهبة الموت ·

ثم ساعدت الحارس فى حمل جسـد الفتـاة الى الصالة حيث هرع الجنود لمساعدتنا · وظهر شرنوزوف على باب غرفته وهو يقول : « ماذا حدث يا نيكولا ؟ » ·

ولم أرد على سؤاله · فقد فشلت كل الجهود لاعادة الفتاة الى الحياة وأصبحت فى عداد الاموات ·

وأخذنى شرنوزوف من ذراعى وقال : « ماذا جرى لك ؟ » ·

وظللت صامتا مذهولا · فأصطحبنى الى غرفته حيث قلت له : « دعنى وشأنى » · فقال : « ماذا بك يا نيكولا · ماذا جرى · ولماذا أنت ممتقع اللون ؟ » ·

بعــد ذلك نادى الحــارس وأمره باعــادة الرجل العجوز الذى كان يستجوبه الى سجنه · ثم قدم لى قدحا من الخمر ·

وكنت لا أزال فى شبه غيبوبة من أثر الصدمة · وكنت أسمع وقع الاقدام فى الصالة والضجيج والجلبة التى يحدثها الحراس ، ولكن هذا كله لم يكن يعنينى فى شىء · فقد ماتت زويا بعد أن قاست ألوان الذل والعذاب ولم تجد من يدافع عنها ·

وهنا أمرنى شرنوزوف بأن أتناول قدحا من الشراب · وأخذت منه القدح دون أن أشعر وأفرغته فى جوفى · ثم أعطانى كأسا آخر ·

وقد كنت أشعر برغبةجامحة لتناول الخمر وأواصل تعاطى المسكرات حتى الغد لكى أطرد من مخيلتى أشباح هذه المذابح · وأزيح من ذاكرتى صورة هذا الرائد الشرير المجنون الذى كان يبتسم وهو ينظر الى ضحيته ثم يشعل سيجارته ·

ذلك الرجل الذى لم يتورع فألقى بعقب سيجارته بالقرب من رأس الفتاة وهى ملقــاة على الارض لا حراك بها وكانت الســيجارة لا تزال مشتعلة ·

وقلت لرفيقى : « أفرغ لى كأسا آخر » ·

وبدأت أشعر بمفعول الخمر · ولكن مفعولها كان على النقيض · فقد التهبت مشاعرى مما شاهدته من الاهوال وكدت أفقد وعيى ، وأخــذ الشيطان يوسوس لى ويغرينى : القانون ؟ أين هو القانون ؟ ·

وشعرت برغبة فى رفع صوتى فقلت فى شبه هذيان : « أين هــو القانون يا فانيا ؟ » فنظر الى شرنوزوف مذهولا ولم يفهم ما قلته · وتبين لى أن سؤالى لا معنى له وانى حدت عن طريق الصواب · فسألنى ساخرا : « أى قانون ؟ » ·

« القانون · الا تفهم معنى القانون ؟ » ·

وهنا تطلع شرنوزوف نحو البــاب ثم قال : « صه · يحســن أن تستلقى على فراشك » · فقلت له :

« لا · لست أخرف · أين القانون ؟ أخبرنى أين هو ؟ » ·

وبدا شرنوزوف هادىء البال وقدم لى كأسا آخر · فقلت له :

« انى لا أرغب فى الخمر الآن » ·

فأخذ القدح وأفرغه فى جوفه ثم أتبعه بآخر · وقال :

« ليس هناك قانون يا نيكولا · ليس هناك قانون » · فقلت بينما كنت لا أزال مضطربا : « وكيف ذلك ؟ » ·

فقال شرنوزوف هامسا : « صه ! » ·

« ولماذا التزم السكوت ؟ هل رأيت الفتــاة زويا ؟ هل رأيت كيف كانت عاجزة لا حول لها ولا قوة ؟ » ·

فصاح قائلا وهو يلوح لى بقبضة يده : « صه· انى أدرك ما تقصده· ولا أختلف عنك فيما تشعر به كما أنى أعطف عليها مثلك تماما » ·

وكان الرجل لا يعنى ما يقول · فمن مدة وجيزة كاد يهم بقتلى لمجرد أنى من البورجوازيين ·

فقلت له : « أنت يا فانيا لست رجلا سىء الخلق · فلماذا تتناول مثل هذه الامور دون عناية أو اهتمام ؟ وقال :

« أرجوك يا نيكولا ألا تتحدث فى هذه الشئون » ·

« لا · لن ألتزم الصمت » ·

« أصغ الى اذن ·فانى أرى أنك تتجاهل اطلاقا أوامر الرائد جريشين حيث أمرنى أن أراقبك فى كل خطوة تخطوها وأفيده بكل شىء تفعله » ·

وكانت هذه الكلمات بمثابة صدمة لى فعدت الى صوابى ·

واستمر شرنوزوف ينظر الى وجهي وقال : « أخبرت الرائد كيف كنت تتصرف في بعض الاحيان فصدقني أن هذا كان معناه قرب نهايتك، ولكني أؤكد لك أني في قرارة نفسي لست رجلا سيء الخلق » .

ثم واصل قوله : « هل تظن أني لم أتأثر بموت الفتاة زويا مثلك تماما ؟ انك تكون مخطئا اذا ظننت ذلك . وربما كنت أشد أسفا عليها منك . ولكن يا صديقي ما فائدة الثرثرة وتكرار الحديث ، وليس في الاتحاد السوفييتي شيء واضح جلي كما يذيعون على موجات الاثير . كل شيء غامض الى أقصى حد » .

وسكت شرنوزوف عن الكلام . وكان لكلماته صدى أثار في نفسي الشعور بالشكوى والاوهام . فسألته :

« ماذا قلت للرائد جريشين بشأني ؟ » وكان جوابه :

« صدقني أنه لم يكن حديثا على جانب من الاهمية ، ثم أني أعرف عنك أشياء كثيرة . وقرأت ما كتبته من المقطوعات الشعرية ، ولكنها كانت لا مغزى لها . ويبدو لي أنك لن تصبح شاعرا على الاطلاق ، ثم قال لي باخلاص . هل تظن حقا أنك في استطاعتك أن تكون شاعرا ؟ » .

وكانت هذه لحظة من أهم اللحظات الحاسمة في مجرى حياتي . وكنت أدرك مدى أهمية ردي عليه . وكان السكوت أفضل رد على سؤاله .

ثم واصل شرنوزوف كلامه : « لابد للانسان من أن يكون على حذر دائما . وما يدريني أنك أو أي شخص آخر لا تراقب تصرفاتي وكل حركة أقوم بها ؟ هذا هو السبب في أن الانسان لا يجدر به أن يتهاون في شئونه أو كما يقول رجال سميرش « تصرفات على غير هدى » .

وكان الرجل على حق . اذ كان من واجبي أن أشعر بالخجل ، فلم أكن سوى فرد من أعداء الاتحاد السوفييتي ، ولولا مهمتي لما وجدت هنا، وبسبب هذه المهمة كان الحرص لازما أكثر مما كان في أي وقت مضى ،

ثم لو كان شرنوزوف رجل سوء · لوضعت حدا لحياتى بتصريحى وكلامى حول القانون أو فيما يتعلق بما أعرفه عن الشعر · وعلى أية حال أزيحت الحواجز التى كانت تفصل بينى وبينه ·

وقال شرنوزوف : « انى أشعر بالعطف عليك · ولكن كيف أقدم لك يد المساعدة ؟ دعنى أقدم لك كأسا آخر من الفودكا » ·

ولم تكن لى رغبة فى الخمر فلم أقبل ما قدمه لى ·

وكان صوت شرنوزوف وما ينطوى عليه من نبرات الود والمحبة سببا فى شعورى بنوع من الحرية وبفك القيود الدموية من حولى ، فمن بين رجال سميرش عثرت على رجل يفهم حقيقة معنى الانسانية ، وفضلا عن ذلك وجدت رجلا يميل لمساعدتى وخلاصى من قلق لا لزوم له · ومثل هـذا الصديق كان يعد أكبر قيمة من المال · بل أجل قدرا من أى شىء فى هذه الحيـاة الدنيـا ، ومن أجل مهمتى · كنت أعيش منفردا · كمتعبد فى صومعته · أهنأ بسعادتى وأشكو أحزانى الى ربى ، وعلى أية حال حفظت **وليس هنـاك مجال للشـعور بالعطف** » · ومن يدرى ماذا كان فى ذهن شرنوزوف عندما اجتاز الحواجز ووصل الى أعماقى ؟ ·

وقلت له : « سأذهب الى فراشى · أشكرك يا فانيا » ·

فقال بعد أن بدأ يرتب أغطية فراشه : « ولماذا لا تنام هنا ؟ » ·

ورفضت شاكرا له · وقال :

« لا تذكر كلمة واحـدة لاى شـخص حول ما قلته لك · هل أنت فاهم ؟ » ·

وقلت له : « نعم أنى أقدر ذلك » ·

وفى الصالات والممرات رأيت كل شىء هادئا وساد السكون فى كل مكان · فلم يكن هناك سوى الحراس يقفون أمام الابواب ومن ورائها كان الباحثون يباشرون أعمالهم ·

وجال بخاطرى الى أين ذهبوا بجثة الفتاة زويا ·

وفى صباح اليوم التـالى اســتيقظت مبكرا بالرغم من أنى لم أنم الا قليلا ·

وكان بعض القوم يسرعون فى الممرات حيث ترامى الى سمعى أنهم يتحدثون فى أمر هام · فأسرعت بارتداء ملابسى وخرجت لمعرفة مصدر هذه الجلبة ·

وسألت الملازم كورياكين : « ماذا جرى ؟ » ·

فقال : « حدث أن بعضهم قام باغتيال الرائد جلازيوموف فى الليلة الماضية · وأنا ذاهب لرؤية جثته · فهل تأتى معى ؟ » ·

وقلت : « لست أنا من يريد ذلك » وعدت الى غرفتى · بينما كنت أقول فى نفسى : « كلب يموت مقابل كلب آخر » ···

١٨

قرب النجـاة

وقفت أمام النافذة فلفت نظرى مرور قافلة من المهاجرين · وكان معهم جماعة من الحراس يحملون بنادقهم الرشاشة ويقودونهم الى حيث يعملون ، وكنت أعلم أن أسرى الحرب من الالمان لا يسيرون تحت حراسة قوية بهذه الصورة · ولكن هؤلاء كانوا فى طريقهم الى العمل بالقرب من أشويتز حيث كان هناك مصنع كبير من مصانع

وكان السوفييت يفكون أجزاء المصنع ويشحنون المعدات الى روسيا· وكان العمل يقتضى استخدام عدة آلاف من الايدى الرخيصة ·

ثم غادرت النافذة بعد أن أختفت أثار المهاجرين فوق تل صغير · بعد ذلك رجع كوزياكين وأخبرنا أن مجموعتنا للعمليات قد نقلت الى برميسيل فى بولندة ·

ومرت بعد ذلك ليال كنت خلالها أظن أنى قد فقـدت عقلى · وكان هذا الهذيان الذى استولى على مشاعرى نتيجة مشاهدتى زويا وهى تموت تلك الميته الوحشية · وطالما كنت أشعر بأنى سوف الاقى أزمة خطيرة ، وكنت أتساءل فى قرارة نفسى هل تبقى لى من قوة الارادة ما يكفى لمواجهة تجربة أخرى تشابه مأساة الفتاة ·

وكنت أعرف تماما بتواجد حدود لكل من الروح المعنوية والمقاومة الطبيعية · وأنه من الآن فصـاعدا لابد لى من توجيه نشـاطى وتفكيرى وجهودى كلها نحو غرض واحد ـ وهو الفرار من سميرش ، ولا شك أن هذه كانت مشكلة أشد تعقيدا من كل الصعاب التى واجهتها ·

وعقدت النية على أن أتحدث الى النقيب بوتابوف · فقد كان هـو الشخص الوحيد الذى كنت أشعر بأنى أستطيع أن أكون صريحـا فى حديثى معه على أية حال · وكنت أعرف أنه لن يساعدنى ولكنه ـ فى نفس الوقت ـ لن يفشى أمرى ·

فسألته : « هل من الممكن ــ من ناحية المبدأ ــ أن أغادر سميرش ؟ »
وقال النقيب : « لا· ليس ذلك ممكنا · ولكن اذا كانت هناك وسيلة ما · فانى لا أعرفها شخصيا · ولا تقلق على أية حال » ·

وقلت له : « انى لا أشعر بحالة من القلق · ولكننى أود لو أتيحت لى فرصة لمغادرة المخابرات المضادة » · فقال النقيب :

« حسنا · اليك نصيحة منى · لا تذكر هذا الامر لاحد من صغار القادة · فسوف يرشدوك الى شىء واحد هو : « أبق فى مكانك والتزم الهدوء » · وانصحك بعرض الامر على جنرال كوفالشوك نفسه » ·

وقلت : « أظن أنه من الافضل أن أقوم بذلك بنفسى · وعلى أية حال سوف أتحدث أولا مع كولونيل دوشنيك » ·

فقال الكابتن : « هذا أمر لا لزوم له مطلقا · فسوف يؤنبك ويقول لك لا تتدخل فى شئون غيرك » ·

وقاطعته : « ولكن هذا ليس من شئون غيرى ، هذا أمر يتعلق بى وحدى » ·

فرد الكابتن قائلا : « هذا حق · ولكن هذه هى الطريقة التى يتحدث بها الكولونيل » ·

وكان باتابوف نفسه دائم التفكير فى الخروج من سميرش · ويقول فى سره : « ولكن فرص النجاح أمامى يا نيقولا أقل منك بكثير » ·

وبادرته بقولى : « فيم تفكر ؟ أنى أعتقد أن الفرص أمامنا متعادلة · أو على الاصح · ليس لدينا أية فرص كانت » ·

وفى الساعة السادسة مســاء كنت أطرق باب كولونيل دوشتيك حيث أذن لى بالدخول · وبعد التحية بدأت الحديث بقولى : « أيها الرفيق العقيد · أرجو المعذرة فيما سوف أعرضه عليك » ·

وأعربت له عن رغبتي في مغادرة سميرش وقدمت عدة أسباب توجب نقلي من هذه المنطقة . فتجهم وجهه وقال : « يا للجحيم . كيف تجرؤ على أن تذكر أمامي مثل هذا الاقتراح ؟ أطرد من ذهنك هذه الافكار وأحذر أن تعود اليها . وأخرج من هنا الآن ! » .

وغادرت الغرفة . وبدأت أهبط درجات السلم بينما أقول في نفسي : أنت أيها الحقير جدير بالقاء قذيفة عليك . وقررت ألا أضيع الوقت ولابد لي من رؤية جنرال كوفالشوك في الغد .

وفي تلك الليلة سألت بطريق المصادفة أين يقضي الجنرال أوقاته أثناء فترة العمل . فعلمت أنه كان بعيدا عن المعسكر . ولم يكن هناك من يعلم مكانه أو متى يعود . كما سمعت شائعات جديدة حول نقل مجموعتنا الى القسم العسكري شيزوفويتزي . وكل فرد كان يتوقع أن الجنرال ذهب لاتخاذ الاجراءات اللازمة لنقل وحدتنا الى سبانسيلاف .

وبعد مضي يومين كنا في ستانسيلاف حيث جمع الرائد جريشين كل أفراد المجموعة وبدأ يتحدث : « أيها الرفاق. سوف تنقل جبهتنا الى القسم العسكري شيرنوفيتزي .

وقد كنت أعمل هناك قبل الحرب . وأعرف من تجاربي هناك أن في غاليسيا لابد لكل فرد أن يلتزم جانب الحرص والعناية الى أقصى حد ، وطبقا لمعلوماتنا ليس هناك عدد كبير من الانفصاليين الاوكرانيين ، وفي اعتقادي أن عددهم لا يتجاوز أربعة آلاف ومائتين وهو أمر لا يهمنا كثيرا، وهناك الالوف ممن يسكنون المدن والقرى ولهم نفس التفكير والاتجاه كأولئك الذين يعيشون في الغابات .

« اني على يقين من مقدرتنا على كفاح الانفصاليين في سهولة ويسر . ولكن أمامنا مهمة عسيرة وشاقة وهي مكافحة الآخرين ممن يعيشون في هدوء وسلام بينما هم أشد خطرا في الحقيقة وواقع الامر » .

« ولست أدري كيف تستطيع حكومتنا أن تصل الى حل هذه المشكلة. ولكن بصرف النظر عما تصدره من الاوامر . سوف نعمل على تحقيق غرضين . ابادة العصابات المسلحة في الغابات . وكشف الستار عن أولئك الذين يختفون في المدن والقرى » .

وأخذ الرائد يتحدث عن آمالنا فى المستقبل القريب وتبين لى من كلمات الرائد أن غاليسيا سوف يتم تنقيتها من المنفصلين ثم اعادة استقرار السكان · ولكنه لم يذكر ذلك بصورة واضحة على أية حال ·

وقد أصبحت ملما باجراءاتهم التقليدية لدرجة أنه لم يصبح هناك شيء يعد مفاجأة لى ، ثم أن تجربة اعادة استقرار السكان كما طبقت على القوزاق اقنعت السوفييت بأن لها ما يبررها كوسيلة لاقتلاع جذور أية مقاومة ، ومن المحتمل أن تطبق نفس النظرية على غاليسيا وأن المستقبل سوف يدعو للتفاؤل · كذلك كان من المتوقع أن تلقى بلاد الكربات الروسية نفس المصير ·

وبعد أن استقر بنا المقام في ستانسيلاف بفترة قصيرة · غادرت مسكنى ذات ليلة حوالى الساعة العاشرة وقصدت الى مكتب جنرال كوفالشوك · وكان مساعد الجنرال ـ النقيب تشيرنى ـ على غير وفاق معى ·فلما دخلت غرفة الانتظار حيث كان مكتبه بادرنى بقوله : « الجنرال مشغول ولا يستقبل أحدا » ·

فسألته : « اذن متى أستطيع مقابلته ؟ » ·

وفجأة خرج الجنرال من باب مكتبه وسأل مساعده عن سبب المناقشة ولماذا حضرت · فكانت مباغتة للنقيب وذكر له السبب فى مجيىء ـ وحينئذ دعانى الجنرال الى مكتبه ·

وبينما سرت وراءه أتبعه الى غرفته كان يساورنى الشك وكنت فى حالة عصبية · وأيقنت أنه لم تبق فى جعبتى سوى ورقة واحدة لكى ألعب بها ·

ثم دعانى الجنرال للجلوس بينما كان يبتسم · مما يدل على أنه كان هادىء البال · وقال وهو يحدق النظر الى وجهى : « اذن أنت قررت أن تفارقنا » ·

فقلت « نعم · أيها الرفيق الجنرال » ·

« ولماذا ؟ » ·

وهنا تبـادر الى ذهنى أن ليس هنـاك فائدة ترجى من وراء اللف والدوران • فلابد أن الجنرال قد أدرك بفطنته حقيقة السبب الذى دعانى لزيارته • وقلت دون أن أخشى شيئا : « انى على يقين من أننى فى مهنتى الحالية أستطيع المساهمة فى خدمة الاتحاد السوفييتى أكثر مما أؤديه هنا • وأن عملى فى المخابرات المضادة لا يناسبنى » •

فنهض الجنرال وأخذ يذرع أرض الغرفة وهـو يفكر فى الامر ثم قال :

« وما هى خطوتك التالية ؟ » •

« أريد أن أعمل بالقرب من موطنى فى الكربات الروسية » •

« وماذا بعد ذلك ؟ » •

« هذا كل ما فى الامر أيها الرفيق الجنرال » •

وكان تعليقه على كلامى : « ان ما قلته لا يقوم على أسس سليمة الى حد ما • ولكى لا تعتبر انى قائد يتمسك برأيه فسوف أفعل ما أستطيع مرضاة لك ، ولكى ماذا فى وسعى أن أفعله ؟ ولا يرضينى أن أتركك فى مهب الريح ، وأنت تعلم كما يعلم كل فرد هنا أن هناك طريقين اثنين لمفارقتنا • أحـداهما بين جدران السـجن • والاخرى الاعدام رميـا بالرصاص •

ولست أقصد اعتقالك مطلقا ولا أرى سببا يدعونا لاعدامك ، وعلى ذلك لا يتبقى لدينا سوى واحد وهو نقلك • فاذا نقلت أوزجرود مثلا فهل تكون راضيا عن ذلك ؟ » •

وقلت له : « حقا أن هذا يرضينى اذا لم تكن هناك وسيلة أخرى » •

وكان حديثى مع الجنرال طبيعيا وبصورة غير رسـمية • فالتقط سماعة التليفون وأخذ يتحدث : « أهلا لفتننت كولونيل جوريشف • أريد منك شيئا وهو أن تعد مذكرة لنقل الرفيق ستيفرسى الى أوزجرود •

وللكن تحت تصرف المقدم شيرنيرستيك • وكيف حالك أنت ؟ هل تشعر بحرارة الجو ؟ هذا محتمل • فالجو هنا شديد الحرارة كذلك• ويكاد يكون من المتعذر العمل هنا أثناء النهار • الى اللقاء » •

ووضع الجنرال سماعة التليفون في مكانها ثم قال : « في استطاعتك أن تؤدى أعمالا هامة في منظمتنا ،والمقدم هناك في حاجة شديدة لامثالك• وأنت تعلم حقيقة الظروف في أوكرانيا والكربات • والنفوذ الرأسمالى قد تعمقت جذوره هناك ، وانى أقترح عليك أن تكون معاملتك مع أعداء الاتحاد السوفييتي بشدة لا هوادة فيها • واذا لزم الامر فلن تأخذك الشفقة حتى بوالدك • وهذا كل ما فى الامر » •

فشكرت الجنرال وأسرعت بمغادرة الغرفة • ولاحظت أثناء مرورى بمكتب النقيب تشيرنى أنه كان ينظر الى شذار •

وعند ظهر اليوم التالى استدعانى العقيد دوشتيك الى مكتبه وبادرنى بقوله :

« كم أنت جرىء ! وكيف تقدم على مثل هذا التصرف ! اذ أن الرائد جريشين هو رئيسك المباشر وكان من واجبك أن تلجأ اليه أولا » •

وكان العقيد غاضبا • وأثناء كلامه كان اللعاب يتناثر من فمه على الاوراق فوق مكتبه •

وقلت فى نفسى • ليذهب الى الجحيم • وليغضب كما يحلو له • هذا العجوز اللعين • وعاد يقول : « لو كنت ضابطا نظاميا ولم تكن مترجما فحسب • لقدمتك للمحاكمة العسكرية ! ولم أتوقع منك هذا التصرف مطلقا • لا يعرف حقيقة أمرك سوى الشيطان وحده • أكتب هنا عنوان منزلك » •

وكتبت عنوانى فى موكاشيفو على قصاصة من الورق وقدمتها له • وشعرت برغبتى فى أن أصيح مشتهجا أعبر عن فرحتى • ولكنى أدركت أن الوقت لم يحن بعد • وأن كل شىء يجب أن يسير طبقا للخطة المرسومة •

وبعد ثلاثة أيام غادرت ستانسيلاف فى الساعة الثالثة بعد الظهر. ولم أكن أعتقد أن مجرد النقل من مقر الرئاسة يستدعى كل هذه القوانين والانظمة والاجراءات التي تبدو لا لزوم لها ، فمنذ الصباح الباكر كنت أهرول من مكتب الى آخر للحصول على توقيعات كل من : الضابط المسئول ـ ورئيس القسم المالى ـ ورئيس المكتبة ـ والضابط المسئول عن العهد والمخازن ـ وضابط الذخيرة ـ ورئيس القسم الثانى · وكل هؤلاء كان لابد من أن يوقعوا على شهادة بأنى لست مدينا لهم بشىء ·

وأخذت ألعن هذه الانظمة المعقدة · لقد استغرقت وقتا طويلا · فمثلا كان رئيس الخزانة يقيم فى مبنى على مسافة ميل ، وأثناء سيرى فى الطريق الى مقره كنت أرى فى كل ركن من أركان الشارع لافتات معلقة على المكاتب والمنازل · وعليها « ضابط الامدادات والتموين » · وعلى كل لافتة سهام تشير الى ناحية مبنى رئيس الخزانة ·

أينما سرت كنت أرى هذه اللافتات · وكانت آلاف المنازل فى كل مدينة · فى أوروبا تحمل هذه اللافتات · وكانت تعلق هناك كلما نقل مقر قيادة وحدة من الوحدات الى احدى المناطق هناك ·

وأى فرد عادى قد يتجاهل مثل هذه اللافتات · ولكنها ـ بالنسبة لى ـ كانت دلالة أخرى على الارهاب السوفييتى ·

كم كانت هذه اللافنات تبدو ـ متواضعة لا توحى بشىء ! ·

١٩
طريق العــودة

سارت الأمور طبقا للخطة المرسومة ووصلت الى هوست فى ٢٧ من يوليو ، وبمجرد وصولى الى المدينة غيرت ملابسى الرســمية واستبدلتها بكسوة مدنية • ثم بدأت أتجول على أمل لقاء بعض أصدقائى القدماء •

وكان أول فرد قابلته من أعضاء الحزب الشيوعى فى الكربات منذ عشر سنوات • وكانت تحية لى فى غير تحمس ظاهرة ، وتبادلنا الحديث الودى لمدة لحظة ثم أخذ ينظر من حوله ليرى أن كان هناك من يراقبنا وقال :

« الى أين تظن أن تكون نهايتنا ؟ » •

فقلت بكل صراحة : « الى الشيوعية » • ورد قائلا :

« اذا سألتنى فنحن فى تعاسة وشقاء • ليست هناك حرية أو حياة يانيكولا ، لقــد أدرت ظهرى لاولئك الشرطة من رجال التشيك • وكان ذلك كله سدى دون جدوى بحق السماء ! فعندما كان المجريون هنا كنا ــ على الاقل ــ نتمتع بشىء من الحرية • وفقط من كان لا يقبل على العمل هو الذى يشقى فى حياته • وأما الآن فنحن نعمل كشياطين الجحيم • وأى فائدة ترجى من الحديث • لقد فاتنا القطار » •

فقلت : « هذا منطق غير سليم • انتظر وسوف ترى كل شىء على ما يرام » •

وقال : « لا • طالما كان زمام الحكم فى أيدى البولشفيك فلن ينقشع الغمام • لقد أشتغلت ثلاث سنوات فى مناجم البلجيك • ولو أتيح لى أن أعود اليها لكنت أسعد مخلوق فى العالم » •

وفى الساعة الثامنة من صباح أحد الايام توجهت الى أوزجرود • وبالقرب من المبنى الشعبى للكربات الاكرانية التقيت بفاسيلى أحد أصدقائى القدامى فسألته : « هل تعمل هنا ؟ » •

فقال : « لا • أن عملى فى تلك الجهة » • وأشار الى الشارع تجاه مبنى المحكمة •

« حقا ! مع Cherednichenko شيردنيشيكو » •

« نعم • ولكن كيف عرفت اسمه ؟ » ثم أن مجموعتنا تعمل تحت مباشرة فاس فقلت : « انى أعرف فاس أيضا » وكيف حاله ؟ •

« بالاختصار • هذا الرجل له طابع خاص • ولست أرغب فى زيارته الآن • فهو لا يعرف أحدا • ولا يود أن يعرف أحدا » •

وسألته : « هل يبذل شريدفنيشسينكو نشاطا ملحوظا فىهذا المكان ؟ »•

فقال : « هو يعمل جهد طاقته بل يتجاوزها أحيانا • ألا ترى ازدحام القوم عند مدخل السجن ؟ » •

ونظرت الى الطريق فرأيت فلاحين باقدامهم العارية ورجالا فى سن الشيوخ وأمهات وعشراتم ن سكان المدينة • وكل منهم يحمل فى يده للسجناء •

فقال فاسيلى تعليقا على هذا المشهد : « أن المقيمين فى هذا المعتقل يقاسون آلام الجوع • ويلاقون أنواع الهوان ، ليتك تدرى كم أنا ناقم على الظروف التى أدت بى الى صفوف التشيكيين • وطالما شعرت برغبة جامحة لكى أمسك بمسدسى لكى أقضى على حياتى ولكنى جبان وليست لدى الشجاعة الكافية » •

وقطعت حديثه بقولى : « لدى خطاب باسم شيريدنيشنكو فأخذ فاسيلى يتلفت حوله ثم ينظر الى وجهى فى دهشة وقلق وسألنى :

« أى خطاب هذا ؟ » •

« خطاب من مقر رئاسة الجبهة » . فقال :

« من الرئاسة حقا ؟ دعنى أساعدك فى الوصول الى العقيد . فانك لن تستطيع أن تعرف الطريق خلال هذه الردهات المتعددة » .

وكان الحراس يقفون على باب المبنى . فأشار الى أحدهم وسأل رفيقى :

« هل هذا معك أيها الرفيق المحقق ؟ » .

« نعم . هو معى . ولكنه ليس معتقلا » .

فقال الحارس بحدة : اذن لا أسمح له بالدخول » . وأصر فاسيلى على طلبه يقول :

« ولكنه يريد مقابلة العقيد لبعض شئون خاصة » .

« لدى أوامر بمنع دخول أى شخص . ولك أن تطلب من قائد الحرس تصريحا بالمرور » . وبعد عدة مناقشات تمكنت من الحصول على تصريح بدخول المبنى . وكنت أعرف هذا المبنى القديم وأذكر ردهاته الطويلة وما بها من مئات الضباط . ولكنها أصبحت الآن كخلية النحل واستبدل سميرش بالتشيك النظاميين من منظمة أمن الدولة . اذ أن الكربات الروسية بعد انضمامها رسميا الى الاتحاد السوفييتى . صدرت الاوامر بتعيين العقيد شيريدينشنكو لتنظيم اجراءات الامن .

وفى داخل المبنى ذهلت عندما شاهدت شخصا لم أكن أتوقع رؤيته فقد كان من أصدقائى القدامى . وكان يقف مواجها لجدار الغرفة . وبجانبه أحد الحراس . وتعجبت كيف كان معتقلا بينما هو من أكبر أنصار الوحدة مع السوفييت .

ولاحظت أنه كان فى حالة سيئة . فقد برزت عظام وجهه النحيل . وبدا منهوك القوى وشعر ذقنه طويل . كما كان شعر رأسه على غير نظام ويرتدى قميصا ممزقا ولاحظ وجودى ولكنه سرعان ما أدارة وجهه .

ونادانى فاسيلى فأسرعت للحاق به ثم ··· سألته :

« هل تعرف هذا الرجل ؟ » فقال « لا » ·

فقلت له : « أنه أحد أصدقائى القدامى فاذا أتيحت لك فرصة أعطه سيجارتين هل تستطيع أن تفعل ذلك اكراما لى ؟ » فقال :

« ماذا تقول يا نيكولا ؟ انى لا أستطيع ذلك مطلقا · ولكن اذا كان لدى أوراق قضيته ففى وسعى أن أفعل شيئا · أما فى هذه الحالة · فالامر يختلف » ·

وتضايقت لعدم استطاعتى مساعدة صديقى القديم · فتوجهت الى الحارس الواقف بجواره وقلت له : « أيها الرفيق الجاويش · أود أن أقدم لسجينك السجائر » ·

وبدا على الحارس أنه استنكر هذا الرجاء · ولكنه تلفت حوله ثم همس فى اذنى : « أعطه ما تشاء ولكن لا تدعنى أراك وأنت تفعل ذلك » ·

ولكن صديقى رفض ما قدمته له · وكانت عيناه تدلان على ما يشعر به من القلق والكراهية ·

ثم انتحيت جانبا وأنا أشعر بالحرج ، ولم يكن من حقى أن أوجه اللوم اليه · فلم أكن فى نظره سوى أحد التشيكيين ·

بعد ذلك اصطحبنى فاسيلى الى مكتبه حيث دعانى للجلوس وقدم لى سيجارة وقال : « دعنا نتحدث قليلا وأرجو ألا تكون فى عجلة من أمرك » ·

« لا · لست فى عجلة على أى حال » · فبدأ حديثه :

« أخبرنى · هل تظن أنهم سوف يسلمونك للروس اذا هربت الى تشيكوسلوفاكيا ؟ » · وكان ردى عليه :

« بطبيعة الحال . فالموقف فى تشكوسلوفاكيا هو نفس الموقف هنا . والتشيكيون لهم مطلق الحرية فى التصرف هناك أيضا » .

« وما رأيك فى الامريكين ؟ » .

فقلت : « لست أدرى شيئا عنهم » .

ثم واصل حديثه : « ألا تدرى حقيقة ما وصلنا اليه ، ومن قبل كنت اذا سمعت أحدا يقول أن الاتحاد السوفييتى ليس سوى سجن مغلق . كنت لا أتردد فى قتله ، ولكنى أرى الآن أن ذلك حقيقة واقعة . ولست على يقين من أنى . فى الغد . سوف أقف مواجها لاحدى الجدران أو أنتظر على باب أحد ضباط المباحث كما يقف صديقك الآن . ولكن ماذا نصنع فى مثل هذه الظروف ؟ » فقلت له :

« لست أدرى أيضا » .

فتجهم وجهه قليلا وقال : « الامر واضح . فانت لا تثق بى كما يفعل غيرك ، وعلى أية حال فانى أعتبر كل من يشك فى أمرى له الحق فى ذلك . فقد أصبحت حياتى فى مهب الريح لا تستقر على حال . ومثل هذه الحياة مصيرها الى الجحيم » .

وحقيقة الامر أنى لم أكن أثق بالرجل ثقة تامة . وبالرغم من أنه لم يكن سىء الاخلاق الا أنى كنت أخشى تطورات الموقف وتأثيرها عليه . أولا . كان يتحدث علنا عن الاتحاد السوفييتى . ثم أين كان حديثه ؟ فى داخل مبنى رجال شرطة الكربات .

وأخذنا فى الحديث حول احداث الماضى لمدة نصف ساعة قبل أن أسأله ليرشدنى الى مكتب الكولونيل . وفى طريقى مررت بفتاة جميلة وكانت تحمل تحت أبطها بعض الملفات ثم واصلت سيرها بعد أن رمقتنى بنظرة استغراب . وفى الحق كان وجودى مدعاة للشك لانى لم أكن معروفا فى هذا المكان . وكان القوم يتابعوننى بنظراتهم على طول الطريق .

ثم أشار رفيقى الى مكتب الكولونيل وطلب منى أن أعود لزيارته فيما بعد .

وكنت قد وضعت خطتى من قبل • ولكنى ترددت لحظة أمام الباب وأعدت التفكير فيما أنا قادم عليه • ثم طرقت الباب فسمعت صوتا نسائيا يطلب منى الدخول •

وقالت الفتاة : « من تريد أن تقابله ؟ » •

« الرفيق اللفتننت كولونيل » •

« وماذا تريد » فقلت لها :

« لدى خطاب له من جنرال كافولشيك وهنا بدت على وجه الفتاة مظاهر الاهتمام وتغيرت لهجتها وقالت : « تفضل بالجلوس • سوف أخبر العقيد فى الحال » •

ثم اختفت وراء باب كبير مبطن بالجلد وعادت بعد لحظة تشير الى بالدخول •

وكان المقدم شيرونشينكو ضابطا روسيا ومثاليا • طويل القامة • وله وجه يشع ذكاء • وعيناه ثاقبتان • ولون شعره يضرب الى الصفرة • وله جبهة عريضة • وكان يرتدى كسوة مدنية مصنوعة من التيل « فلانلا » فتقدمت نحوه ورفعت يدى بالتحية العسكرية ثم سلمت اليه الخطاب • وبعد أن أطلع عليه قال : « يسرنى أن تكون معى هنا • وأرى أن كولونيل جويشسيب يثنى عليك كثيرا • فى أى بلد كان مولدك ؟ » فذكرت له اسم قريتى •

أشار اليها قائلا : « هذا هو اقليم هوست « •

« نعم أيها الرفيق المقدم » فقال :

» حسنا • أنى فى حاجة الى رجال من أمثالك للعمل معى فى هذا الاقليم »• ثم جلس الى مكتبه وبدأ يكتب شيئا على فرخ من الورق •

وجاء بخاطرى أنه يكتب أمرا بتعيينى فقلت فى الحال :

« سيدى الكولونيل ! » •

فتوقف عن الكتابة وسألنى : « ماذا تريد ؟ » ·

« أن لى طلبا » ·

« انى مصنع اليك « ·

« هل أستطيع الحصول على أجازة لمدة شهر واحد على الاقل ؟ » ·

« لاى سبب ؟ » ·

« انى أشعر بتعب فى الغدة الدرقية » ·

« هل هذا مرض خطير وهل تحس بآلم » ·

« لا · لم أشعر به بعد · ولكنى سوف أصاب به اذا لم أسارع باجراء عملية جراحية ومن المحتمل أن تحدث لى بعض مضايقات » ·

فقال : « فى مثل هذه الحالة لابد من ارسالك الى المستشفى العسكرى »

وفى هذه اللحظة تمنيت أن أرى العقيد يسقط ميتا · وبادرته بقولى :

« لا · أرجو ألا تفعل ذلك ، فان لى صديقا فى موكاشيفو وهو طبيب وجراح قدير · وأثق بمقدرته الى حد كبير » ·

فصاح فى وجهى بصوت غاضب يدل على نفاذ الصبر وقال : « ليس هنا مجال للمناقشة والمساومة · اذهب الى موكاشيفو كما تقول ثم عد الى هنا بعد شهر واحد وفى الميعاد المحدد ،وخذ هذه الورقة الى الرائد ونيسوف فهو مدير ادارة المستخدمين » ·

وبعد مغادرة مكتب الكولونيل توجهت مباشرة الى الرائد ونيسوف · وسرت فى صف طويل من التشيك القادمين من جميع أنحاء الاتحاد السوفييتى · ويجاهدون عبثا للحصول على حقوق منطقة الكربات الروسية ·

وكان بجوارى فى الصف شاب برتبة الكابتن فسألنى : « من أين قادم أيها الرفيق ؟ » وقلت له : « أنا من المواطنين » ٠

فقال : « حسنا للغاية ٠ وأي مدينة هنا تعد المعيشة فيها أفضل من غيرها ؟ » ٠

وكان ردى عليه : « أن الشيطان نفسه يصعب عليه أن يحسن الاختيار٠ والحالة سيئة فى كل مكان على السواء ٠ وبلادنا أصبحت فى حالة فقر شديد » ٠

« ماذا تقول ٠ مع انى سمعت فى كييف بأنها قطعة من الجنة » ٠

فقلت : « تلك هى قصص خرافية ٠ وكنا نظن أيضا أنكم فى نعيم ٠ فى ذلك الجانب من خط القتال وهذا هو السبب فى انضمامنا الى الاتحـاد السوفييتى » ٠ وقال الكابتن :

« لسنا نشعر بمثل هذه الدرجة من سوء الحال » وربما كان حديثى شائكا بالنسبة اليه ٠ فسكت عن الكلام ٠

ووقع كابتن دينسوف على أوراق الاجازة دون أسئلة كثيرة لا لزوم لها٠ وتمكنت من كسب الوقت ، وكان هذا هـو أهم شيء مؤقتـا ٠ وكنت أستنشق الهواء فى شيء من الحرية عند مغـادرتى مبنى ادارة الامن فى أوزجرود كما لو كنت خارجا من السجن ٠ ولكى أطمئن أخذت أتجول فى أنحاء المدينة عدة ساعات ٠ حتى اذا أصبحت على يقين من أنه ليس هناك من يتبعنى تسللت الى منزل V ٠

وعلمت من امرأة فى المنزل أن V قد أرتحل ٠ فرأيت أن أتصل به فيما بعد ٠ ثم قررت أن أسرع بمغادرة المدينة الى الغابات حيث لا أرى أحدا ولا أسمع صوت أحد ٠ وكلما رأيت أى فرد من ضباط الامن يسير فى الطريق كنت أتجاهلـه ، وقررت أن أصبح خـالى الذهن ٠ ولكن منظر التشيكى كان يجلب لى ذكريات مؤلمة عن الماضى القريب ٠ وكنت شديد الرغبة فى نسيان كل شيء وأن أمحى من ذاكرتى صورة التشـيك الى الابد ٠

وقضيت بقية اليوم أتجول في أنحاء الغابات • وحتى هناك كانت لا تزال تجول بخاطرى تلك الاحداث المزعجة فى السنة الماضية • ولكنى كنت سعيدا بشعورى بالحرية • وأن ليس هناك أحد يرقب حركاتى • على الاقل لمدة شهر من الزمان • واننى ـ قبل كل شيء ـ لا أزال على قيد الحياة • ولاول مرة فى مدى سبعة أشهر منذ مجيىء الى سميرش • وبدأت أشعر بأنى مخلوق كغيرى من سائر المخلوقات وكما كنت من قبل •

وفى اليوم التالى بدأت أسير فى طريقى الى اورجرود • وكان هناك الكثيرون ممن أود أن أتحدث اليهم ، فهناك بدشا رئيس ادارة التربية والتعليم ورسيين رئيس ادارة المواصلات • ثم لينتور وقد أصبح رئيسا للشئون الدينية • وأخيرا بوساشوفا • وبجانب هؤلاء كان هناك عدد ممن يعملون فى مبنى « الرادا » ولابد لى من زيارتهم •

وكانت اقامة المبنى الشعبى فى عهد الجمهورية التشيكية الاولى وكان تحفة فنية فى ذلك العصر ، ولم تكن عليه حراسة مشددة كغيره من المبانى • وكل فرد كان يستطيع الدخول دون اذن خاص • وبداخله كان القوم من جميع الطبقـات يزدحمون فى الصـالات والممرات • وكانت هنـاك صفوف طويلة تقف أمام بعض أبواب معينة •

واتجهت انظارى فجأة الى باب ذلك الالعوبة م• ويس الذى كان وزيرا للتجارة ، وكانت الصالة خارج مكتبه مشحونة بقوم فى حالة اضطراب ظاهر • ثم خرج من مكتبه رجل متوسـط العمر ويمشى على عكازين • ويصيح ساخطا : « عليكم اللعنة أيها الاوغاد ! » عندما كنتم فى حاجة الى متطوعين للالتحاق بالجيش الاحمر كنتم تلوحون بالوعود والعملة الذهبية ، وأما الآن • وبعد أن أصبحت عاجزا فانكم تتخلو عن مساعدتى ولو بورقة بسيطة » •

وواصل صيحاته بالفاظ بذيئة لدرجة أن النساء الواقفات فى الصف أخذن يحولون وجوههن من الحرج الشديد ، ثم اشترك بعض الرجال من الواقفين فى الصف وأمام باب الوزير • فى اللعنات مع ذلك الرجل العاجز والذى كان من المحاربين القدامى •

حتى اذا ازدادت الجلبة والضوضاء فتح الوزير باب غرفته وأطل منه وهو يقول :

« اذا لم تخرجوا من هذا المكان فى الحال · فسوف استدعى جنود الميلشيا » ·

وهنا صاح الرجل الكسيح وهو يلوح فى الهواء مهدد بعكازه :

« سوف أبصق فى وجوه رجالك من الميلشيا » ·

وعند ذلك هممت بالخروج فقد شاهدت الكثير من المتاعب أثناء اقامتى القصيرة فى أوزجرود ولم أرغب أن أرى أكثر من ذلك ·

وأثناء خروجى سمعت الرجل العاجز يصيح قائلا :

« أنتم تمنحون الاعتمادات والتراخيص لاولئك الذين يتعاملون فى السوق السوداء · ثم تحرمونتى منها لانى لا أستطيع تقديم الرشوة المطلوبة » ·

ثم وجدت كيرشا يعمل جاهدا لنشر التعليم بين أبناء الكربات الروسية وافتتح عدة مدارس عين بها أساتذة من الاتحاد السوفييتى ·

فقال : « أن اعادة تنظيم مدارسنا تستغرق جزءا كبيرا من وقتى · وفضلا عن ذلك · ليس لدينا مدرسون اكفاء · وأهم جزء فى برنامج مدارس السوفييت هو « المبادىء السياسية » ، وتصادف أن لدينا عددا قليلا من الاخصائيين فى هذا النوع من التعليم ·

ولما توجهت لزيارة لينتور علمت أنه كان فى مهمة خارج المدينة ، فاستقبلنى مساعده أورا الذى بدا عليه أنه سعيد بلقائى · وكانت هيئته كما كانت من قبل لم تتغير مطلقا · فقال : « أجلس يانيكولا · أين كنت ؟ ومن رأيتهم ؟ » فسألته : « متى بدأت فى العمل هنا ؟ » وكان رده :

« منذ فترة طويلة · وهل تتصور أنى أحب مهمتى هنا · وعملى هنا يبعث على الشعور بالارتياح · مثلا · أنظر الى ما أفعله الآن · انى

أجمع مستندات لتمهيد الطريق لتحويل كنيسة اليونان الكاثوليك الى كنيسة للروس الاثودوكس ، وانظر . لقد أعددت بعض المستدات اللازمة» ثم نظر الى وجهي كمن يريد أن يصل الى أعماقي ـ وقال :

« يا نيكولا. أن الكربات الروسية لابد أنتعتنق الديانة الارثودوكسية وأؤكد لك أنها سوف تصبح كذلك في وقت قصير » .

وكان الرجل منهمكا في حديثه حول خططه لدرجة أنه لم يسمع طرقة على الباب .

فقلت له : « أني أسمع دقا على الباب » . فاستأذن وتوجه نحو الباب .

وكان الداخل فاسيلي ومعه نقيب من التشيك . ولم يبد عليه أنه عرفني . وسأله الكابتن التشيكي : « أين لانتور ؟ » فأبلغه المساعد بغيابه .

عندئذ قال النقيب لفاسيلي : « وماذا نحن صانعون ؟ ثم تحول نحو المساعد وأضاف قائلا : « نحن في حاجة الى قوائم اليونان الكاثوليك ومعرفة مدى نشاط الارثودوكس ، كما نريد أيضا . وبصورة عاجلة . قوائم بأسماء جميع طلبة المعاهد الدينية » .

وتحولت نحو النافذة بينما أدرت ظهري الى فاسيلي والضباط التشيكي .

« وهل تريد ذلك الآن أو في وسعك أن تنتظر حتى الغد ؟ » .

فقال التشيكي في شبه امتعاض : « سوف ننتظر حتى الغد » .

وشعرت بالارتياح عتندما غادر فاسيلي ورفيقه .

ثم واصلت حديثي مع المساعد مرة أخرى وقلت له : « أنك لن تستطيع بمفردك أن تعمل على تحويل الكربات الروسية الى الديانة الارثودوكسية . وهناك من يستطيعون ذلك . واني أثق بهم ثقة لا حد بها » ثم قلت في شيء من السخرية :

« ولن يصيبهم الفشل ولن يخدعوك · أتدرى ما سوف يفعلونه ؟ أنهم سوف يعتقلون نسبة معينة من رجال الكنيسة · ثم يهددون الباقين · ويقتلون عددا منهم · وسوى ترى أن الامور تسير فى هدوء الى الهدف المقصود ، وفى الواقع · سوف يجرى كل شىء فى مجراه الطبيعى ولن يكون لدينا ديانة اليونان الكاثوليك ولا ديانة الروس الارثودوكس ·

وبالنسبة للاتحاد السوفييتى فان الديانة ليست سوى مخدر لاعصاب الشعوب ، واذا كان السوفييت يؤيدون الآن الارثودوكس فصدقنى أن هذه ليست سوى مناورة تكتيكية ، ألم يسألوك الآن عن قوائم النشاط الارثودوكسى ؟ من المؤكد أنهم سألوك · ولماذا ؟ هل لأنهم يثقون فى الارثودكس ثقتهم فى اليونانيين الكاثوليك · ليس الامر يا عزيزى أودا كما تقول · فهذه صفقة خاسرة دون شك » ·

ولكن أودا كان يرى عكس نظريتى · فقد كان متمسكا بفكرته حول تحويل كنيسة اليونان الكاثوليك الى كنيسة الروس الارثودوكس ، ولا يرى شيئا خلاف هذا الهدف · وكان على استعداد لقبول أى شىء يفعله التشيك بحيث تصبح الكربات الروسية بأكملها تعتنق مذهب الارثودوكس · وقضيت معه حوالى نصف ساعة أخرى ثم انصرفت بعد أن ودعنى بشعور صادق ·

وكان قد مضى على وصول الجيش الاحمر هنا ما يقرب من السنة · وكان من المتعذر أن يتعرف الانسان على الكربات الروسية فى هذا الوقت، وفى أثناء فترة الجمهورية التشيكية الاولى كان لدينا مالا يقل عن العشرين حزب سياسى · وأصبح الآن كل عضو فى هذه الاحزاب من أعداء الاتحاد السوفييتى ·

وبعد أن قمت بجولة قصيرة تبين لى أنّ العقيد شيردينشنيكو كان يعمل بكل عنف ويتخذ اجراءات مشددة · وكان الالوف من الاسرى يشهدون بذلك ، وبدا أنه قبل أن يمضى وقت طويل سوف يصبح كل سكان الكربات الروسية وراء القضبان ، وعلى الاقل كل مواطن لم يكن شيوعيا · ومهما بدا هذا الامر لا يدخل نطاق العقل · فقد كنت أرى الامور تجرى نحو هذا الهدف · ثم أنه ليس هناك من يمكن أن يقال عنه أنه ليس عدوا لحكومة السوفييت ؟ فحتى رجال الكنيسة بل وحتى ملاك الاراضى ؟ كانوا من الاعداء ! ·

وكان لدينا عدد قليل من العمال فى هذا الجزء من بلادنا • وكنت على يقين من أن القليلين من هؤلاء ـ أن وجدوا ـ سوف ينضمون الى البولشفيك، وكان لابـد لهم من أن يتطلعوا الى ما يجرى من حولهم • ولم يكن من المستغرب أن أرى جماعة المثقفين منا يهربون الى المجر أو تشكوسلوفاكيا •

حقا أن هذا من سخرية القدر • اذ أن أهل الكربات الروسية الذين كانوا يكرهون المجريين أشد الكراهية • ويتوقعون وصول الجيش الاحمر بفارغ الصبر • أصبحوا الآن يهربون من الجيش الاحمر الى المجر ، وكان هروبهم من العقيد شيريدنيشنكو •ومن التشيك • ومن النظام الشيوعى • ومن حكم السوفييت •

ومعظم الهاربين فى سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ الذين لجأوا الى الاتحـاد للسوفييتى كان مصيرهم الى معسكرات الاعتقال فى سـيبيريا أو كانت نهايتهم فى كوليما أو فى أقبية الموت الاخرى ، والتحق عدد قليل منهم بجيش جنرال شعوبودا • وكثير من هؤلاء سقطوا قتلى فى المواقع من أجل سوكولوفا فى دوكلاى بسلوفاكيا ، ورفض من بقى منهم على قيد الحياة مغادرة تشيكوسلوفاكيا والعودة الى أرض الوطن . وفضلوا حياة اللاجئين على فظائع السوفييت •

وكان المزارعون يخشون المزارع الجماعية • ويرفضون الاشتراك فيها فاتبع البولشفيك سياسة الخداع والدهاء تجاه المزارعين والتجار • فاثقلوا كاهل الفلاحين والتجار بفرض الضرائب على أى ملكية خاصة لدرجة أنهم لم يجدوا مناصا من أن ينفضوا أيديهم عن ممتلكاتهم ، ويخضعوا مكرهين الى سياسـة الحكومة الاسـتبدادية ، ولم يحـاول المزارعون أن يخفوا ما يشعرون به من كراهية واحتقار للبولشفية •

نعم • لقد كانت فترة مظلمة • تلك الفترة حيث انضمت بلادنا الى الروسيا • ولم يكن القوم • فى الواقع • يدركون حقيقة عددهم اللدود • فقد كانت الكربات الروسية تقاسي حياة هى أقرب الى الموت جوعا • يضاف الى ذلك • الخوف المستمر مما يأتى به الغد •

وحتى اذا نظرنا الى المستقبل فلن يكون فى الغد سوى الاسى والفراغ• ولن تكون الامانى سوى التطهير الواسع النطاق •

وحقا تبين لنا أنها لم تكن لحظة مناسـبة حيث كنا نحلم بالاتحـاد مع روسيا • وما أشد ما كانت عواطفنا تتجه نحو هذا الاتحاد بعد آلاف السنين من القيود الاجنبية • وأما اليوم فقد أصحنا نتخلى عن هذه الاوهام الباطلة •

وليس هناك من يوجه اليه اللوم غير البلشفيك ، فهل يسعد أى انسان أو يشعر بحريته اذا أرغم على أن يقضى ليلة متيقظا فى محطة السكة الحديد وهو يخشى السرقة أو الاغتيال ؟ ، أو اذا كان أخوه معتقلا ولم تصل منه أية رسالة لمدة تزيد عن الشهرين ؟ ، أو كان له أخت اعتدى بعضهم على عفافها • واغتيل أبوه وهو يحاول أن يدافع عنها ؟ أو فى كل يوم ، وفى غمرة هذه الاحداث – يجد أن الصحف والاذاعة تؤكد له أنه ليس فى العـالم أحـد غيره يتمتع بحريتـه • حتى ولو كان لا يذوق طعم النوم عدة ليال متوالية وهو يخشى أن يسمع طرقة على بابه • أو اعتقاله لسبب واحد وهو أنه ليس شيوعيا ولكنه ديمقراطى منذ خمسة أو عشرة أو حتى عشرين سنة مضت ؟ ، أو عندما يحدث أن أعز أصدقائه ممن شاركهم أفراحهم وأحزانهم قد هرب الى المجر ولم يذكر له شيئا خوفا من افشاء أمره ؟ أو اذا تقاضى مثل هذه الاجور الزهيدة بحيث لا يكفى مرتب شهر كامل لشراء ما يزيد عن عشرة كيلو جرامات من الخبز ، ومن قبل كان فى استطاعته شراء مائتى كيلو جرام بنفس الثمن ، أو كان قضى حياته فى فلاحة الارض من مطلع الشمس الى مغربها • ولم يعرف فى حياته أى فندق ، ويعمل على توفير كل بنس من أجل أطفاله • بينما يتساقط عرق جبينه على كل جزء من زراعته • ثم يرغم هذا الرجل الطيب على تسليم أرضه الى رجال المزارع الجماعية فى الغد ، وبعد ذلك يتلقى الاوامر من الاوغاد واللصوص والسكارى والادنياء من أهل القرية ، وفى الشـتاء عندما تصل درجة الحرارة الى التجمد • يحضر التشيك الى قريته ويخرجون الناس من مساكنهم ويحشرونهم فى عربات كما لو كانوا من الماشـية ويشحنونهم الى سيبيريا • ثم يعطون أرضهم الى المغول •

ثم جـاء يوم كان هؤلاء القوم فيه ينتظرون وصول الجيش الاحمر – عندما كانوا يظنون أن ستالين سوف ينعم عليهم بالحرية وبجنات النعيم •

لقد انخدع هؤلاء التعسـاء الى أبعد حـد • واتضحت الآن حقيقة السوفييت أمام أهل الكربات الروسية •

وما الحياة الا متاع الغرور • ولكن الجماهير لم ينتفعوا بشىء مطلقا من تلك الشعارات الزاهية والتى تكيل المدح والثناء على ستالين والحزب تارة• ثم الحزب وستالين تارة أخرى • لم ينتفع القوم من تلك الكلمات الزائفة التى يذيعها راديو موسكو وصحف السوفييت • ولكنهم فى حاجة الى الحرية •

ولم أستطع أن أوجه اللوم الى أى من أولئك الذين هربوا الى تشكوسلوفاكيا • أو أوجه اللوم الى أولئك الجبناء الذين وقفوا مكتوفى الايدى وتقبلوا حكم السوفييت كأمر واقع ، ولكنى أمقت أولئك الذين ـ بسبب اطماعهم لكى يصبحوا من القادة ومن الرؤساء والمديرين ـ أصبحوا ينتفعون من بطاقات التموين المحولة على الحوانيت المصرح لها بمقادير محددة • والمحولة على المخازن الكبيرة بأنواعها ، كذلك أكره أولئك الذين يصيحون ويصفقون مع الاتحاد السوفييتى لحياة الحرية والسعادة التى نعيشها • ثم أحنى رأسى أمام تلك الاصوات التى ارتفعت تحتج على ذلك وكان مصير أصحابها الموت فى السجون وفى معسكرات الاعتقال •

ولابد أن الشعب الروسى ـ بينماهو غارقفى الدماء والشقاء والعذاب ـ سوف يعمل جاهدا على مكافحة الشيوعية غير الانسانية ولو أنه من الصعب العسير التغلب على الدكتاتورية الشيوعيةمن بوليس الامن وبوليس الدولة وما الى هؤلاء وهؤلاء حتى رجال سميرش •

وكما قدم الشعب الروسى ضحاياه على مذبح التحرير فهو على استعداد لتقديم المزيد من تلك الضحايا • ولى ثقة كبيرة فى الشعب الروسى وفى روحه التى لا تقهر • وأعتقد أنه ـ فى القريب العاجل • سوف يكلل جهادهم بانتصار الروس على الظلم والطغيان •••

٢٠

الخروج من الظلمات

في العاشر من شهر أغسطس توجهت الى موكاشيفو حيث التقيت بصديقي فاسيا • فاستقبلني بالترحاب وقال : « حقـا يا نيكولا لقـد أخطأت في ظني بأنك في عداد الاموات • اذا لم تصلني منك كلمة واحدة طوال هذه الشهور ، دعني ألمسك لازداد يقينا بوجودك هنا • ولنجلس فلا داعي لوقوفنا هكذا » •

ونادى والدته وقال : « لدينا ضيف يا أماه • من تظنين ؟ » •

وجـاءت أمـه واحتضنتني وهي تقول : « أين كنت يا نيكولا بحق السماء ؟ أنك لم تكتب لنا سطرا واحدا • ولا أعتقد أن ذلك يرضيك • ولكن لاداعي للتفسير والايضاح الآن • لابد أنك تشعر بالجوع • دعني أقدم لك شيئا من الطعام » •

فلما غادرت الغرفة سألت صديقي : « ما هي آخر الانبـاء ؟ وهل اعتقل أحد من زملائنا ؟ » فقال :

« لم يحدث شيء من ذلك من وقت قريب • اذ يبدو أن رجال الدولة قد غفلوا عنا » •

ثم قلت له : « أود أن تصنع معي معروفا » •

وابتسم كأنه فهم مغزى كلامي وسـألني : « أي نوع من الاوراق تحتاجها ؟ » •

فأجبته : « الاوراق كلها كاملة بما فيها شهادة الميلاد » •

« هل تريد أن تولد من جديد ؟ » •

« نعم » •

وحك فاسيا ذقنه مفكرا لحظة • ثم قال مؤكدا : « اطمئن يا نيكولا فسوف يتم كل شيء على ما يرام » •

ثم قال : « سوف تولد من جديد فى مدى ثلاثة أيام • ثم كأنك انتهيت من دراستك والتحقت بعمل حيث قضيت ثلاث سنوات • وفى الغد سأتوجه لزيارة « العم » •

وبدأت أسأله عن آخر الانباء من موكاشيفو • وكان بودى أن أسأله عن فيرا ولكنى لم أجد الشجاعة الكافية • ومنذ بضعة أشهر كنت قد قررت أن أريح هذه الفتاة من ذاكرتى ولكنى فشلت ولم أستطع ذلك •

وربما كان فاسيا يقصد ألا يذكرها لى فسألنى : « ألا تشعر بالتعب ولا تستطيع أن تصغى لحديثى ؟ » •

وقلت فجأة : « لست متعبا • وكيف حال الفتاة فيرا ؟ » •

« آه • تلك الذكرى التى تشغل بالك • لقد تزوجت الفتاة » •

وكنت أتخيل أن يقول أى شى آخر ما عدا هذا النبأ الذى يعنى أن كل شيء قد انتهى • وأن هذه هى النهاية • فسألته :

« وهل هى سعيدة فى زواجها ؟ » •

« يبدو ذلك » •

وكنت لا أزال أحب الفتاة ولم أستطع أن أخدع حقيقة شعورى بحبها حتى بعد أن سمعت بزواجها • ولجأ فاسيا لتغيير مجرى الحديث ولكنى لم أعد أصغى اليه ، فقد أصبحت غارقا فى الخيال وشعرت بأن الامر قد انتهى فعلا •

وهل أستطيع أن أعشق فتاة أخرى مرة ثانية • ذلك ما دار بمخيلتى• وربما أستطيع أن أنساها قبل مضى وقت طويل ، وما دام الانسان ضعيفا لا حول له ولا قوة فهو ــ لا شك ــ عاجز أمام ما تأتى به الايام • وفى مدى سنة أو اثنتين سوف يتولى الزمن اصلاح كل شيء فى حينه •

وبعد قليل عادت والدة صديقي وهي تحمل أواني الطعام ، وفي أثناء الاكل وبعد أن انتهينا منه . كان ذهني مشغولا بالفتاة فيرا .

ثم اتضح لي أن فاسيا لا يرغب في مغادرتي منزله اذ سألني : « هل لك أن تقضي هذه الليلة معنا ؟ الامر لا يستدعي أن تتجول هنا وهناك . ولدينا مكان متسع ومن حيث الاوراق فلا تهتم بهذا الامر . فسوف يتم كل شيء على أحسن حال . وبعد ذلك سوف نقرر أي طريق أفضل عليك أن تسلكه » .

وأقمت مع فاسيا بعيدا عن الانظار حتى استلمت الاوراق المطلوبة بعد مضي يومين . وفي ١٣ أغسطس اتخذت طريقي نحـو منزلي لكي ألتقي بوالدتي ووالدي ولكي أودعهما الوداع الاخير .

وكنت لا أزال أذكر منحنيات الطريق ـ الحقول والغابات وكل ما كنت مغرما به من عهد الطفولة ، وجال بخاطري الماضي وذكرياته الجميلة بينما مررت بالكنيسة القديمة ومنازل الفلاحين . حتى اذا اقتربت من القرية حيث ولدت امتلات مشاعري بذكريات الماضي وأحداثه المؤلمة وكأني كنت أتجول هائما على وجهي ، ومع ذلك كنت أشعر بالسعادة . ففي لحظات سوف ألتقي بوالدي ووالدتي وسوف يكون استقبالي بكل تحية وترحاب وتهنئتي بالوصول والتجاوز عن غيابي عنهما .

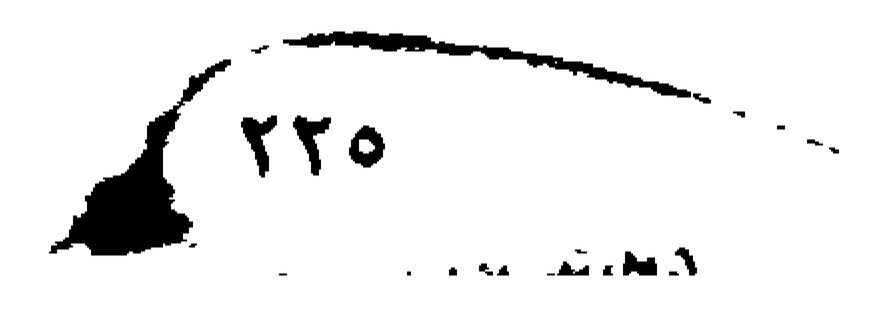
ولدى وصولي دهشت اذ وجدت المنزل خاليا . فقد كان منتصف شهر أغسطس وهو وقت يستدعي العمل في الحقول حيث كان والدي منهمكا في الحصاد .

واستقبلني بتحيته الهادئة كما كان يفعل دائما وقال :

« ها أنت قد عدت الى منزلك » .

« نعم . جئت اليك يا والدي » .

وأخذ كل منا ينظر الى الآخر لحظة قصيرة قبل أن نبدأ في الحديث . ورأتني والدتي فأسرعت باستقبالي والدموع في عينيها من فرط سرورها بقدومي .



وسألني والدى فى شىء من الفخر : « كيف ترى حديقتى ؟ » ·

« انها روضة رائعة » ·

وكان والدى مغرما بحديقته وكنت أعرف السـبب ، فلما كان فى مقتبل الشباب كان يساعد جدى فى زراعة أشجار جديدة ، وأصبح يعتبر الحديقة الآن طفلا عزيزا لديه · كما يعتبر جزءا من حياته تلك الاشجار المحملة بثمار التفاح والكمثرى والبرقوق والكريز وكل ما فى البستان ·

وجلست معهما على الحشائش فى ظل أشجار الفاكهة ، بينما أخذت والدتى تتحدث عن أنباء القرية ـ عن العمدة والقسـيس ورئيس مكتب البريد ·

وبدأت تقول : « غالبا ما كنت أتوجه الى مكتب البريد لأسأل أن كانت هناك رسالة منك » · وكان فى صوتها نبرة توحى بشىء من اللوم ·

واخفضت رأسى خجلا منها · فانى لم أرسل لهما خطابا واحدا منذ ما يزيد عن سبعة أشهر ، وكانت هناك عدة أسباب لهذا التأخير · ولكنى لم أحاول أن أبرر موقفى لانى أعرف أنها قد سامحتنى والتمست لى عذرا منذ وقت طويل ·

ثم أن والدى لم يشترك معنا فى الحديث حول شئون القرية · وظل مقطب الجبين وهو يفكر وينظر الى الفضاء حوله ·

وأخذت والدتى تواصل حديثها فى شئون القرية · وعلمت منها أن ثمن الارض قد تدهور كثيرا · لان الفلاحين كانوا يخشـون بأس رجال المزارع الجماعية ويحاولون بيع أراضيهم ولكنهم لم يجدوا من يقدم على شرائها خوفا من التهديد بانشاء المجمعات الزراعية ، كما علمت بهروب معظم أصدقائى الى تشكوسلوفاكيا والمجر · وأن هناك مدرسة عليا قد افتتحت فى القرية المجاورة · وبصورة عامة كان الفلاحون يخشون تحويل أراضيهم الى المجمعات الزراعية ·

وفجأة سألني والدى : « هل ستبقى معنا فترة طويلة » ٠

« لمدة يوم واحد » ٠

وهنا تنهدت والدتى وانفجرت بالبكاء وهمست تقول : « يوم واحد فقط » ٠

ولأول مرة فى حياتى كان هناك حجـاب كثيف بينى وبين والدى ٠ حجاب ليس سوى ظلال من الشك ، فتلك كانت الحال فى هذه الايام ٠ ولم تكن لى ثقة بأحد حتى والدى ٠ كما خشيت أن أعرضهما لخطر اكتشاف أمرهما ٠

واذا بوالدى يقول فى صراحة وجرأة : « يابنى ٠ انى لن أبرح مكانى ولن انتقل الى أى مكان آخر » ٠ فأدركت من كلماته هذه أنه كان يفكر فى هذه الامور منذ فترة طويلة وأنه كان مشغول الذهن بأوجه نشاطى طيلة هذه الاشهر ٠

ثم قال فى هدوء وثبات : « لقد عاش جدى فى هذه الارض ومن بعده والدى ٠ وعلى هذه الارض سوف أقضى بقية أيامى ٠

وقد قضى جدك فى أمريكا خمس سنوات حيث كان يعمل فى مناجم الفحم ، ثم عاد الى أرض الوطن بعد أن فقد قوته وصحته هناك ، لا يابنى٠ قد يشغف الانسان بما فى الدنيا من جمال وبهاء ٠ ولكن أرض الوطن هى أفضل مستقر ومقام ٠

وفى حياتى شاهدت عهودا تأتى وعهودا تنـدثر ، أولا كان لدينـا المجريون ثم جاء بعـدهم الرومانيون وتلاهم التشـيكيون ، وأخيرا جاء الاوكرانيون ٠ ثم عاد الينا المجريون ٠ والآن جاءنا السوفييت » ٠

ويسط لى كفيه وعليهما طبقة من الجفاف والخشونة ، واقترب منى لكى أراهما فى وضوح ٠ وقال : « لقد كانت يدى دائما بهذه الصورة ، وأنت قد تجاوزت عهد الشباب ٠ وانى أشكر الله على ذلك ! ويجدر بك أن تفعل ما تراه صوابا ، فالله وحده هو الحكم العدل » ٠

وماذا يكون جوابى له ؟ لقد كان كلامه حقا وصدقا ، ولكنى كنت على حق أيضا • وكنت أشعر بأسف عميق لانى لا أستطيع أن أعيش مع والدى ووالدتى • وكنت أشك فى أنهما يدركان تماما السبب الذى من أجله قمت بمهمتى هذه • وكان والدى لابد له من أن يعيش بين أرضه وزراعته لانه يدرك بفطنته أنه مرتبط بمثل هذه الظروف ، وكانت الارض عنصرا من عناصر حياته ، واتصلت حياته بالزراعة • والموت وحده هو الذى يستطيع أن يبعده عن حديقته المحبوبة وعن حقوله وعن المكان الذى ولد فيه ونشأ فى ربوعه •

وكل انسان يسير طبقا لما رسمه القدر ، وكان من المحتمل ـ اذا لم أكن قد نلت قسطا من التعليم ـ أن أشترك مع والدى فى عمله فى حرث الارض وزراعة الحقول • وربما كنت أسعد حالا آلاف المرات •

ولكن بعد كل ما شاهدت • وبعد كل ما قاسيت • لم يبق أمامى سوى شىء واحد ـ وهو القتال •

وسوف أرحل فى الغد •••


Bibliotheca Alexandrina
0408398